أعلام المسلمين

٧٨

هارون الرشيد

الخليفة العالم والفارس المجاهد

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم

دمشق

أعلام المسلمين

٧٨

هارون الرشيد

الخليفة العالم والفارس المجاهد

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم

دمشق

هارون الرشيد

الخليفة العالم والفارس المجاهد

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلم - دمَشْق : صَ.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّارالشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
صَ.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰـذَا الرَّجُـل

كـان يصحـب العلمـاء والأوليـاء، ويحـافـظ علـى الصلـوات والعبادات، ويصلِّي الصبح في وقته، ويغزو عاماً، ويحجُّ عاماً.

ابن خلدون

كان شهماً شجاعاً حازماً جواداً ممدحاً، فيه دين وسُنَّة.

ابن العماد

كان الرشيد رحمه الله يحبُّ الحديثَ وأهلَه، وفي أيامه كَمُلتْ الخلافة بكَرَمه وعدله، وتواضعه، وزيارته العلماء في ديارهم.

ابن العماد

كان يكره المراء في الدين والجدال ويقول: إنه لخليق أن لا ينتج خيراً.

الخطيب البغدادي

كان يصلِّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلاّ أن تعرض له علَّة، وكان يتصدَّق في كلِّ يوم من صلب ماله بألف درهم.

الخطيب البغدادي

كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجّ وجهاد، وغزو وشجاعة ورأي... وله نظر جيد في الأدب والفقه.. وكان يحب العلماء، ويعظّم حرمات الدين، ويبغض الجدل والكلام.

الإمام الذهبي

ما من نفس تموت أشدُّ عليَّ موتاً من هارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري.

الفضيل بن عياض

حج الرشيد سنة ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٣.

خليفة بن خياط

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى : من يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

المؤلف

مقامه عليَّ بنَ عيسى، وسار جعفر بن يحيى البرمكي في جيش كبير إلى الشام فأطفأ الفتن.

٨ ـ في سنة ١٨٢هـ بايع الرشيد لابنه عبد الله بولاية العهد بعد محمد الأمين، وولاَّه خراسان، ولقَّبه بالمأمون، ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقَّبه المؤتمن، وولاَّه على الجزيرة والثغور.

٩ ـ في سنة ١٨٧هـ حدثت نكبة البرامكة الشهيرة، وتركت آثاراً بعيدة، وفي هذه السنة تجدّدت حروبُ الروم، فأرسل الرشيد لإخماد الفتنة جيشاً كثيفاً بقيادة ولده القاسم.

١٠ ـ في سنة ١٩٠هـ خرج الرشيد بنفسه لقتال (نقفور) على رأس جيش يبلغ مئة وخمسين ألفاً سوى الأتباع، ورجع منتصراً سعيداً.

١١ ـ في سنة ١٩٢هـ خرج الرشيد لمحاربة رافع بن الليث بخراسان في جيش كبير، ومرض حين بلغ بلدة الري، ولكنه واصل السير حتى انتهى إلى طوس.

١٢ ـ وصل إلى طوس سنة ١٩٣هـ ومات بها، يوم السبت لأربعٍ خَلَوْنَ من جمادىٰ الآخرة.

* * *

هارون الرشيد في سطور

١ ـ ولد هارون الرشيد ببلدة (الرّيْ) بطبرستان في آخر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وقيل: في أول المحرّم سنة ١٤٦ هـ، وأمّه تُدْعىٰ: الخَيزُران، وهي أم ولد يمانية.

٢ ـ بُويع بالخلافة يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ في صبيحة الليلة التي مات فيها أخوه الهادي بمدينة السلام.

٣ ـ استوْزَرَ الرشيدُ سنة مبايعته بالخلافة يحيى بنَ خالد البرمكي، ودفع إليه بخاتمه، قائلاً: قلّدتُك أمر الرعيّة فاحكم فيها بما ترى.

٤ ـ في سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد (الأمين) من زوجه زُبيدة بولاية العهد من بعده، وعمره حينئذٍ خمس سنوات!.

٥ ـ في سنة ١٧٦ هـ، خرج عليه يحيى بنُ عبد الله بالديْلم، فأرسل إليه الفضلَ بنَ يحيى البرمكي في خمسين ألفاً وأعاد الأمن إلى نصابه.

٦ ـ أخْمد الرشيد عدَّةَ فتن في الجزيرة ودمشق في سنتي ١٧٧، ١٧٨ هـ.

٧ ـ عزل الرشيد منصور بن يزيد عن خراسان سنة ١٧٩ هـ، وأقام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدّمة

أُلِّفت كُتُبٌ عن هارون الرشيد، وكُتبتْ بحوث شتَّى عنه، فالرجل ليس بمجهول المكانة، وليس بمن تبحثُ عن أخباره في المظان المختلفة فلا تجد غير القليل، ولكنّه سعيد الحظّ فيما كُتب عنه من ناحية الكثرة المطّردة، وهذه الكثرة الهائلة هي مصدر الخطأ في كتابة تاريخه، وذلك أنّ بعض الكاتبين يقرأ الرِّوايات المختلفة، فيختار منها ما يروقُه، ويبْني حكمَه على ما اختار، وبعضٌ آخر يقرأ الروايات المختلفة أيضاً، فيختار منها ما يروقه، ويجيء ما اختاره مناقضاً لما اختار سابقُه فيَبْني حكمه على ما اختار من الروايات المتناقضة مع سابقتها، وتكون النتيجة أن يظهر الرشيد في مظهريْـن مختلفين، والقارئ حائـرٌ أمام تضـارب الآراء، واختلاف النتائج.

إن الحرية الزائدة في كتابة التاريخ الآن جعلت بعض المؤرِّخين المُحْدَثين، يرسمُ ـ في عَقْلِه ـ الصورة العامة للشخصيّة التي يتحدثُ عنها، ثم يمضي في التقاط ما يؤيّد الفكرة التي رسمها في عقله، غافلاً عما يُعارضُها، أو مهملاً له عن عَمْدٍ، وقد كان السلفُ من الكاتبين يَعرضُون

كلّ ما قيل، وفيهمْ من يتركُ الحُكم النهائي مكتفياً بعرض شتّى الروايات، ليجعل للقارئ حريّة اختيارِ ما يَرْجُحُ عنده، وهذا بعضُ ما نجدُه في تعدّد الروايات المختلفة، إذ تُساقُ سوقاً دون تمحيص، وهذا ما يبعث بلْبلةً لا داعي لها.

أما مَن يذكر شتّى الروايات ثم يختار منها ما تقومُ الأدلة على صحّته، فيؤيّده بالبرهان الأكيد، ويتّجهُ إلى تفنيد ما اتضح عوارُه من الروايات بالدليل المقنع أيضاً، أما مَن يفعل ذلك اليوم فنَفرٌ قليلٌ تضيعُ بحوثهم في طوفانٍ بحوثٍ أخرى يستطيلُ أصحابها بكثرة التحليل، وخلابة التأويل، ولأسلوبهم طلاقةٌ واسترسال، فيجذبون إليهم من يقف عند كتبهم وحدها دون أن يعلم أنّهم قد انتحوْا ناحيةً خاصّةً، وتركوا غيرها دون ترجيح! وهذا قصور معيب مهما تُمحِّلت له الأسباب.

وقد ابتُلي تاريخ الرشيد بنفرٍ من هؤلاء ـ كما ابتُلي مطلع العصر العباسي الذي تقدّمه بسنوات عدة حتى اتّصل إليه ـ بما ابتُلي به شخصُه، فأصبحنا نجد من يتحدّث عن هارون الرشيد، وكأنه رجلٌ مضطربٌ متناقض يصلّي ويصومُ نهاراً، ثم يسرفُ في اللّهو والعبث ليلاً، ويستمع إلى النُّسَّاك والواعظين دامعاً، ثم يتركهم إلى مجالس اللهو والغناء عابثاً ضاحكاً، ولكلِّ موقفٍ نصٌّ يصطاده الباحثُ من الروايات المتعارضة، حتى ضاعت حقيقةُ الخليفة في هذا الحشْد المتناقض، كما رأينا من يكتبُ عن العصر العباسي، وكأنه خَلُصَ للَّهو والمجون، ونأى عن الجدّ والحزم، ودليلُ ذلك أبياتٌ قالها الماجنون من شعراء اللهو والعبث، فهم

وحدَهم لسانُ العصر وتَرْجُمَانِه! أما غيرهم من الملتزمين الجادّين فليسوا من العصر في قليل أو كثير!.

بَدا ذلك لي حين قرأتُ هذا الانحيازَ المتحكّم، وهذا التجاهل المتعمّد لا يستقيم به القولُ على سننه القويم، فرأيتُ أنْ أكتب عن هارون الرشيد بخاصّـةٍ وعن العصر العباسـي بعامة، لأبرز - أولاً - شخصية الخليفة كما نطقت بها الروايات الصحيحة مستقاةً من أمهات الكتب النَّزيهة ذات الحَيْدَةِ الأمينة، ولأُبرز - ثانياً - حقيقة العصر العباسي الذي وُصِمَ وصمةً منكرة حين حُكم عليه بالانحدار والانحلال لأشعارٍ قالها نفرٌ من عشّاق اللهو والمجانة. فأصبح شعرهم دليلَ الانحدار الشامل، وأصبحتْ سِيرهم في الحياة دليلَ الانْحلالِ المتسع الممتد، وما هكذا يكون منطق التاريخ العادل، حين ينظر المؤرخ بعينٍ مريضة فلا تُريه غير الظلام.

وإذنْ.. فهذه الأوراق القليلة ستجلو حياة الرشيد كما تنطق بها الروايات الصحيحة من ناحية، وستجلو العصر العباسي كما يتّضح في سِيَر علمائه وقضاته وفقهائه وأمرائه وخلفائه، ولا يظن القارئ أننا نبرئ الرشيد من كل مأخذ، فللرّجل مآخذه التي سجّلوها بالدليل جوار حسناته التي شهدتْ بها الآثار الصادقة، كما لا يظنّ القارئ أننا سنرسم للعصر صورة مثاليةً يتراءى بها مشـرقاً زاهياً، بل سنصف العصر بما فيه من ارتفاع وانخفاض، وشرف وخسّة، وحسبُنا أننا لم نفْتعل شيئاً لم يكن، بل رأينا المسرح حافلاً بشخوصه فرسمنَاه كما رأيناهُ، وما شهدنا إلا بما علمنا!.

وليس الأمر في كتابة تاريخ الرشيد محصوراً في كُتّاب العرب، بل إنّ خطأً كثيراً يفِدُ لنا مما يُسطّرُهُ كُتّابُ الغرب عن الخليفة الرشيد، لأنّ سيرته بأوروبا قد أصبحت ذائعةً لدى الكثيرين منذُ تُرجمت قصص (ألف ليلة وليلة) إلى لغات الغرب، وقد سحرت الناس هناك، وفيهم من ظنّها واقعاً حدث، لا خيالاً أُلِّف، فانطلقوا يكتبون عن الخليفة، بتأثير ما قرؤوه في أساطير (ألف ليلة وليلة)، ومن يدَّعي التحرز منهم لا يفوتُه أن يكون صاحبَ استنباط جديدٍ في أحكامه، ولن يعدم من الروايات ما يؤيّد وجهة نظره، إذْ ليس من شأنه أن يُتعب نفسه في التمحيص والتدقيق، حتى الذين خالطوا المسلمين سنواتٍ عدة في ربوع العالم العربي، وأكلوا طعامهم، ولبسوا لباسهم، وتحدثوا لغتهم، فإنك تجد منهم من يشْتطُّ في الحكم التاريخي اشتطاطاً لا مبرّر له.

وأضرب المثل بالمستشرق الحاج (عبد الله فلبي) الذي كان يُسمّى قبل إسلامه (جون فلبي) وقد شغف بالتاريخ الإسلامي، وعاش زماناً في العراق، ولازم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في مكة والطائف ملازمةً كان من آثارها ما أخرجه من الدراسات التاريخية في سِفرَيْن هما: (بلاد العرب الوهابية) و(الربع الخالي) وكان المظنونُ به أن يرجعَ إلى علماء التاريخ من المسلمين إذا أشكل عليه أمر قبل أن يهجم بالأحكام الجائرة، ولكنّه ألَّف كتاباً موجزاً عنوانه: (هارون الرشيد)، ولم يُقصر حديثه عليه فقط، بل تعدّاه إلى أمورٍ كثيرة تسلسلت منذ عهد أبي بكر رضي الله عنه، وفي حديثه ملاحةٌ جاذبةٌ، لأنه صاغه بأسلوب أدبيّ مع نزوع إلى

التحليل وفق أفكاره الخاصة، ولكنه ظلم الحقيقة ظلماً صريحاً حين قال[1]: «إن هارون هو الذي قوَّضَ أركان الدولة العباسية».

ولا أدري كيف فعل ذلك الرشيد!! وقد كان الرجل الأول في العالم كله، تحذَرهُ أوروبا شرقاً وغرباً، ويحسب له حاكم الأندلس الأمويُّ ألف حساب، وإذا كان قد منح الأغالبة في أفريقية حكماً استقلالياً، فقد كان وليّ نعمتهم، وإليه يُجتبى ما اشترطه عليهم من أموال، وقد فُقِدَت الأندلسُ في عهد أبي جعفر المنصور، ولم يقلْ أحدٌ إنّ الدولة قد بدأت تنهار لانتزاع الأندلس من سلطانها الممتد، ومن العجيب أن يكون هذا الرأي المتسرّع موضع تسليم مُطلق، من بعض من يحتذون الأوروبيين دون نقاش، فينقلونه وكأنه أمرٌ مسلَّمٌ لا يختلف فيه اثنان!.

على أن الحاج عبد الله فلبي لم يكن صاحب هذا الرأي الأول، إذ نقله عن دائرة المعارف الإسلامية من بحث كتبه الأستاذ (مستر ستين) حيث أعلن أنّ عهد الرشيد كان مبدأ انحطاط دولة بني العباس، وقد ردّ عليه الأستاذ (محمد كرد علي) ردّاً سديداً سأذكره فيما بعد، وهكذا يتلقّف الرأي باحثٌ عن باحث دون تمحيص! وغريب أن نقرأ الشُّبه فنصدقُها، ثم نقرأ تفنيدها فنتجاهله ونحيد عنه!.

لقد شرعتُ في كتابة هذا البحث، وليس يعنيني إنصاف الرشيد، قدرَ ما يعنيني ظهورُ الحقيقة كما رأيتها بعد التمحيص، ولم أشأ أن

---

(١) هارون الرشيد، تأليف عبد الله فلبي، وترجمة السرنجاوي، ص٧٥.

أهجم على تاريخ الرشيد قبل أن أتحدّث عن الأعاصير السياسية التي سبقتْه منذ ظهرت دولة بني العباس، فأفردتُ الفصل الأول لهذه النشأة، إذ مِنْ هدفي الواضح أنْ أبرز معالم العصر الدقيقة، ويأتي حديثُ الرشيد تالياً لما سبقه، فأسير بالقارئ الممتد على صراط قويم.

وجاء الفصل الثاني شارحاً ما أَعْقب العاصفة من سكون بدأتْ فيه روحُ الاستقرار على نحوٍ يُبشّر بالرسوخ، وذلك ما تمَّ في عهدِ المهديّ والد الرشيد، ولم يكن بدّ من أن أتحدّث عن بيعة المهدي لولديْه الهادي والرشيد، في فصْل تالٍ باعثةً حزازةً ملتهبةً في نفسَيْ الشقيقيْن، وقد انتهت الأحداث بتولية الرشيد بعد رحيل أخيه، وهنا يبدأُ حديث الرشيد في موضعه المطمئن، وقد تسنّم ذِروة الخلافة دون منازع بعد وفاة شقيقه، ولم أُطلْ في تفاصيل نشأته، لأن ما ورد عنها لا يحتمل الإسهاب.

ومن ثم اتجهتُ إلى الحديث عن شخصية الرشيد في فصل يُعتبر من أهمّ فصول الكتاب؛ لأنه يحدّد مكان الخليفة تحديداً تُدعّمه الوقائع المشاهدة، كما يبدّد ما تورّط فيه المحلّلون من نتائج لم تَقمْ على استقراءٍ بصير، أما حديثي عن سلوك الخليفة الديني فقد استمدّ عناصره من الحقائق الثابتة، وما به من المواقف متردَّدٌ بين المؤرخين، ولكنّي جمعتُ ما صحّت دلائله من الأنباء لأرسم الملامح الحقيقية لشخصيّة أمير المؤمنين، وهي شخصيةٌ مؤمنةٌ تستجيب لهواتف الخير، وتُنصتُ لمنْ ينصحُ عن قلبٍ سليم، وإذن فهذا الفصل مكمِّلٌ لسابقه، وبهما يقف القارئ على الروح العام الذي أمْلىٰ على الخليفة اتجاهَه في الحياة، ولم

أحاول أن أُنزّهه عن خطأٍ وقع فيه لأنه بشر، وكلّنا يخطئ.

وهنا يكون الرشيد قد بدا في صورته الواضحة دون لِثَام، كما يكونُ ما افترضه المتسرّعون من عَوامل التناقض في شخصيته قد بُدِّد بالدليل، فسلِم الرجلُ من مثالبَ أُلصقت به دون تنقيب، وبقي أن يَسْلَم عصره المفترى عليه أيضاً، ولن يكون ذلك بغير تسجيل الحركة العلمية، والنهضة الأدبية تسجيلاً لا يَغْرقُ في سَرْد المصطلحات والفهارس والأرقام، بل يمضي سائغاً مستطاباً في خلال الحديث عن أعلام الفكر في عصر الرشيد، وأعلام الأدب كذلك.

فإذا ألمَّ القارئ بما كان من الجدّ الناهض في هذا المجال فقد تمهّد الطريق لردّ الافتراء الصارخ على هذا العهد حين زعم الزاعمون أنه كله عهد انحلالٍ ومجونٍ، وأنّ المُجّان من الشعراء وحدهم هم الذين يمثّلونه، وهي فِرْيةٌ تردَّدت في العشرينيات من هذا القرن، ووجدْتُ من قضى عليها بالحجة البالغة، وقد طالعتُ أكثر ما وقعتْ عليه يدي في هذا المجال، وقدّمتُ خلاصته المركّزة في هذه الصفحات مُسنداً كلَّ دفاعٍ محكمٍ لصاحبه، لأنّ هناك قوماً بذلوا الجهد الجاهد في تفنيد هذه الشُّبَهِ وضاعت آراؤهم في أنهارِ الصحف دون أن تُجمع في كتاب، فكان من الحق أن يُذكروا بالفضل، وهم به أحرياء.

وقدْ تتالى الحديث فيما بعد ذلك عن دستور الدولة في عهد الرشيد، وعن جهاد الخليفة في حروبه مع الروم والخارجين عليه بحيث كان يغزو عاماً ويحجّ عاماً! وقد استغرق ذلك صفحاتٍ كثيرة لابدّ منها،

ليعرف مَن ادّعى أنّ الرشيد كان لاهياً عابثاً تاركاً حبل الأمور في يد غيره أنّه ذهبَ في الوهم إلى مدًى بعيد، فقد كان للرّجل أعوانه الكبار، ووزراؤه أولو الخطر، ولكنه معهم لا يستريح حتى يتقدّم الكتائب، ويرسم الخطط دفاعاً وهجوماً، وبذلك صار صاحبَ الاسم المفزع لدى أعدائه المتربّصين!

أما مأساةُ البرامكة فلابدّ من الحديث عنها، ولم أستطعْ أن أدافع عن الرشيد في تسرُّعه الباطش، إذ رأيتُ التُّهم التي أُلصقت بالقوم لا تسيرُ على قدميْن، فأوضحتُ ذلك، مستريحاً لسماع الرأي الآخر إذا بدا لصاحب علمٍ أن يقوله؛ ومن مكمّلات هذا الحديث أن أكتب فصلاً خاصاً بسيدات القصر من والدةٍ وزوجةٍ وأختٍ، لصلتهنّ الماسّة بالأحداث، وفيهن من افتُري عليها أشْنع الافتراء، فتطلّبت الإنصاف، وإذا كانت كتبُ الأدب والقصصِ الخيالية قد أفرطتْ في ذكر مواقف مختلفة بين الرشيد الحازم وأبي نُواس المستخفّ المتبذّل، فقد أفردتُ فصلاً يحدّد العلاقة الحقيقية بين الرشيد وأبي نُواس مستنداً إلى بحثٍ وافٍ كتبه مؤرخ جليل القدر، هو الأستاذ (عبد الحميد العبادي)، مع إضافاتٍ تتعلّق بصلة الرشيد ببعض الشعراء، وما افترته كتب الروايات الخيالية من قصص للعبث والترويج، لا ظلّ لها من الحقيقة، وإن تركتْ آثارها العميقة في بعض ما كتبه المتسرعون دون تمحيص!.

وفي فصل (ماذا قال هؤلاء) رأيتُ أن أقدِّم آراء الكبار من مفكّري العصر في هذا الخليفة النابه، وهي آراءٌ لا تعرف التحيُّز، إذْ ذكرتْ

وجهاتٍ من النظر ، لها أدلتها الناطقة ، وقد يُعارضها فريق آخر ، ولكن عليه أن يقدّم من الأدلة الصادقة ما يشفع له في هذا المقام .

ولم أتحدّث عن مجد بغداد ـ المدينة العاصمة ـ لأنّ الرشيد قد ملكها مزدهرةً نـاضرةً. فلم يزد رونقها المعماري شـيئاً عما كان، وقد اكتفيتُ بأن أرْوي في الختام قصيدةً رائعة للشاعر الكبير الأستاذ (علي الجارم) رحمه الله، يتحدّث عن عاصمة الرشيد بما لم يبلغه قلم مؤرِّخ مصوّر، فكانت هذه القصيدة ختاماً جيداً لهذه الصفحات؛ إذ تحملُ أريجَ الشعر، وبهاء التاريخ . . وقد آن أن أُسلم الكتاب لقارئه، راجياً أن يجد به ما يفيد ويستجيد .

٢٠/٨/١٤١٧هـ
٣٠/١٢/١٩٩٦م

الدكتور محمد رجب البيومي

نيرانٌ مشتعلة

حين بُويع أبو العباس السفّاح بالخلافة صعد على المنبر فقال[(١)]:

«أيها الناس! قد هدى الله بنا الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأظهر بنا الحق، ورفع بنا الخسيسة، وجمع الفُرْقة، ثم وثبَ بنو حرب وبنو مروان؛ فابْتزُّوا الخلافة وتداولوها بينهم وجاؤوا فيها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا، وتدارك بنا أمتنا، ليمنّ بنا على الذين استُضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا؛ وإني لأرجو ألا يأتيكم الجوْرُ من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح».

ثم وقف عمّه داود بن علي ـ وكان خطيباً بليغاً ـ فقال[(٢)]:

«أيها الناس! إنّا والله ما خرجْنا في طلب هذا الأمر لنكثر لُجَيْناً،

---

(١) تاريخ الطبري: ٩/ ١٢٥.
(٢) المرجع السابق: ٩/ ١٢٦.

ولا نحفُر نهراً، ولا نبني قصْراً، وإنما أخرجتنا الأنفةُ من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كَرِثَنا من أموركم، ولقد كانت أموركم تُرمِضُنا ونحن على فرشنا، لكم ذمةُ الله تبارك وتعالى، وذمةُ رسوله ﷺ، وذمةُ العبّاس رحمه الله أنْ نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ».

سمع الناس هذا القولَ من الخليفة وعمّه، فاستبشروا بإشراق عهدٍ جديد، يكشف الظلام وينشر الضياء، فقد تعهّد أميرُ المؤمنين ألاّ يأتيهم الجَوْر بعد الآن، وألاّ يحلّ الفساد بعد الصلاح، وتعهّد عمه ولسان بني العباس داود بنُ علي أن يحكموا بما أنزل الله، وأن يعملوا بكتاب الله، مع الناس جميعاً خاصَّتهم وعامّتهم».

ولكنّ استيثار الناس لم يَدُم طويلاً، فقد تنمّر العباسيون على كلّ من خالف، بل على كلّ من ظنوه مخالفاً وإن لم يخالف، بل على كلٍّ من توهّموا أنّ العامة يحبّونه لمكانته من رسول الله ﷺ، فأعملوا السيفَ قتلاً واستئصالاً، وسالت الدماء أنهاراً، لأوْهى الأسباب، وغدروا بالصديق المناصر، إذ رأوا ما توهّموه من مخالفتهم في الرأي، ودبّروا مكايد الاغتيال حين خافوا أن يعلنوا الانتقام لغير ما سبب ظاهر، فارتاع الناس جميعاً، وأصبح اللائذ بمنزله ـ بعيداً عن القوم ـ يتوهّم الشرّ على بُعد مكانه، واحتجازِه في منزله، فكيف بمن يسير معهم في طريق واحدة؟! وقد عَدُّوا أنفاسه، ووعوْا كلماته، وذهبوا بها في التأويل مذهبَ من يظنّ الرِّيبة في كل لفظ! وإذنْ فلابدّ من الانتقام العاجل على جُرم متوهّم!

وما هكذا كان بنو أمية، إذ لم يُنازلوا غير من رفع الراية عاصياً، وشهر السيف محارباً! فأين اليوم من الأمس؟!.

نظر الناس فوجدوا الذين مهّدوا الأمر للسفاح يُقتلون، وتُنْتَحلُ الأسبابُ الموهومة لتبرير استئصالهم، وإذا كان استئصالُ بني أمية بأفظع ما يُنتظر من الهلاك، وأشدّ ما يُتوقع من التدبير له ما يُبرّره عند قوم، فكيف يُستأصل بهذا الهول الفظيع مَنْ ساقاهُمُ الودَّ، ومهَّد لهم السبيل، وكيف يحارب الأبناء الصغار من ذويهم في أرزاقهم ومعايشهم، وكأنهم فجرة أشرار، وما اقترفوا من إثم، وما همّوا بذنب! أين ما قاله أبو العباس حين أعلنَ أنّ الله قد تدارك بهم المُستضْعفين ليجدُوا الأمن بعد الخوف؟! وأين ما قاله داودُ بن علي حين أعلن أن للناس ذمة الله، وذمة رسوله، وذمة العباس أنْ يحكم أمير المؤمنين بما أنزل الله، وأنْ يعمل بين الناس بكتاب الله، وأن يستنّ بسيرة رسول الله؟!.

كان الانتقام مبيّتاً. والإرهاب سنناً مشروعاً، ولم يكن حادثاً طارئاً، أوْحَت به مناسبةٌ طارئةٌ كما حاول بعض الكتّاب أن يقولوا بما يُلفّقون من روايات تجمعها كُتُب الأدب دون تحقيق، لأن عاقلاً من الحكّام لا يذبحُ أعداءه ذبْحاً لمجرّد بيتِ شِعْر يسمعه، أو كلمة يشي بها حسود، إذا لم يكن صاحبَ عَزْم مُبيّت على الانتقام، فهو يلْتمسُ له الفرص حتى تحين، فإذا شاهدَ من الملابسات ما تُحقق رغبته سارعَ إلى الانتقام استجابةً لهواتف نفسه قبل أن يستجيب لشاعرٍ ينطق بالاستئصال. ومتى كان شاعرٌ مرتزقٌ يطرق الأبواب سائلاً ملحفاً صاحبَ أمرٍ في

السياسة، أو مشيراً برأي في الحكم، حتى يكون كلامُه مبعث الثورة والانتقام!.

يقولون[1]: كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره، وبنو هاشم دونَه على الكراسي، وبنو أميّة على الوَسائد قد ثُنيتْ لهم، وكانوا في أيامِ دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير، ويجلسُ بنو هاشم على الكراسي، فَدَخَل الحاجب وقال يا أمير المؤمنين: رجلٌ حجازي أسودُ راكبٌ على نجيبٍ متلثّم، يستأذن ولا يُخبر باسمه، ويحلفُ ألا يُحسر اللثام عن وجهه حتى يراكَ، فقال: هذا غلامي (سديف) يدخل، فدخل فلما نظرَ إلى أبي العباس، وبنو أمية حوله حسرَ اللثام عن وجهه وأنشأ يقول:

أصبحَ المُلك ثابتَ الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
لا تقيلنّ عبد شمس عثاراً ... واقطعنْ كلّ رقلة وغراس
أنْزلوها بحيث أنزلها ... الله بدارِ الهوان والإتعاس
خوفُهم أظهر التودّد منهم ... وبهم منكمو كحزّ المواسي
أقصِهم أيها الخليفة واحسِمْ ... عنك بالسيف شأفة الإرجاس

فتغيّر وجه أبي العباس، وأصابه زَمَعٌ ورعدة، فالتفتَ بعض ولدِ سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم، فقال: قتَلَنا والله العبد، ثم أقْبل أبو العباس إليهم، وقال يا بَني الفواعل أرى قتلاكم من أهلي قد سَلفوا،

---

(١) المحاضرات الإسلامية، للشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، ص٦٤.

وأنتم أحياء، تَتَلذّذون بالدنيا، خُذوهم، فأخَذَتْهم الخراسانية بالسيوف والغُمد فأُهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فإنه استجار بداود بن علي فأجاره، واستوهبه من السفاح.

ويقولون[1]: إن سديفاً هذا دخل على السفاح، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، فأنشده:

لا يغُرَّنْك ما ترى من أناسٍ ... إنَّ تحتَ الضلوعِ داءً دويّا
فضعِ السَّيفَ، وارفعِ السُّوطَ حتى ... لا ترى فوق ظهرِها أُمَويّا

فأمر السفاح بسليمان فقُتل!

يقولون ذلك وأمثاله في رواياتٍ ذكرتْها كتب التاريخ والأدب معاً، حتى ليُخيّل للقارئ المتعجّل أنّ بني العباس كانوا يصفحون ويعفون لولا أنّ شاعراً دفعهم إلى الانتقام، وما كان لشاعرٍ مهما بلغ تأثيره في نفس الخليفة أن يأمرَ باستئصال جماعةٍ، فيُجابَ على فوره لو لم تكنْ هناك عزيمةٌ مبيّتة على إبادة هؤلاء، والذين أخرجوا الأموات من القبور، وأخذوا يجلدون الجثث الفانية، ويبحثون عن الخدم والعبيد من حاشية القوم ليأخذوهم بذنوب الكبار، ولم يكن لهم في الحكم وردٌ ولا صدر، هؤلاء لا يظلّون ساكتين، يكرّمون خصومهم ويجلسونهم على الوسائد في مجالسهم، كأنّهم بعض خاصّتهم الأقربين، حتى يسمعوا بضعة أبيات

---

(١) المحاضرات الإسلامية، للشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، ص٦٥.

من الشعر، فتشبّ نار العداء فجأةً بعد أن هبّ نسيم الوئام.

بل إن الإرهاب الغادر قد امتدّ إلى الأصفياء الذين قاموا بنشر الدعوة إلى آل بيت رسول الله ﷺ، وبذلوا في سبيل ذلك، ما لم يبذلْه العباسيون أنفسهم، فلاقوا شرّ الجزاء، كما كان من أمر أبي سلمة حفص ابن سليمان الخلاّل، الذي كان يُقال له وزيرُ آل محمد، فقد تمّ سقوط الدولة الأموية بجهوده التي لم تكن لِتَقلّ عن جهود أبي مُسْلم، وكان فيه فصاحةٌ ولينٌ جذبا إليه النفوس، فتوهّم القوم توهّماً لم تظهر دلائله الصريحة بأنّ هواه مع آل أبي طالب، فبيّتوا الشرَّ لهُ، ولم يستطيعوا مجابهة أنصاره بما يصنعون، فخدعوا أبا مسلم الخراساني وأغروْه بـه، فقال: أنـا أكْفيكمُوه، ثم انتدبَ رجلاً، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة، فيقتلُ أبا سلمة حيث وجده، فقدم الشريرُ لأمره، وتربّص به حتى سفك دمه غِيْلة في مأمنه، وأذاعت العباسية أنّ الخوارج قد قتلته، ومع هذا التَّنصُّل الفاضح من جريمة بلْقاءَ أخذوا يتتبَّعون عمّاله وأنصاره تشريداً وإبادة، حتى خاف أقرب أقربائه أن ينطق باسمه!

وانتقل الـوهْم إلى داعيةٍ آخر لا يقلّ أثـراً في بناء العباسـية عن أبي سلمة، وهو سليمان بن كثير، فاتّهمـوه بما اتّهمـوا به صاحبـه، وأغروا به أبا مسلم، فأخذه بالسيف، وحين رأى شعاعه يبرق في عينه أكبّ على قدمه وهو يقول: اتّقِ الله في دمي، فأنا لم أقترف جريرة، ولم تشفعْ لديه توسُّلاته الباكية! وأبو مسلم في حماقته المتسرّعة كان يظنّ أنه سيرتاح من أمثالِ أبي سلمة، وسليمان ليخلو الجوّ له، وما دَرَى أنّ

الذي دبّر اغتيال القوم كان يخاف التفافهم حولَه، فيكونوا عاملَ زعزعة لاستقرارهم، فأراد أن يكون الجاني أبا مسلم، ليصبح بعد هؤلاء أعزل لا يدرَكُ له ثأر، والعجبُ كل العجب من بطل الحروب وفارس الوقائع، كيف لا ينظر بفكره البعيد إلى حلقات متصلة أُحكم تدبيرها لتضيق وتضيق حتى تعصر رقبته عصراً. وهذا ما كان!.

ولم تكن العباسية على رأي واحد، إذ كان كلُّ أمير يتخوّف من أخيه وابن عمّه، فأبو جعفر المنصور لم ينسَ حقده على أبي مسلم الخراساني حين قَدِم الكوفة، واختار أبا العباس للخلافة دونه حين صاح أيكما ابنُ الحارثية؟ ورأى من الأوفق أن يُظهر الاستسلام، إذ إنّ الأمر أصبح قريباً منه، وهو يدُ أخيه وسيفُه، وعبدُ الله بن علي عمّ أمير المؤمنين قد خضع على مضضٍ، مترقّباً أن يكون صاحب الأمر بعد أبي العباس، وقد جمع حولـه خاصـةً من أنصاره يكونون ساعدَه إذا لزم الأمر.

ووقعت الواقعة، ولم يكن ذلك خافياً على أبي جعفر المنصور، فجعلَ يعقدُ حبال المودّة بينه وبين أبي مسلم، ليكون نصيرَهُ حين تقترب الساعة! أجل حين تقترب الساعة، لأنّ أبا العباس أمير المؤمنين كان يشكو مرضاً يأخذ بخناقه، وتظهر دلائله في وجهه، فهو في عين أصحابه مودِّعٌ غير مقيم، ولا بأسَ أن يستمرّ في منصبه حتى يصمد للفتن والدسائس فيقع شرُّها عليه أمام العامّة، ويخرجَ أبو جعفر وعبد الله وداود بُرآء غيرَ ملومين! وقد أحسّ أبو العباس بقُرب أجله بعد أربع سنواتٍ من خلافته، فعهد بالأمر إلى أخيه أبي جعفر، ومن بعده إلى عيسى بن موسى، وكتب

العهد بذلك، وصيَّره في ثوبٍ، وختم عليه بخاتمه، وخواتم أهل بيته، فكانت السابقة الأولى لبني العباس.

ثم بلغ الكتاب أجله، واستُخلف أبو جعفر، وعصَى عبد الله بن علي عمّه، إذ كان يرى نفسه الأحق والأجدر، ولعبد الله بالشام جيشٌ ومددٌ، ويستطيع أن يزحفَ إلى العراق ليُنازل أبا جعفر، بل إنّ أمراء البيت العباسيّ يرونه أَوْلى من المنصور، فهو أسنّ وأعرق، وقد كان أمرُه سريع النفاذ أيام أبي العباس، بحيث كان لا يعصي لـه مطلباً، إذ يعرف عُقبى العصيـان، وقد خَلا المنصور إلى نفسـه مفكّراً فيما يتهدَّدُه من الأعاصير، وقلّب طرفه ذات اليمين وذات الشمال فرأى أنّ أعظم إعصارٍ يكادُ يهبّ عليه مستأصلاً مُبيداً، لا يأتي إلاّ من أحد اثنين.

أما أوَّلهما فعمُّه عبدالله بن علي، وأما ثانيهما فأبو مسلم الخراساني، وليس لأبي مسلم طمعٌ في الخلافة الرسمية، إذ تقتصرُ وجاهتُه على النفوذ الفعلي في الدولة، فلْيُمهله إلى حين، على أن يتّخذَه ساعداً ونصيراً له في مواجهة عمّه، فإذا التقى الرجلان، وكلاهما خصمٌ لأبي جعفر فسيرتاحُ من أحدِهما لا محالة، وعليه أن يحتال للآخر! ومرّةً ثانيةً يُخدع أبو مسلم في أبي جعفر كما خُدع من قبلُ في أبي العباس السفاح، حين أغراه بأبي سلمة وسليمان!

خُدِعَ أبو مسـلم خديعـةً وأتَتْـه مـن اعتـزازه بشـجاعته والتفـافِ الخراسانية حوله، وأنّه في رأي أبي جعفر فارس الموقف، وبطل المأزق! ولم ينـسَ أبو جعفر أن عمَّه كان يديـر المعركة في خراسـان والجزيـرة

والموصل قبل أن يتمَّ الأمر بني العباس، وله بهؤلاء صِلاتٌ تقرّبهم منه، وتدعوهم إلى الالتفاف حوله، فإذا جابهـهُ أبو مسـلم فقد تخـاذل الخراسـانيون عن تـأييده تبعاً لأبي مسـلم، وهذا ما كـان حين شـاور أبو جعفر أبا مسلم في أمر عمّه، وأظهر له أنّه رجلُ الدولة الذي يستطيع مجابهة عبد الله، وقد قامت العباسية بتأييده، فلا يتم الوفاقُ بين رجالها إلا باستئصال ذوي الغرض من بني قومه، وإن كانوا أقرب قرباه.

وقد انصرف أبو مسلم لقتال عبد الله، إذ أعلن العصيان وبايعهُ أنصاره أميراً للمؤمنين، وكان جنده الكثيف مؤلّفاً من أهل الشام والجزيرة وخراسان، ولسوءِ غدره بأصحابه أمرَ صاحبَ شرطته أن يجمع الجموع لاستئصال مَنْ بجيشه من الخُراسانية، وهم عدّة آلاف، كيلا يُسارعوا إلى الانضمام لأبي مسلم ساعةَ الحرج عند التقاء الفريقيْن، وهي خطةٌ هوجاء ألَّبتْ عليه كثيراً من جنده في الشام والجزيرة؛ إذ رأوْا إخوانَهم يذبحون ذبحاً دون موجب! وكان في مقدرته أن يتحبَّب إليهم، فيعلنَ أنّ أبا مسلم وإن كان خُراسـانياً مثلهم إلا أنه لم يلزم الحيـادَ بين رجليـن عباسـييْن يتصارعان! كان في مقدرته أن يدعوَ رؤساء الخراسانية إلى المشورة، وأن يفسح لهم من صدره، ويُبـوِّئهم أمكنةً مرموقـة تجعلهم يلـوذون بـه، ويَعِدُهم ويمنّيهم حتى يتجنّب شرورهم بأهون ما يبذل من وعود، لا أن يعمل السيف في سبعة عشر ألفاً كما ذكر المؤرخون، ومهما اختلفت الأنظار في حقيقة هذا العدد، فهو لا شكّ عدد ضخم هائل، وقد أُخِذ القوم على غرّة، وسـاقهم فُرادى وهم سالمو الطويّـة حسنو النية، ولو فطنوا للمؤامرة المحكمة لشبَّت ثورةٌ كفت أبا مسلم القتال!.

وجاءتْ مع هذه النكبـة نكبةٌ أخرى، هي مسـألة القائد العربي الشجاع (حميد بن قحطبة)، فقد تخوّف عبد الله أن ينشزَ عليه مع أنّه بايعه بالخلافة، وله جندٌ وعصبيّة، فكتب كتاباً مغلقاً إلى عامله زفر بن عاصم في حلب، وأرسلَه مع حميد، وفيه أمرٌ بقتْله بمجرّد وصوله، وكانت في حميد فطانة، وكأنّه لمس الشرّ في نظرات عبد الله، ففتح الكتاب وعلم ما به، فتيقّن الشر وجمعَ أصحابه، واستشارَهم في أمره، فرأوْا أن يتركوا جيش عبد الله، ويرحلوا معه إلى خصمه، وكانت كارثةً أخرى بعد كارثة الخراسانية؛ لأن جيش عبد الله قد بدأ ينهزم قبل أن يلتقي الخصمان! وليس المجالُ وصفاً للمعركة الحامية بين أبي مسلم وعبد الله بن علي، وقد انتهت باندحار عبد الله وفوز أبي مسلم، بل المجالُ مجال العبرة في هذه الدمـاء التي تُسيّلها الأحقاد، وهذه الأرواح التي تُبذل في معـارك داخلية لا تفيد الإسلام في شيء.

لقد كان في مقدور أبي جعفر أن يسترضي عمّه بأن يعهد إليه من بعده، وأن يجعله والياً على الشام ليأخذ حظّه من الرياسة، فلا يتطلّع إلى منافسةِ حُسِمَ أمرها من قِبَل الخليفة الراحل، هذا لو قدّر المتصارعون مسـؤوليتهم أمام الله في إهدار الدمـاء وإزهاقِ الأرواح، وقد فـرح أبو جعفر بهزيمة عمّه، وقدّر مؤامرة صامتة لاغتياله، فتمّ له ما كان.

ثم رأى أن يتفرّغ لأبي مسلم، وكلا الرجليْن باغٍ غدور، ولابدّ أن يعمل كلاهما على تعزيز شوكته، ولم يكنْ لمثل أبي مسلم أن يطمع في الخلافة، لأنه يراها وَقْفاً على أهل البيت، وهو ليس منهم، وأبو جعفر

يعلم ذلك، ولكنّه لا يسمح أن تكونَ في الدولة كلمة عليا لغيره، وإنْ كان أبا مسلم! وقد لاحت نذر الشرّ، وصمّم أبو جعفر على اغتيال غريمه، ولن يكون ذلك في معركةٍ حربيّة لا يعرف كيف تكون عاقبتها، فلابدّ من الاحتيال، وبذل الوعود، وأخذ العهود حتى يطمئن القائد الغريم إلى أيمانٍ تُعقَد، ومواثيقَ تؤكَّد، فيأتي زائراً، ويجدُ من البشاشة في اللقاء الأول ما ينزع كثيراً من وساوسه، وهذا ما عناه أبو جعفر حين أظهرَ البشاشةَ والترحيب، لتأتي الليلة الثانية مُحكمة التدبير، فقد هيَّأ المكيدة، وأعدَّ وسيلة التنفيذ، واختار من خاصّته مَن قاموا بالهجوم المفاجئ! وذلك في عُرف السياسة الوصولية مستباحٌ جائز، ولكنه في شريعة الخُلُق تآمرٌ واغتيال، لقد كان المظنون بدولةٍ قامت لتحارب الظلم أن تكفّ عن الظلم، ولكنّها قالت ما لم تفعل، ونظر الناس فإذا بنو العباس شرٌّ من بني أمية، إذْ لم يكن هؤلاء على جَوْرهم يشتطّون في الانتقام كما اشتطّ أولئك.

والذين يكتبون التاريخ السياسي، يذكرون مصارعَ أبي سلمة، وسليمان بن كثير، وأبي مسلم الخراساني، ويتناسون مصرعَ علميْن من أعلام الفكر في هذا العصر، ومقامُهما في الدولة لا يقلُّ عن مقام أبطال السياسة ورجال الحروب!! ذانِكَ الشهيدان هما عبد الحميد الكاتب، وعبد الله بن المقفع، ومؤرّخو الأدب يجعلون الأول رأسَ طائفة الكتّاب منذ بُدئت الكتابة، ويجعلون الثاني أديب العقل والحكمة، وصاحبَ الفكر الممتد إلى المنابع الأصيلة في عالميْ السياسة والاجتماع، ولو عَرف لهما المنصور مكانهما المُثمر في دولة الفكر لكانا زينة الدولة،

وتاجَ العصر، والمنصورُ عالمٌ عاقل دَرَسَ العلم على فُحوله، وخَبَرَ أدباء عصره ومفكّريـه، ولكنّه ينظر إلى نفعِـهِ الذاتي كما يتوهّمـه من خلال تجاريبه، ومن مشورة جلسائه، وفي الجلساء مَن لا يحبّ أن يتقرّب الخليفة من شـمسٍ تسطع فتطمسُ نجوماً تحاولُ الائتلاق، هـؤلاء قد مالؤوا المنصور تارةً، وزيَّنوا له الافتراس طوراً آخر، فباؤوا بالخزي العاجل، وباء معهم فيما انحدروا إليه من إجرام صريح!.

ماذا كان أمر عبد الحميد الكاتب؟! لقد كان صديق مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية، يكتب رسائله، ويذيعُ آراءه، ويحارب معه في ميـادين النضال، فهو صديـقٌ مخلص لا يكذب، وحين دارت الدائرة على مروان، رجاه أن يُظهر له العداء، وأن يسارع إلى الالتحاق بجيوش العباسية لينجو برأسه، ولكنه عدّ ذلك جريمةً خُلُقية لا تُغتفر، وبقي مع صاحبه حتى اغتيل، فوقع أسيراً يُساق إلى حضرة المنصور، والرئيس العاقل الأريب يجد من الحصافة أن يصطنع خصومَه إذا ألقوا السلم وأقبلوا طائعين، وبخاصةٍ إذا كانوا من ذوي النباهة في الذكر، والأصالة في الرأي، والبلاغة في اللسان، ليكونوا أداةَ نصره، ووسائل مجده، وهو بذلك يضمّ إلى مجده مجداً من ناحيةٍ عملية، ويزدادُ رفعةً في عيون الناس من ناحية خلقية، متى رأوْه يُسبل عطفه على خصوم الأمس، ولكن أبا جعفر مريضٌ بالغيظ، يُؤْثِرُ التشفّي، ويلتذّ بدم الفريسة المراق، فما وقعت عينُه على عبد الحميد حتى أمر بقتله! وكأنه رمى عن صدره عِبئاً يُثقله.

أما ابن المقفّع، فكُتُبُه المترجمة، ورسائلُه الذائعة، وكلماتُه في (اليتيمة) و(الأدب الصغير) و(الأدب الكبير) أظهرُ من أن تَخفى على أبي جعفر، وقد طالعَ بعض فصولها فلمسَ فنوناً من الحكمة العاقلة وضروباً من الرأي البصير، ولكنّه نسي كل شيء، وتذكّر أن ابن المقفّع قد كتَبَ أماناً لعمّه عبد الله، يشترطُ فيه الوفاءَ بالعهد، والصدقَ في الذمة، وما كان للخليفة أن يحتملَ كاتباً يأخذ عليه أغلظ العهود، وأحرّ المواثيق، فجعلَ يتلدّد من الغيظ، وعرَفَ أن لابن المقفع خصماً يتربص به الدوائر، فأغراه به، وما كان لهذا العامل الصغير أن يجرؤ على اغتيال أكبر أدباء الدولة! إلا بأمرٍ سبق إليه من صاحب الأمر! . .

لو كان أبو جعفر هادئ الخاطر لأدرك أن عبد الحميد الكاتب سيكون حلية في تاج دولته، وأنّ ابن المقفّع سيغدو عاملاً في ثراء الفكر الإسلامي إذا أُتيح له أن يتفرّغ لأسباب نبوغه، وهما سيعرفان ما قدّما من قَبل من هناتٍ عفا عنها أمير المؤمنين، فيقومان بواجب الشكر استماتةً في الجهد، وكدّاً في النتاج، وهنا يزدهر العصر، ويتألق العهد! ولكن السياسة ـ ولدى العباسيين ـ لا ترتضي الصفح، وتؤثر النكال.

كتبتُ هذا الفصل ليعلم القارئ أنّ الآمال التي عُقدت في نفوس المخلصين عند قيام الدولة العباسية لم تجدْ تحقيقها كما كان يُنتظر، فقد دأبت النفوس في كلّ عصر إلى التطلّع إلى عصرِ الخلافة الراشدة، ليكون مثلاً يُحتذى، فأوجدَ الله هذا العصرَ الراشد ليظلّ معقد الأمل، على كرّ العصور، إذ لا يَأس من روح الله، وقد كان اقتراب عمر بن

عبد العزيز بسلوكه الراشد مِن هذا العهد مصدرَ أملٍ آخر، بل إنّ وجود أفذاذ من رؤساء المسلمين على كرّ العصور يسلكون مسلكَ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أو قريب منهم مما يبسط هذا الأمل، فنور الدين زنكي مع أنّه لم يكن خليفةً ممتدّ الرقعة على بسيط من البلاد قد أعطى مثلاً يُقرن بعمر بن عبد العزيز، وقد يكون صاحبُ الأمر ناوياً للإصلاح مصمّماً عليه، ولكنّ نفراً من حاشيته يسوؤهم أن تتقطّع مآربهم فيما يرجون من ابتزاز وصوليّ، فيزيّنون له أن ينكل عن مبتغاه، لأمورٍ يجسّمونها في عينه، ويتوالى الإلحاح على هذه النغمة، فيخمد العزم، وتتحطم الآمال.

ولا أختم هذا الحديث بغير الإشارة إلى مناقشةٍ علمية جادّة، قام بها مؤرخ جادٌّ حول السفّاح العباسي، ومَن يكون؟ أهوَ أبو العباس أمير المؤمنين؟ أم أبو العباس عبد الله بن علي؟ وكلاهما لُقّب بالسفّاح، لقد أدار هذه المناقشة المؤرّخ الأستاذ عبد الحميد العبادي منذ أكثر من نصف قرن على صفحات مجلة (الثقافة)[1] ذاهباً إلى أنّ المؤرخين قالوا عنه: إنه ـ أمير المؤمنين ـ كان حسن الوجه متصوناً عفيفاً، حسنَ المعاشرة لأهل بيته، مقتصداً في معيشته، لم تُخرجه أُبّهة الملك وعظمة السلطان عن حدّ البساطة في مأكله ومشربه، كريماً معطاء، إذا حضر الناس طعامه، وجدوه أبسط ما يكون وجهاً، وكان لا ينصرف عنه أحدٌ

(١) مجلة الثقافة ٢١/ ١١/ ١٩٣٩، العدد ٤٧.

من ندمائه إلاّ بصلةٍ من مال أو كسوة، وكان طروباً مضيافاً، يحبّ المسامرة بين الرجال، ويكره مجالسة النساء.

ثم تساءَل الأستاذ العبادي قائلاً:

«فهل صحيحٌ أنّ هذا الخليفة الشابّ الجميل العفيف، الوفيّ الكريم الطروب، المقتصد الحريص على مسامرة الرجال كان قتّالاً للنّاس، سفّاكاً لدماء البشر؟ وهل صحيحٌ أن الطبيعة البشرية تتّسع للتناقض إلى هذا الحد؟».

وهو تساؤل أجاب عنه الدكتور أحمد أمين في تركيز جيد قال فيه[1]:

١ ـ لقد استبعد العبّادي أن يكونَ الشاب الجميل العفيف الوفيّ الكريم سفّاكاً للدماء، فما يقول في خطبة السفاح أبو العباس نفسه حين قال: «أنا الثائر المبير» ومن معاني الإبارة الإهلاك والإبادة.

٢ ـ ذكر العبّادي أن المسعوديّ قال عن الرجل: إنه كان طروباً محباً للعلم، فما رأيه في قوله: إنه كان سريعاً إلى سفك الدماء، وقلّده عمالُه شرقاً وغرباً، فساروا بسيرته.

٣ ـ قال الكندي في كتاب (الولاة والقضاة): إن عاصمَ بن أبي بكر هَرَب مع ثلاثة من أولاده إلى (قفط) وأخذوا أماناً من والي مصر، فكتبَ

---

(١) صفحات هادفة، ص١٠٩ وما بعدها، للدكتور محمد رجب البيومي.

في شأنهم لأبي العباس، فأمرَ بإحضارهم إليه، ثم قُتلوا في الطريق، فهل كان ذلك بأمره؟

وقد تتابع النقاش على نحوٍ يُشعر بأن لقب السفّاح قد تُدُووِل بين الخليفة وعمّه، وهو مما لا يدفع التهمة عن أمير المؤمنين، بل يُشرك في بلائه مَن على شاكلته من ذوي قرباه! فالكلُّ ينهلُ من موردٍ أحمر كريه، وقد بسطتُ هذا الجدلَ الممتد في كتابي (صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي) تحت عنوان: (معركة فكرية حول السفاح)، فليرجعْ إليه من يطلب المزيد.

لقد كانت مقدمات الدولة العباسية ذات عسف وطغيان، فإلى غيرها من الأعقاب...

* * *

تباشير الصباح

تنفّس الناس الصعداء بعد رحيل أبي جعفر، وتولّي ولدُه المهدي خلافة المسلمين، إذ رأوا فيما عهدوه من سلوك وليّ العهد ما يُطمِعهم في راحة مطمئنة، وحياة مستقرّة، فلا أخذَ بالظنّة، ولا ترصّد للمنيّات، ولا بطش في الانتقام! لقد مضى ليلٌ مدلهم أخذت ظلمته على الناس كل سبيل، وآذن الفجر بالشروق، ورجالُ التاريخ يقولونَ إنّ أبا جعفر معذورٌ في كل ما صنع، لأنّه يقيم دولة، ويُنشئ أسرةً، ويُعفّي على آثار عهد، وهذا منطقٌ إن جاز في عرف دهّاقين السياسة، فلا يجوزُ عند من يلتزمون أحكامَ الإسلام، والوقوف عند ما سنَّ وشرع، فلا ظلم ولا اضطهاد، ولئن جاز لنا أن نمتدّ بهذا المنطق، ما أخلينا كلّ جبارٍ في الأرض من عُذر؛ لأنه يقيم دولة وينشئ أمة، ولا يهمّنا أن تقوم دولة على طغيان، وأن تنشأ أمة على اضطهاد، بل يهمّنا أن يسودَ السلام المجتمع، وألا تزر وازرة وزر أخرى، وأنْ تُرعى حرماتُ الله، وأن تُحفظ المواثيق والعهود، وقد وُثِّقت بالأيمان، وأُكّدت بالتكرار والإلحاح.

كان أبو جعفر بمكة يؤدي شعيرة الحج، وقد لحق بربّه على غير

انتظار متوقع، فكتم الربيعُ بن يونس وزيره الأثير موتَه، حتى ينفّذ أمراً عقد عليه العزم، حيث دعا عيسى بن علي عمّ المنصور، وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهدي وجماعةً من القواد والأمراء، وأخبرهم أن المنصور يريد أن يجدّدوا البيعة للمهدي مرة ثانية، فلم يتجرّأ أحدٌ على مخالفة ما أراد، ولو علموا بوفاة المنصور لأمكن أن يُحدثَ شقاقٌ له دواعيه، فهُيِّئ المجلس واجتمع الناس، وجُدّدت البيعة؛ لم ينكلْ أحد، ولم يتلجلج أحد في لفظ، ثم خرج الربيع إلى زيارة المنصور، وفي ظن المجتمعين أنّه سيبلغُه ما كان، ثم عادَ بصوتٍ صارخٍ، وثيابٍ مشقوقة، ويدٍ ترتفع إلى رأسه كمن يَلطم، ونعى أمير المؤمنين، فلم يسع القومُ غير الإذعان!.

هذا ما كان من أمر القوم في مكة، أما ما كان من أمر المهدي في بغداد، فقد أسرعتْ حاشيته إلى نصب السرادق الخاص بالبيعة، وجلس الخليفة الجديد متصدّراً، وقام كاتبُ المهدي في خلافة أبيه أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، فألقى صيغة البيعة، وردّدها الحاضرون، ثم عَدَل إلى منشورٍ كان أبو جعفر قد أعدّه في لحظاته الأخيرة، فتلا منه على مسمعٍ من الأمراء والوجهاء(١): «من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلّف من بني هاشم وشيعته بخراسان وعامة المسلمين، أما بعد،

فإني كتبتُ هذا وأنا حيٌّ في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من

---

(١) ابن الأثير: ٦/ ١٢.

آيـام الآخـرة، أقـرأُ عليكـم السـلام، وأسـألُ الله ألاّ يفتنكـم بعـدي، ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض، وأوصيكم بمحمد، ولي عهدكم، وأذكّركم البيعة له، وأستنهضكم للوفاء بعهده، واجتماع كلمتكم عليه، كما أَوْصيتهُ بكم والرأفة عليكم والسلام». وقد سمع المهدي حديث والده فترقرق الدمع في عينه، و قال كلاماً قصيراً لشدّة تأثّره، ثم جلس.

وأراد المهدي أن يكون عند حسن الظنّ به، فأطلق مَن بالسجون جميعاً، إلاّ مَن ثبتَ عليه الحدّ في جُرم يتعلّق بحقوق الناس، وأفرجَ عن خصومه العلويين، وبذلَ لهم من العطاء ما لم يكن في الحسبان، وأعاد إلى أهل مكة والمدينة كلّ امتيازٍ سلبه المنصور من قبل، وزاد فأجزل العطاء لرؤوس القوم هناكَ من العلماء والوجهاء، وكان المنصور قد صادر ممتلكاتٍ كثيرة دون حق، وحفِظَ عقودها في خزانته حاملةً أسماء أربابها، فلما فتح المهدي هذه الخزائن رأى أن يردّ المصادَرات جميعها إلى أصحابها، وأن يبعث إليهم ليسترضيهم، فيستغفروا للمنصور، وقد كان ذلك في مشهدٍ أيّ مشهد! وكان يحسّ ظلماً وقع على وزراء كبار اغتيلوا في عهد أبيه، وصُودرت أموالهم، وعزّ على بَنيهم القوت، فأمرَ بأن يرجع إلى كل بيت ما كان له من المال والعقار، وأنْ تُجرى عليهم النفقات الموسمية، وكأنّ آباءهم لم يكونوا خصوماً لأبيه من قبل.

وقد تحدّث المؤرخون عن سفر المهدي إلى الحج سنة (١٦٠هـ)، فقالوا: إنه صَرف على الفقراء والمعوزين من أهل الحرمين ثلاثين مليوناً

من الدراهم، ومئة وخمسين ألف ثوب، وأعاد بناء الحرم، ووسّع المدارس والمساجد، وبنى منازل الاستراحة في الطريق بين مكة وبغداد لتكون مِهاداً مطمئناً للمسافرين، ووضَعَ حول هذه المنازل حامياتٍ مسلّحة للحراسة اليقظة، وأقام الزوّايا بجانب هذه المنازل، وكأنّها مساجد بالنهار وفنادق بالليل! هذا كلُّه قد كان له أجمل الوقع لدى الناس، فرأوا تباشير صباح يضيء!.

وقد اشتهر قومٌ من فضلاء العرب والفرس بالكرم في عهد المهدي ومَن تلاه، والحقّ أن الفضل في ذلك يرجعُ إلى المهدي، حيث فتح هذا الباب على مصراعيه لقاصديه، وقد بدتْ همامةُ نفسه في عهد والده المنصور، والمنصورُ من الاقتصاد والتدبير بحيث كان يتمنّى أن ينسجَ على منواله أولياءُ العهد من بعده، ولكنّه فُوجئ بما لم يتوقّع، حين رأى المهدي وليّ عهده، يمنح الشعراء فوق ما يريد لهم من العطاء، فقد حكوا أن الشاعرَ المؤمل بن أميل، مدحَه بقصيدةٍ جيدة، فوهب له عشرين ألف درهم، وكتبَ صاحبُ البريد إلى المنصور بما كان، فهاجَ المنصورُ، وكتبَ لولده قائلاً: إنه لا يجوز أن يتجاوزَ العطاء لشاعرٍ أربعة آلاف درهم، تُعطى لا على الفور، بلْ بعد إمهال قد يصل مداه إلى العام، ثم رصَدَ العيون على المؤمّل، حتى عثروا عليه قبل أن يتصرّف في المنحة، فسيق إلى المنصور، وهو خائفٌ يرتعد، فقال له غاضباً: أتيتَ غلاماً غرّاً فخدعته، فقال المؤمل: بل أتيتُ غلاماً كريماً فخدعته فانخدع، فقال له: أنشدني ما قلت فيه، فأنشدهُ بعض ما قاله، ومنه:

لقد سبقَ الملوكَ أبوكَ حتى ... بقُوا ما بيْنَ كابٍ أو حسيرِ

وجُئـتَ وراءه تجـري حثيثـاً | وما بكَ حين تجري من فتورِ
فقـالَ النـاس: مـا هـذان إلا | بمنـزلـةِ الخليـق مـن الجـديـرِ
لئن سبقَ الكبيرُ فأهلُ سبقٍ | لهُ فضلُ الكبيـر على الصغيـرِ
وإن بلـغ الصغيـرُ مـدى كبيـرٍ | فقد خُلِقَ الصغيـرُ من الكبيـرِ

ومدْحُ المنصور ظاهرٌ لا يخفى، وهو ما ارتاحَ له الوالد، ولكنّه قال: أحسنتَ، ولكنْ لا يساوي قولك عشرين ألفاً، وأخذَ منه ما فوق أربعة الآلاف، وتركه يحمد الله على نجاته، فلمّا تولّى المهدي الخلافة عاد إليه المؤمّل، وقدّم إليه الرقعة التي تضمنتْ عشرين ألفاً، واختصرها المنصور، فجعل المهدي يضحك، وأمر له بالباقي فأخذَه، ولكن بعد سنوات!.

هذه الروحُ الكريمة في العطاء، قد صاحبت المهدي حتى ضُرب به المثل، فإذا شاعَ الكرمُ في عهده حتى بلغ ذروته في عهدِ البرامكة فمنه تأصّل، وكان والده لا يردّ مظلمةً إذا حُكِم باغتصابها، فلم يشأْ أحدٌ أن يعارضه محتكماً إلى القضاء، لأنه يعرف أن الخليفة حاكمٌ بأمره، أما المهدي فكان يرتاحُ إذا خُوصم وحُكِم عليه.

روى الطبري أن مسوّر بن مساور قال: غصَبني وكيلٌ للمهدي وابتزّ ضيعـةً لي، فأتيتُ ديـوان المظالم، وقدّمتُ شـكواي، والمهديّ حاضر، فدعا بالشـاكي وسأله، فقال: ظلمتني، فـأطرق، وأشـار إلى القاضي بجانبه في الديوان أن يحكم؟ فقال المهديّ مجيباً على سؤال القاضي: ضَيعتي وفي يدي! فقال مسوّر للقاضي: سلْه أكانتْ في يده

قبل الخلافة أم بعدها؟ فقال المهدي: بعد الخلافة، قال القاضي: فأطلقْها له، فابتسم المهدي وقال: قد فعلت.

وأمثال هذه المواقف كثيرةٌ، تدلّ على أن زمناً قد مضى، وجاء زمن آخر.

هذا من ناحية المال، أما من ناحية العفو والصفح، فله فيها نوادر صائبة، تحدّث الربيع بن يونس عنه فقال:

«رأيتُ المهدي يصلّي في بهوٍ له، في ليلة مقمرة، فما أدري أهو أحسنُ أم البهو، أم القمر، أم ثيابه، فقرأ في صلاته هذه الآية: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٢٢]، فلما أتمّ الصلاة، التفت إليّ وقال: يا ربيع! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: عليّ بموسى، فعلمتُ أنه موسى بن جعفر، وكان محبوساً عندي، فأحضرتُه، فقطع المهدي صلاته، وقال: ياموسى! إنّي قرأت الآية: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فخفت أن أكون قطعتُ رحمك، فاضمنْ لي أنّك لا تخرج عليّ، فقال: نعم، فوَثِق به وخلّاه».

ولموسى هذا قصةٌ مشابهة عند مبايعة المهدي بالخلافة، فقد خاف الربيعُ بن يونس أن يتلكّأ في البيعة، فيتبعه قوم، فتضيع الفرصة، فاستدناه ليُسرّ له بعض القول، فقال له موسى: سأنطق بالبيعة صريحةً مع أسبابها، ثم تقدّم للناس فقال: يا قوم! إن أمير المؤمنين المنصور كان قد ضربني واستصْفى مالي، وتوجّع المهدي لما نزل بي، فأخذَ يكلّم والده في ردّ

المال. وكفى ما لقيتُ من عذاب فلم يفعل، فرأى المهدي أن يُعوّضني من ماله، وضاعفَ المال ضِعْفين حتى تعجّبتُ، وذلك دون أن يعلم المنصور، فإذا جاء يوم البيعة فكيف أنكل عن مبايعته؟ أنا أول مَن يبايعه أميراً للمؤمنين.

أما عطاؤه للعلماء والشعراء فقد امتلأت بحديثه الأسفار، ونحن نعرف أن المهدي قد تلقّى علوم الأدب على المفضّل الضبي، فروى الشعر وأخبار الناس، ثم جمع له أمثال العرب، فكان أثرُ الأدب في نفسه أثراً طيباً، وبهذا الأثر الجاذب أخذَ ولديْه موسى وهارون بالتثقيف على يد الكبار من العلماء، وأمتع الشعراءَ بما لم يكونوا يحلمون ببعضه في أيام المنصور، وكان ذا حلمٍ في ساعة الغضب، إذ اشتكتْ له جاريته (عتبة) أن أبا العتاهية يشهّر بها في شعره، وأنها لا تحبّه، فدعا الشاعر، وأمره ألاّ يتعرّض لها في نظم، ولو كانت تهواه لوهبها إياه! وكان على الشاعر أن يحمد الله على أن الخليفة الحليم قد عفا عنه في أمرٍ يتعلّق بإحدى جواريه، وهو ما لا يتسامح فيه أحد، ولكنّه استهان بحلم المهدي وعاود الكرّة، وتكرّرت الشكوى من عتبة، فعمدَ المهدي إلى حبسه، حتى ظن أنه رجع، ثم أطلقه بعد أيام.

أما مقتل بشار بن برد، فقد دُبّر بمكيدة أحكمها وزير المهدي يعقوب بن داود حين نقل إلى الخليفة أبياتاً طائشة، زعم فيها أن المهدي يزني بعمّاته! ومَنْ من العامّة يصبر على هذا البهتان، فضلاً عن مقام أمير المؤمنين؟!

وأنا في تقديري الخاص، لا أصدّق أنّ بشاراً في حنكته وبصره بالأمور، ينحدرُ إلى مثل هذا اللغو السفيه، ولكنّه هجا الوزير يعقوب بن داود، فأراد أن يكيد له عند المهدي باختلاق ذنبٍ لا يُغتفر، وأوْعز لمن صاغ الشعر الفاسق، ثم نَسَبَهُ لبشار فكانت المحنة!.

على أنّ هذا الحلم الجمّ له حدٌّ يقف عنده، حين تتراءى نُذُر الخطر المحدقة بالإسلام، وللمهدي شعورٌ خاص بأنّ في وصفه بالهداية ما يدفعُه إلى أن يكون الذائد الأوّل عن هذا الدين الحنيف، وهذا ما يفسّر موقفه من الزنادقة، حيث بذل كل اهتمام نفسيٍّ وجهد حربي في استئصال شأفتهم، والذين يتحدّثون عن حركته العاتية ضد هؤلاء المارقين، يتحدّثون عن زندقةٍ داخلية ببغداد، بدتْ في أشعار طائفة من المُجّان، مثل بشار وأبي نواس ومطيع، ويزعمون أن ابن المقفّع كان مع هؤلاء قبل أن يُقتل، والكاتب الكبير بتتبّع ما وُجد من آثاره العظيمة لا تلوحُ أيّ شبهة من شُبَهِ الزندقة في آثاره، ومن المستبعد أن يكتب زنديقٌ هذه الصفحات الكثيرة ثم لا يشي عن معتقده بحرف واحد، وإنما قُتل الرجلُ مظلوماً، وانْبرى المُصفّقون لكل عمل تقومُ به الدولة إلى الافتراء عليه ظُلماً بتهمة الزندقة، ليكون مصرعُه مُستساغاً لدى مَن يُكبرون فضله الأدبي، ويعرفون مقامه العلمي، وقد وُجدتْ بعض الهنات المنكرة في شعر بشار وأبي نواس، ولكنّ المهدي لم يعدّها خطراً يحاربه بالاستئصال.

أما الخطر كل الخطر ففي الميدان الخارجي بخراسان حين ثار

المقنع الخراساني المعروف بهاشم بن حكيم، وفي جرجان حين قامت (المحمرة) شرقي بحر قزوين تدعو إلى الشيوعية في الأموال والأعراض، على نحو ما سأجمله فيما بعد، وهاتان الدعوتان لم تكونا غريبتيْن على المجتمع العباسي في بغداد، إذ بدأ في عهد المنصور ما يُعرَف بثورة الراوندية، وهم جماعةٌ من أهل خراسان يعتقدون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدمَ حلّت في جسم قائدهم عُثمان بن نهيك، وأنّ ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأنّ وزير قائدهم عثمان بن نهيك هو جبريل، وقد أتَوْا قصر المنصور وجعلوا يطوفون به، وفي هذه الآراء خَلْطٌ لا تُعقل أسبابه على وجهٍ صريح، فالذين قاموا بمحاربة المنصور، ومجاهرته بالعداء، لا يُعقل أن يُنادُوا به إلهاً، أرسل الرسل والملائكة، ولكن المنصور خاف أن يكون العامة من الراوندية قد انخدعوا بما يروّجه زعماؤهم من إفكٍ لا يؤمنون به في أعماقهم، لأن الثورة الخراسانية سواءٌ كانت لدى الراوندية أو لدى الطبرستانيين فيما بعد، هي وليدة حقدٍ مضطرم على مقتل أبي مسلم الخراساني، ولم يكن لدى الثائرين حَوْلٌ قادرٌ على المواجهة الصريحة تحت شعار الثورة من أجل أبي مسلم بالنسبة للراوندية، فاختلقوا الإفك الذي يقضي على المنصور، ويزعزع مكانته الإسلامية، وهذا ما فطن إليه أبو جعفر، حين خرج بنفسه لمجابهة القوم، دون أن يكون لديه السلاح القاهر، حتى كادوا يفتكون به لولا تدخّل معن بن زائدة الشيباني إذْ أبلى بلاءً كريماً كان موضعَ التقدير من أمير المؤمنين.

فلما انقضى عهد المنصور، وجاء عهد المهدي المشتهر بسماحته

وهدوء طبعه، وجد الثائرون في خُراسان مطمعاً لاسترداد نفوذهم السياسي من ناحيته، وللانتقام لأبي مسلم، فقامت ثوراتٌ متعدّدة قبل ثورة المقنّع، واستطاعت الدولة إخمادها، وكان المهدي ـ وهو وليّ العهد ـ قائداً لبعض الحملات التي قمعت هذه الثورات.

ثم قام المقنّع الخراساني، وهو رجلٌ دميم الخلقة أعور قصير القامة، جعلَ لنفسه قناعاً من ذهب يلبسه فيحول دون استبشاع منظره، فادّعى الألوهية لنفسه، كما ادّعاها الراونديون من قبل لأبي جعفر، وقال: إنّ الله خلق آدم على صورته ولم تَـزَلْ تتحوّل من إنسان إلى إنسان حتى حلّت في هيكل أبي مسلم الخراساني، ومنه انتقلت إليه، ثم أسْقطَ فروض الحج والصوم والزكاة، وأباحَ الشركة في الأموال والنساء؛ وأيُّ جاذب للعامة الفقراء من الدعوة إلى الشركة في الأموال، واستباحة النساء على وجه الشيوع!! فانضمّ إليه خلقٌ كثير من خراسان وبخارى وسمرقند والأتراك القاطنين على شواطئ بحر قزوين، ثم اعتصم بقلعةٍ حصينة في (كشّ).

واستعدّ المهدي للأمر الحازب، فأرسل جيشاً قوامُه سبعون ألف مقاتل، ولاقى الجيش أهوالاً مريعة حتى وُفّق إلى استئصال هذا الطاغية، وكأنّه لم يشأْ أن يُعلن استسلامه الصريح، فزعم لمن بقي من حاشيته بعد أن عزم على شُرب السمّ مع أهله، زعم أنّه صاعدٌ إلى السماء، وأشعلَ النار في أجساد ذويه، كي يلحقوه إلى الملأ الأعلى! وليس العجب في فعله، فقد انتحر بعد أن تأكد من الاستئصال، ولكن العجب ممّن

صدّقوه، فألقوا بنفوسهم في النيران! وقد أشار أبو العلاء المعرّي إشارةً لطيفة إلى مهزلته حين قال:

أفـقْ إنمـا البـدرُ المقنّـع رأسـه ضـلالٌ وغـيّ مثـل بـدر المقنـع

وبعض المؤرخين من المستشرقين يأخذون على المهدي وقائد الجيش الإسلامي بخراسان شدّة المبالغة في الانتقام، ولعمري ماذا كان يصنع الخليفة إزاء خطر يُهدّد الإسلام في الصميم من تعاليمه، وإذا تركنا جانب الدين على شدة الحرص على صيانته، فماذا يفعلُ المصلح الاجتماعي أمامَ دعوة تستبيح النساء، سواء كنّ حرمات من الأهل، أو بعيدات من الأجانب؛ فهنّ جميعاً نهبٌ مشاع! إن الحروب الدامية التي تسحق الملايين في أوروبا تقوم لأجل النزاع على بقعةٍ من الأرض قد لا تتعدّى قريةً من القرى، وتُنفخ أبواق الدعاية باسم الوطنية الكاذبة والقوميـة الخادعة لكي تجري الدماء أنهـاراً، وتظلّ الحرب مشـتعلةً لسنوات عدّة، فلا يقول قائل: إن السبب تافه، وإن بقعة من الأرض أيّاً كان حجمها لا تستأهل أن تُبذل فيها ملايين الأرواح من الجانبيْن! فكيف يكون ذلك اليوم مستساغاً، ثم يخرج فوضويٌّ متوحش فيقتل الأرواح، وينهب الأموال، ويستبيح النساء، ويدّعي الألوهية، فإذا جابهته الدولة بما يستحق، قيل: إنها بالغت في العدوان!.

لم يخرج المهدي إذن عن حلمه الهادئ حين أعدَّ للأمر عدّته، وإنما حافظ على دينـه قبل أن يحافظ على مُلكـه، وقد أسـكتَ الحركة الباغية إلى أمدٍ، حيث ظهرت في مظهرٍ آخـر بعد عدّة سـنوات في عهد

المعتصم حين قاد مَن يُعرف باسم (بابك الخرّمي) حركة العصيان تقليداً للمقنّع، ولاقت الثانية مصير الأولى فباءت بالاندحار.

وبعد انقضاء عامين على ثورة المقنع الخراساني قام الروم بالثورة على حدود الدولة العباسية، واستولوا على مدينة (مرعش) وأحرقوها، وأعملوا السيف في رقاب أهلها، وهو إجرامٌ لا يَحسن السكوت أمامه، وكان المهدي يظنّ الأمر بالسهولة بحيثُ يرسل أحد قواده ـ الحسن بن قحطبة ـ لإخماد هذه الحركة، فيفعل، وكان القائد الباسل من الكفاية بحيث أعاد الأمر إلى نصابه، ورجعَ ظافراً، ولكنّها كانت حيلةً ماكرة من الروم إذ أظهروا الطاعة ليجمعوا قوّاتهم المتفرّقة، ويعدّوا السلاح الباتر في فرصةٍ من الهدوء، حتى إذا تمّ لهم ذلك أعلنوا الحرب على الآمنين بعد رحيل الحسن بن قحطبة.

وجاءت الأنباء إلى المهدي فعرف أن الأمر جدّ، وما هو بالهزل، فعزم على أن يقود الجيش بنفسه، وتقدّم في طليعة جحفل زاخر يجمع مئة وخمسين ألفاً من الجنود، فاخترق بلاد الموصل، وعَسْكَرَ في مدينة حلب، ليكون مقرّ القيادة قريباً من ديار الروم، وهي المدينة التي شاهدت انتصارات سيف الدولة فيما بعد، ثم فرّق الجيش إلى كتائب شتّى جعل على قياداتها الحسن بن قحطبة، وعيسى بن موسى، وعبد الملك بن صالح، ويحيى البرمكي، وفي مقدمة هؤلاء ولده هارون، فتحقق النصر الباهر، ورأى المهدي أن يتوجّه إلى زيارة بيت المقدس، وكافأ هارون بأن جعله والياً على أرمينية وأذربيجان

وما يليهما من بلاد المشرق، ثم عاوَد الروم الكرّة، فكان هارون بطل المعركة، قادها في شجاعة لم تُعهَد منه من قبل، لأنَّ توالي الغَدْر مرّةً بعد مرّة جعله يعتقد أن المسألة مسألة استنزاف متعمّد للقوى الإسلامية، ولابد أن يقف هذا الاستنزاف عند حدٍّ، فلم يكتفِ بانتهاء المعركة حول مرعش، بل زحف إلى القسطنطينية عاصمة الدولة، ورأتِ الملكة (أريني) وكانت وصية على ابنها (قسطنطين) أنّ الروم عاجزون عن المقاومة، فطلبتْ إيقاف القتال، وتعهّدت بدفع جزية سنوية، وهدأت المعركة لتعود ثانية أيّام خلافة الرشيد.

لم يطل العهد بالمهدي إذ مات في الثالثة والأربعين من عمره في أمرٍ اختُلف في تحديده، فمن قائلٍ إنه طرد ظبياً في رحلة صيد، فألجأه إلى خربة لم يتبيّن بابها الحديدي، فصدمه وألقاه على الأرض صريعاً، وقائلٍ: إن بعض جواريه دسّت له السم بتدبير أحد أعدائه فمات بعد أكلة خائنة، ويخيّل إليّ أن مسألة الظبي مختلقة، إذ لو تمّت لذاع الأمر، وتداوله الناس دون اشتباه، أما مسألة السمّ، فذات شكّ، إذ إنّ المهدي كان من الحيطة بحيث لا يأكل من غير يدٍ أمينة، ولم يتعجّلْ أحد أولياء العهد وفاته حتى يأتمر بدس السم! إنّ الموت لا يُعلّل! إذ قد يكون فجائياً، ولكلٍّ أمة أجل.

وبعد: فلقد كان من الضروري أن نرسم المسرح السياسي قبل عهد الرشيد فنعرضَ لمقدمات تتابعت في عصر أبيه لنصل إلى نتائج تلتْ هذه المقدّمات، فيتسلسل القول دون انقطاع.

* * *

ولاية العهد

ظلت ولاية العهد مصدر خطرٍ رهيب في الدولة الإسلامية بعد عصر الخلافة الراشدة؛ لأنّ أيامَ أبي بكر ومَن تلاهُ من الراشدين لم تحفلْ بنزاعٍ شاق حول البيعَة، وما وُجِدَ من بعض الخلاف عند المشورةِ الابتدائية يمثّلُ وجهاتِ نظرٍ لم تلْبث أن خضعتْ للرأي العام في إخلاص، أمّا ما رآهُ معاوية في إسنادِ العهد لولده، فقد كانَ مبعَث خِلافٍ جذْري في أصلٍ من أصول السياسة الإسلامية، والذين يقولون ـ كابن خلدون ـ إنه اختارَ ولدهُ رأباً للصَّدْع؛ كيلا يَحدُثَ شقاقٌ بين المسلمين، يُرَدُّ عليهم بأنّه لو اختارَ غيرَ ولده من أصحاب الفضل البارز، والسبْق في الإسلام ما حدث أدْنى خلاف، ولالتأمَ الشمل على وجه سريع.

وقد زاد الأمر استفحالاً في الخطورة أنْ عَهِدَ مروان بن الحكم إلى وَلَدَيْه معاً، عَهِدَ إلى عبد الملك، ثم إلى عبد العَزيز من بعده، فكانت بدعَةً سيئة أوقدت نار العداء في الأسرة الواحدة، وقد شاءَ عبدُ الملك أن يخلع أخاه من عهْد أبيه، واستشارَ في ذلك صَحَابَتَهُ الأقربين، غير أنّ البريد جاء بنعْي عبد العزيز فسلمَ الأمر لولده الوليد، وأراحه الله من شِقاقٍ محققٍ، إذ لا يعدم أن يخالف أخوه اتجاهه، فيستقلّ بأمر مصر وهو حاكمها المطاع، ويبايعه الناس هناك، وهو احتمالٌ واردٌ، لأنّ عبد العزيز

كان ذا كلمة مسموعة في مصر، وقد قام بإصلاحات كثيرة جذبت إليه النفوس، فمحاولة اغتصاب حقّ الولاية منه ستدفع القوم إلى نصرته طائعين، وقد تمّ الأمر للوليد بن عبدالملك، ولكنَّ والده لم يجعله وحده وليَّ العهد بلْ عهدَ إلى سليمانَ من بعده مقتفياً مذهبَ مروان أبيه، ولكلٍّ عظيم أنصار من حوله يُزينونَ له ما يريد من الشهوات، إذ همّ الوليد بنزع العهدِ من سليمان أخيه، وقام نحوه بمضايقات حَرجةٍ أحفظته على حاشية أمير المؤمنين، فأكنَّ لهم البغضاء، حتّى إذا تمَّ له الأمر قبل أن يُبرم أخوه رأيه النهائي، شنَّها حرباً على خصوم من أشياع أخيه، ومنهم رؤوسُ القوم من قادة الجيوش، وأبطال الفتح، وهي بُطولةٌ لا تستطيع أن تُطفئ لهب الحقد المشتعل في النفوس.

ثم جاءَ سليمان ولم يكُنْ ولَده أيوبُ الصغير بمؤهّلٍ لتولية الأمر من بعده، فجعَل العهدَ لعمر بن عبد العزيز ثم ليزيدَ بن عبد الملك من بعده كيْلا يَخرج الأمر من بيْت أبيه، وارتطمت الأهوال بيْن مَنْ تلوْا يزيد، فقامت البغضاءُ بيْن هشامٍ والوليد بن يزيد لمحاولته تشويه سمعة ابن أخيه، وجاءَ الوليدُ فبدأ بالانتقام، وَلَهُ شيعةٌ تؤيد منحاه، ولِخُصومه من القوّة ما جعلهم ينْتصرون عليه ويقتلُونه، ثم اغتصَب الحكمَ مروان ابن محمد، ولهُ خصومٌ من أسرته، فكانت بيْعة الاثنَيْن عاملاً أكيداً في هَدْم الدولة واستعجال فنائها على يد العباسيين.

وحين قام أبو العباس السفاح بإمارة المؤمنين لم يَستمعْ إلى صوتِ الأحداث الماضية فيأخذَ العبرة من أهوال الماضي، بل جَعلَ ولايةَ العهد

لاثنَيْنِ من بعده، أولهُما أخوه أبو جعفر المنصور، وثانيهما ابنُ أخيه عيسى بن موسى، والمنصور ذو مطامعَ قاهرة، فلم يشأْ الامتثالَ لبيْعة عيسى من بعده، وأخَذَ البيعةَ لولده المهدّي على أن تكونَ لعيسى ولايةُ الأمر من بعده، وهو يُقدِّرُ أنّ أيامَ عيسى لن تطول، وأنّ الأجلَ سيُدركه في عهد المهدي فينتهي أمره إلى بوار، ولكنّ أيامَ عيسى قد طالت، وأدركتِ الشفقةُ المهديّ على وَلَديْه موسى الهادي وهارون الرشيد، فطلبَ من عيسى أنْ يبادر بخلع نفسه، وليسَ لهُ من الأنصار مَنْ يَدرأ عنه، لأنّ الدّنيا لمن غلب، وهُدِّدَ عيسى بالموت إن تَقاعسَ، فاستسلَم، ودُموعه في قلبه، إنْ لم تَسْقُطْ من عينه، وهكذا امتدّت السلسلة حتى وَصلت حَلَقاتُها إلى موسى الهادي وهارون الرشيد.

ولعلّ من الأوفق أن نُفيض فيما كان من أمر الهادي وأخيه هارون بشأْن البيعة التي عقدها المهدي لهارون من بعد الهادي، فقد كانَ هارون على أتمّ الاستعداد لمعاونةِ أخيه، مصمّماً أن يكون عضدَه القوي، وساعده الأيمن، لذلكَ ما كادَ المهدي يلقى ربّه على رأسِ جيش بجرجان سارَ لمنازلة الخارجين على الدولة ومعه ابنهُ هارون، حتى سارعَ هارون من فوره إلى أَخْذِ البيعة لأخيه على الجند، وعجّل بإرسالِ خاتم الخلافة إليه مع القضيبِ والبُردة والتعزية في الأب الراحل، والتهنئة بالخلافة الجديدة، وكانَ في ذلك ما يلينُ قلب الهادي على أخيه، فيجعله رجلَ الدولة الثاني، ولكن أصَرَّ على أن يخلعه، وأنْ يجعلَ الأمر من بعده لولده الصغير جَعْفر، ووَجَدَ من حاشيته من يتملّقونه، ويحطبون في حبْله، فزيّنوا لهُ ما هَمَّ بالإقدام عليه، وجعلُوا يتنقّصون أخاه في

مجلسه، ويصفُونه بما ليس فيه من المثالب، لينشرُوا رأياً عاماً بيْن الناس ينتهي إلى الرضا بتنحيته، وكانَ من عَادة وليّ العهد أن يَتَقدمَهْ جنديٌّ يحمل الحربة إيذاناً بمقدِمه، وتهيئةً لاستقباله. فبادَر الهادي، ومَنَعَ هذا التقليد الذي أَلِفَه النّاسُ، وأسّرها هارون في نفسه، ولم يُعاتبْ أخاه، بلْ إن شرطيّاً صغيراً أرادَ أن يتملق الهادي، فاعترضَ هارونَ في مسيره، وقالَ له: قِفْ، حتى يعبرَ وليُّ العهد القنطرة، وتطلّع هارون فوجد جعفرَ ابن الهادي من خلْفه، فعرف أنّ هذا الشرطي الصغير لا يقدمُ على ذلكَ دون إيعاز من صاحب الأمر، كما علمَ أن كلمةَ وليّ العهد صارتْ تُطلق على غيره قَبْل أن تُؤخذ البيعةُ رسمياً لمنْ أُطلقت عليه.

ثم شاءَ الهادي أن يُواجه أخاه في مجلسه، حين دخلَ عليه وقبّلَ يده، وجلسَ منه مكانَ الأخ الأصغر من أخيه الأكبر، فقال لَه الهادي بعد سكوت مُريب دام بين الأخويْن أكثر مما يُحتمل: لَكأنّكَ يا هارون تؤمل الخلافة من بعدي! فبركَ هارون على رُكبته وقال لأخيه: يا موسى! إنْ تجبّرتَ عليَّ وضعت وإن تواضَعْت رُفعت، ولو قدّرَ الله وَوَصَل الأمر إليّ من بعدك لأُصيّرُ أولادَك أعْلى من أولادي، وأزوّجهم بناتي، وأبلغُ بهم ما يجب في حق الإمام المهدي! وكانَ الموقفُ حرجاً بالنسبة للهادي أكثرَمن حَرجه بالنسبة لهارون، فسكتَ قليلاً ثم قال: ذلكَ الظن بك يا أبا جعفر. ولكنّه ما كادَ يخلو بنفسه، حتى بدأَ يفكر في أعوانِ أخيه، وفي مقدّمتهم يحْيى بن خالد البرمكي، فكانَ بينه وبين الخليفة حوارٌ وجدل.

لقد بدأ الهادي يستميل يحيى فاستدناه أيّاماً إلى مجلسه، وجعلَه نديمه في ليلاته، ثم خَلا به حين ظنّ أنّه تمكّن من نفسه فقال له: ما رأيُك في أن تكون ولاية العهد لولدي جعفر؟ وفُوجئ بالرجل يقول في هدوء:

يا أمير المؤمنين! إنكَ لو حملتَ الناس على نكثِ الأيمان هانتْ عليهم أيمانُهم، وجرّأتَهم على نكث العهود، ولكنّك لو تركتَ الأمر على حالِه في بيعةِ أخيك، وبايعتَ لولدك جعفر من بعده كان ذلك أوكدَ لبيعته! وكان الجوابُ لبِقاً، لأنّ يحيى لم يشأ أن يَحرم نجل الهادي من الخلافة بعدَ هارون، وفي هذا ما قد يُقرّب شقة الخلاف، فينتهي الأمر دون أن يُخلع ولي العهد، فأطرق أمير المؤمنين ثم قال: صدقت ونصحت.

ولكن الهادي استمع إلى حاشيته، وأخبرهم بما اقترحه يحيى، فخافوا أن يبلغ الرجل من الخليفة منزلةً تحولُ دون جاههم، إذ يكونُ عاملَ وفاقٍ بين الخليفة وولي العهد، وله حنكته السياسية ومقدرته الإدارية، فتكسفُ شمسُ نجومهم الضئيلة، فانهالوا على الخليفة نقداً ليحيى، واتهاماً لسوء مقصده، وفي قلبِ الهادي ميلٌ إلى ما يأملون من خلع هارون، فعمل على أن يُجاهر يحيى بتهمةٍ خطيرة هي الدّسُّ بينه وبين هارون؛ فإذا صُدم بهذا الاتهام، تبرّأ واستكان، وأصبح جانبه مأموناً، إذ سيكون عوناً على ترضية هارون بمختلف التعلاّت، فهو مُربِّيه، ووليُّ شأنه من أيام المهدي.. وإذا فقد هارون نصيره الأول وحاميه فقدْ سُدّت في وجهه الطرق، وحال إلى التسليم.

دعا الهادي يحيى ـ وقد سمع من حاشيته عنه ما أغضبه، بل

ما أفزعه ـ فتجهّم في وجهه حين أقبل، وصاحَ به كالمستنكر: مالي ولكَ يا يحيى.

فقال يحيى على البديهة: أنا عبدُك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد لمولاه إلا طاعته؟

فقال الهادي: فلم تدخلُ بيني وبين أخي، وتفسده عليّ.

فقال يحيى: ومن أنا يا أمير المؤمنين حتّى أدخل بينكما، إنما صيّرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمتُ بما أمرني به، ثم أَمرْتني أنتَ بذلك، فانتهيتُ إلى أمرك.

فقال الهادي: فماذا الذي صنع هارون؟ فقال يحيى: لم يصنع شيئاً، ولا ذلك فيه، ولا عنده، فسكن غضب الهادي، وآثر أن يُقرّب يحيى من مجلسه حيثُ يُبعده عن أخيه، ورفعه فوق وزرائه وأصحاب مشورته، فكلّهم دونه مجلساً وخطاباً، ثم عاود الكرة في حديث ولاية العهد على ملأ من الناس، فأشار يحيى بأن يكون الحديثُ في خلوةٍ لا يسمعَهُ أحد سوى أمير المؤمنين، حتى إذا تهيّأَ المجلس الخاص قال يحيى في انكسار وهدوء: يا أمير المؤمنين، أنا والله ناصحٌ أمين، ولي سؤالٌ مخلص أتوجّهُ به إليك فهل تتفضّل باستماعه والإجابة عليه؟

فقال الهادي: قلْ ما لديك: قال يحيى: لا أراني الله مكروهاً فيك. وأَنا وأولادي جميعاً فداؤك، ولكنْ أرأيتَ لو نزلَ أمرُ الله بك، وأسألُ الله ألا تَبلغه وأنْ يقدّمنا قبلك ـ أتظنّ أنّ الناس يسلمون الخلافة لولدك جعْفر

الصغير، وهو صبيٌّ لم يبلغ الحلم، ويَرضونَ به لِصَلاتهم وحَجّهم وغزوهم؟!.

قال الهادي: والله ما أظن ذلك! فقال: يَا أمير المؤمنين، أفتأمَنُ أن يَسْمو إليها مِن أُسْرتك مثل فلان وفلان وفلان أو فلان، أويطمعُ في الخلافة غَيرهم فتخرج من ولد أبيك؟

فقالَ له الهادي: نبّهتني يا يحيى، فاهْتبلَ الرجل الفُرصةَ، وقال: لو أنّ هذا الأمرَ لم يُعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تَعقدهُ له؟. فكيْف بأنْ تُحلَّه عنه، وقد عَقده المهدي له؟ ولكنْ أَرَى أن تقر هذا الأمر على حاله، فإذا بَلغَ جعفر ـ وبلغ الله به ـ أتيْتُـهُ بالرشيد، فَخلعَ نفسـه، وكانَ أوّلَ من يُبايعه، ويُعطيه صفقة يده، ففكّر الهادي كالحائر، وقَال ليحيى: سأنظر:

علمت الخيزران بما دار بيْن الهادي ويحيى، ولم تكُنْ حسنةَ الرأي في نيّة ولدها الهادي، لأنّه خالَفها في أمورٍ كثيرة، وضيَّق عليها الخناقَ، فصارتْ لاتملك شيئاً من أسباب الأمر والنهي، وكانتْ أيام المهدي صاحبة أمرٍ نافذٍ، وموكبٍ حاشدٍ، وحُكمٍ مطاع، وقد رأتْ بعدَ تَفكير طويل، أنْ يتنازَلَ هارونُ لابن أخيه، لأنه في مهبّ الخطر لا محالَة، وستفقده بتدبير موسى الهادي إذا أصرَّ على موقفه، وخيرٌ لها أن يَبقى في الحياة بلا سلطانٍ من أن تَنْظُر فلا تجده! وهُنا رأتْ أن تُرسل جَارِيَتِها عاتكة سراً إلى يحيى بن خالد، لتقولَ له: الله الله في دم هارون يا يحيى! دَعْه يُجيب أخاه إلى ما سأله، فبقاؤه أحَبُ إليَّ من الدنيا بجميع مَن فيها، فأطرقَ يحيى، وقال لعاتكة: بلّغي سيّدتك إنّ أمر هارون هو أمري، إذ

لوْ قُتل، لقتلتُ أنا وأولادي وكلُّ من يتصلون به، فأنا إذنْ لا أتّهم على نفسي، إذا تجرّأَ أحدٌ واتهمني في أمر هارون.

وقد أحسّ هارون بما يحوطه من الخطر. فأخَذَ يفكر في شيْئين، أيعيشُ خاليِ البال بعد أن يتنازلَ عن ولاية العهد، أم يُصرّ على حقه فيكونَ على شفا جرفٍ من الهلاك. وقد مالَ إلى الرأي الأول، وفاتحَ فيه يحيى، ولكنّهُ رأَى أن يُصرّ على حقه، وسيجعلُ الله له مخرجاً، وأشارَ عليه أن يَستأذن أمير المؤمنين في الخروج إلى الصيد، فإذا فَارقَ بغداد، أَمِنَ من الدسائس، وغابَ عن نظر أخيه، فيشغلُ بأعبائه قدراً من الزمن عن التفكير في شأنه، وقد جاءه الإذن فخرج، وطالتْ مدة اغترابه، فتوجّس الهادي شراً من أمره، وحسبه يجمعُ حوله من يشدّون أزره في أمر ولاية العهد، فكتَبَ إليه طالباً سرعة العودة، ولم يجد هارون في نفسه ميلاً إلى الإسراع، فَتباطأَ، وجعَل يعْتذر باعتلال صحته، وصلاحيّة الجو بالصحراء لحالته، ولكنّ الهادي ثارَ وهاج، وأطلقَ لسانه بسبّه ومنقصته! ويَحْيى في مجلس الخلافة يسمعُ ويبتسم ولا يقول شيئاً، وماذا عَسى أن يفعل؟!.

وأدركت الخيزران حَرجَ ولدها الحبيب، فقيلَ: إنّها سارعتْ بإحكام مؤامرةٍ انتهت بقتل الهادي، وأمْعنتْ بعضُ الرِّوايات في تفصيلاتٍ لا نَدْري مبلغها من الصحة أو البطلان، وكلُّ ما يؤكده المؤرخون أنّ الخيزران اسْتبشرتْ خيْراً بوفاة الهادي. وأظهرتِ السرور في ملئها من الجواري والوصيفات، وقالتْ حين بلغها النّعي: إن ماتَ موسى فقدعاشَ هارون.

وفي رأيي أنّ هذا القولَ ليس كافياً في إثبات المؤامرة عن يقين، وإنْ كانتْ في ضيق كارب من معاملة الخليفة لها إذ فقدت كلّ سلطان، بعدَ أن كانت وجوه الرؤساء تعنو لها، وكان قصرها كقصر الخلافة مصدر الوعد والوعيد، واليأس والرجاء، وهي تعلمُ مدى حبّ هارون لها، وتتأكدُ أنّه سيرجع لها بالسلطان المفقود، والجاه الغابر، وذلك ما جعلها تُظهر الابتهاج والفرح، والهادي بعدُ يدري غضب والدته، فلابدّ أنّه سيحتاط ويأخذ حذره، وله حرّاسه المخلصون، هذا ما أميل إليه، وإن كان الكثيرون على غيره، فالمسألة ليست ذات جزم أكيد. . .

* * *

من تاريخ الرشيد

لو كانت السمعة المدويّة في صحف التاريخ وسنواتِ الدهر تتوّقفُ على الجهدِ وحده، لكان أبو جعفر المنصور أوْلى من حفيده هارون الرشيد بهذا الصيت المدوي، وتلك السمعة المترددة بين الشرق والغرب عبر الأجيال، ولكنّ اقداراً تجعلُ للإنسان سُمعةً مُدوّية أكثر ممّا يأمل، فالرشيدُ قد تردّدَ ذكرُه منذ تولّى الخلافة، ومازالَ هذا الذكر يتزايد ويعظم، وقد اختلطتْ أنباؤه الحقيقية بأخبارٍ مصنوعة لم تكنْ ذات ظلٍّ من الواقع، بل ربما كانت هذه الأخبار المصنوعة هي التي ساعدت على سيرورة ذكر الرشيد عَبر العصور المتتالية، وهذا ما لا يد له فيه، فقد شاء الله أن يصبح حديث الأجيال.. وأخاله لن ينقطع ما قُرئ تاريخ الإسلام!

والعجيب في حديث الأجيال عن الرشيد أنّه لم يقتصرْ على الدارسين من المؤرخين، أوعلى ذوي الهواية ممّن يتمتَّعون بالقراءة ولا يدرسون، بل امتدّ إلى العامة ممن لا يعرفون حتّى كيفَ يقرؤون ويكتبون، لأنّ القصص المنسوجة حولَ الرشيد كانتْ ذاتَ طرافة وعجب، فإذا سمعها سامع ما، انجذبَ إليها وعملَ على رِواياتها في مجالس سمره، وكنتُ أعرفُ أحد العامة ممّن لا يقرؤون ولا يكتبون، يتحدث عن نَوادر

ينْسبها للرشيد، فإذا سألتَهُ عن هذا الخليفة العظيم لم يدْر عنه سوى أنه كان ملكاً كبيراً له نكات وقفشات!.

على أنّ أغرب ما يلحظه الباحثون في تاريخ الرشيد، أنّ أخباره قَبْلَ أن يلي الخلافة قليلةٌ ضئيلة، وهي لا تخرجُ عن الذي يُقال عن أمير من الأمراء، نشـأَ في كنفِ والده الحاكم الأكبر، فهـوَ يحْظى بمباهج السلطان ونعيم الخلافة، ولكنّه في ذلك شأنه شأنُ العشرات والمئات من الأمراء الذين لم يُقدَّر لهم أن يبلغوا مرتبة الخلافة، فقد أُحيطوا بالنعمة والجاه، ووردُوا مناهل الثقافة، وأَدّى لهم الناس حقوق الإمارة في إجلال واحتفال، ثم مضى بهم الزمن إلى حيث يُنسوْن فلا يُذكرون، وكان هارون بسبيلٍ من ذلك لو لم يُتحْ له أن يكون أمير المؤمنين.

وُلد هارون بالري حيث كانَ والده المهدي في رحلة حربية سنة (١٤٥هـ)، ونَشأَ في رعاية أب شفيق وأم حانيةٍ، ولاقى أساتذة الأدب والتربية من كبار العلماء وفضلاء الرواة، فتثقفَ وتربّى، ورشحه والده إلى مهام الأمور، فولاه قيادة الجيش الزاحف لغزو الروم مرتيْن في عاميْن متتاليين، ثم جَعله والياً على المغرب كلّه من الأنبار إلى أطراف أفريقية، يُقيم في بغداد، ويُنيب عنه من يحكم هناك، والمسألةُ ليستْ صُوريَّةً كما قد يتوهم القارئ، فإنه مسؤولٌ أمامَ أبيه، وقائدُهُ في المغرب مسؤولٌ أمامه يبلّغه أمور الحكم ومشاكلَ الناس على فتراتٍ متعاقبة، وقد شاءَ والده أن يجعله وليَّ العهد بعد أخيه الهادي كما ألْمحنا إليه من قبل، ثم ماتَ المهدي في سن باكرة، وتولى الهادي الخلافة، فمكثَ بها سنةً

وشهراً واثنيْن وعشرين عاماً. تعرض فيها الرشيد لأزماتٍ حادّة وكانَ من رأيه أن يخلعَ نفسه عن ولاية العهد ليستريحَ مِنْ تآمُر أخيه، ولكنَّ حاشيته لم تنزلْ على رأيه، وجاءَ موتُ الهادي فوضعَ حدًّاً للتآمر، فتولى هارون الخلافـة في ١٤ من ربيع الأول سـنة (١٧٠هـ)، ولَه من العمر خمسٌ وعشرون سنة على القول الراجح..

كان الهادي في عهده القصير شديدَ الحزم، قويّ الشخصية، يُعاقب على الخطأ متى رآه، ويقفُ من وزرائه وَوُلاته موقف المراقب الدقيق، وكانَ أبوه من قبله يميلُ إلى التسامح، ويدعُ لزوجتهِ الخيزران أن تُديرَ بعض الأمور، فهي قِبلةُ الرجاء، وموضع التأميل، ولكنَّ الهادي أنِفَ مِن أن تكون أمّه بَرْزةً سـافرة للغادي والرائح، فتـوعّدها، وتوعّد حاشيتها ومن يَلُوذ بها، فأخذتِ الناس رهبةٌ منه، لأنّ من يشتدّ مع والدته فهوَ مع غيرها أشد، وكذلكَ كانَ مع أخيه هارون، يُحاول أن يُنزله عن قدره، وألا يفرضَ له من الاحترام ما يَتعيّن لولي العهد. وهَذان مثلانِ واضحان يُلقيان الرهبة في نفوسِ العامة والخاصّة، فكانَ المقربون إليه لا يأمنُون على أنفسهم، ويخشون أن تدور عليهم الدوائر لوشـايةٍ قد تكون ملفقةً كاذبـة.

ومثل هذا الشـعور يَخلقُ في النفوس ضيقاً يحتاجُ إلى انفراج، لذلكَ ما كادتْ تُعلَنُ وفاة الهادي حتى شملَ الناسَ فرحٌ مستبشر، وهُرعت الوفود هاتفةً بحياة الخليفة الجديد، وعادتِ الأم لمجدها الزاهر، وكأنّ الرشيد كان أملاً بعيد التحقيق فتحقق، وأصبح الجمهور سعيداً بخلافته،

وعَمل يحيى البرمكي على أن يكون استقباله في بغداد في اليوم الأول من خلافته بَالِغاً حدَّ الروعة، وكانَ ذلك مفاجأة للناس، فقد جاءت توليةُ المنصور عند وفاة السفاح ذاتَ مظهرٍ بسيط متواضع، لأنّ المنصور من ناحيةٍ أولى لم يكن يميلُ إلى المظهر الباذخ، والجهارة الخالبـة، وقد أُخِذت البيعة للمهدي على عجل، فلم يتمّ لمشهده في البيعة ما يجعلُه ماثلاً بالأذهان. وكذلك كانت توليةُ الهادي.

أمّا الرشيد فقد احتُفِل بخلافته في يوم جمعة، وقد فرغ الناس من حاجاتهم في هذا اليوم، وجعلُوا يرقبون المشهد الرائع، وحين أَهلّ موكبه من الجسر الكبير، هتَف الرجال، وزغردت النساء، وقد تقدّم هارون ومن خلفه كتيبة من الفرسان تحملُ السيوف اللامعة مُرْتفعةً إلى الفضاء، ثم يليها أمراء البيْت العباسي في أجمل لباسٍ وأبهاه. ثم طوائف الكتّاب والولاة والقواد، كلُّ طائفةٍ في حيّزها المرسوم، ومِن وراء ذلك آلافُ المبتهجين من أبْناء بغداد، فإذا وَقفَ هارون قليلاً ليُحيّي المصفقين في الشرفات وقَفَ الركب من خلفه وِفْق ترتيبٍ برمكيٍّ ملحوظ.

ثم جاءتْ نادرةٌ بهرت الناس جميعاً، فقد وصلَ موكبَ الرشيد إلى مكانٍ معيّنٍ من النهر الدافق، فقالَ ليحيى البرمكي من خلفه: إنّه رَمَى خاتم وليّ العهد في دجلة حين أَصرَّ الهادي على خلعه، رَماه مضطراً كيلا يغصبه أخُوه من يده، وتَساءلَ مَنْ يستطيع أن يقتحم الماءَ بموجه، فيبحث عن الخاتم، وهُنا هرع عشراتٌ من الحرس والعبيد يقذفون بجسومهم إلى النهر غـائصين، وكأنّ الله لم يشـأْ أن يُخيّبَ رجاء الخليفـة، فعثرَ بعضُ

الغائصين على الخاتم، ودوَّى التكبيـر، وارتفع التهليـل، وتناولَ هارون الخاتم فردَّهُ إلى إصبعه، وكثر الهتاف، وانقضى اليوم على أحسن ما رَجَاه مخططو الاحتفال.

أصبح الرشيد خليفة حينئذٍ، واتخذ يحيى البرمكي وزيره الأول، وأبناؤه من خلفه، يصدرون عن رأيه، وبعضُ الكاتبين يذهبُ إلى أن هارون قد اعتزل الأمرَ نهائياً. وتركَ ليحيى وأولادِه أن يفعلوا ما يُريدون، فارغاً إلى مجالس الأنس! وهذا مالا يتَصورُهُ عاقل يُفكر فيما كانَ بِنَظَرٍ مُتئدٍ، إنّ الرشيد يعرف فضل يحيى عليه، ويرعى له حرمة التربية، ويُقدر وقوفه معه في ساعة العسرة! ولكنْ هَل سُلب رشادَه حتى يظن نفسه تمثالاً للزينة في القصر، لا يأمُر بشيء ولا يَنهى عن شيء! وهلْ في طبائعِ الأشياء أن ينقلبَ الرشيد في يوم وليلة مالكاً للزمام على أحسنِ وجوهه بَعد نكبة البرامكة، وهو لَمْ يدرِ من أمورِ الدولة شيئاً من قبل؟!

لقد كانَ الرشيد رجلاً ذا اتّزان عاقل، حين نظرَ في عهده الأول إلى من حـوله، فرأى يحيى البرمكي أخلص النـاس له. وعَرف له حُنكتَـه السياسية، ودَوْره النّابه في عهد والده! وهو يعلمُ أنّه عرّض حياته للخطر من أجلِه، حينَ عارضَ الهادي في مسألةِ ولاية العهد، وَخلَق من المبررات ما جَعَلَ الهادي يتردّد، ولو كانَ يحيى صاحب انتهازية وُصُوليّة، لانضَمّ إلى الهادي من فوره، وآثَر أن ينعم بعطفه دونَ أن يفي لشابٍّ لا يدري ماذا سيكون في غده! لقد قدّر الرشيد ذلك، فعَهد إليه بالوزارة، لا ليغمِض عينه، ويفقدَ أمره ونهيه، ولكنْ ليكونَ لسانه الناطق، وأَداتَه الفاعلة. وقد

كانَ الربيعُ بن يونس في بعض أيام المهدي رجلَ الدولة الأوّل، يفعلُ ما يشاء ممتَّعاً بثقة أمير المؤمنين، ولم يَقُلْ أحدٌ إن المهدي كان خاضعاً لرغبةِ وزيره! وكلُّ وزير في عهود الملكية المسيطرة دُون جنوحٍ للشورى العامة، كانَ له وزير يصدر عن أمره تارةً، ويفعل ما يراه مناسِباً لاطّراد الحكم دُون أمر، ارتكاناً على الثقة الممنوحة له.

وإذنْ فَقدْ كان يحيى البرمكيّ وأولاده من ورائه وزراءَ الدولة، فهمُ المشيرون والمنفّذون، ولكنَّ الرشيد معهم ينظرُ في كل أمر، وتؤرّقه الأحداث المضطربة، فينهضُ للغزْو عاماً بعد عام، ويضع الخُطط للجهاد مختاراً أحسن القوّاد، بناءً على خبرته السابقة مُنذ عهد أبيه، والّذي يُعنى بأمورِ الحرب على جَسامتها الفادحة، من الهيّن عليه أن يُعنى بأمورِ السلام، فيعرفَ عن يقين رجالَ دولته من وزراء وقوّاد ووُلاة وعمال وقضاة، بل يَعرفُ رجالَ العلم والأدب في كافّة فروع العلم والأدب، ويحفظ لكّل نابغٍ موضعَه الصحيح؛ وإذنْ فكلُّ قولٍ ينتهي إلى أن الرشيد سلّم الأمرَ ليحيىَ وأولاده وفَرغَ للهو في مجالس الأُنس لايجدُ من الواقع المسجّل في كتب التاريخ أدنى برهان، ولم تأتِ شهرتُه الممتدة في أقطارِ الأرض لأنّه كان يلهو ويلعب، بل لأنه كانَ أمير المؤمنين ذا النظر الثاقب، والعمل المتواصل، والفكر الرشيد.

وهناكَ حقائق ثابتة لا يُماري أحدٌ في ثبوتها، وهي بوضوحها السافر، تؤكّد مكانة الرجل الكبيرة، وتدل على موهبته الخارقة. وقد استطاع الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد، بنظرتِه الواعية

وتركيزه الدقيق، أنْ يُحدّد مكانة الرشيد تحديداً قد لا يبلغه مؤَلِّفٌ ثَرْثارٌ يخط عشرات الصفحات دونَ أن ينتهي إلى مقطع الصواب، فَبعد أن تَحَدّث العقاد عن اشتهارِ الرشيد بالثقافة الأدبية والفِقه التشريعي أعلَن أنّه كان قَائماً بالفرائض الدينيّة، مُوقِّراً الشعائر الصلاة والحج أيّما توقير، وكانَ يُبيح اللهو، ولكن لا يشهدُ مجالسه مع اللاهين، وكانَ يميل إلى الفكاهة. ولكن لا يقبل من ندمائه أن يتجاوزوا بها حُدودها فيما يمس الفرائض.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد[١]:

«هارون الرشيد عَلَمٌ على سلطانِ الدولة الإسلامية، حيثما سمع بها السامعون، وتحدث بها المتحدثون، وهوَ في هذا المعنى من طرازِ (رمسيس) في الدولة المصرية القديمة، ومِن طراز (لويس الرابع عشر) في دولة فرنسا الحديثة، فكلّهم قد أصبح نموذجاً للملك على ألسِنة الخاصة والعامة، بغيرِ استقصاء أو توسع كبير في مراجعة التاريخ.

والرشيدُ لم يكن أوسَع الخلفاء ملكاً، ولا أوفرهم متعةً، ولا أقدرهم في جميع المناقب والمزايا، ولكنه ظَفر بهذه الشهرة الشعبية لأسبابٍ متعدّدة يرجعُ بعضها للحق، وبعضُها للمصادفة، كما يغلب على كل شهرة شعبية قديمة أو حديثة.

هو أول من استقرَ له الملك من أبناءِ بيته بعدَ أسلافه الّذين كانوا مشغولين بالتوطيد والتمكين، وهو أولُ من اجتمعَ في بلاطه الأدباءُ

---

(١) عدد الهلال الخاص بهارون الرشيد (أول أغسطس ١٩٤٠م)، ص١٠٩٣.

والشعراء والنّدماء بعد أن كانُوا متفرقين غادين أو رائحين، وهو الخليفةُ الذي طال مُلْكُه، واتسع الأمد في المشارق والمغارب لترداد ذكره، إذْ كانَ غيره لا يلبثونَ أن يُذكَروا حتى يُبادرهم الخلع أو يطويهم الموت.

وهو إلى ذلك كله شخصيةٌ مفهومة، بين جميع الطبقات، لأنّها على كبرها شخصيةٌ مستوية ليسَ فيها تعمّق ولا غرابة، فابنُه المأمون يحتاجُ إلى ذهن فيلسوفٍ ليفهمه، ويفقهَ معناه، وأسلافهُ الأقوياء كانُوا عُقدةً سيكلوجية للدارسين والمحللين، أما الرشيدُ فلم يكن فيه جانبٌ معضل، ولا جانبٌ غامض، ولا جانبٌ متفرد بالتخصص والندرة التي تفهمها طائفة دون طائفةٍ من الناس.

وسيبقى اسم هارون الرشيد كَما كان من قبل عنواناً للحياة الفكرية التي انتهت في عصرِه إلى الأوج الأعلى، وخُلاصتها أنّها حياةٌ فكرية أَخَذَتْ في الاتساع والاتصال بالأممِ من أحوال المعيشة، قَبْل أن تأخذ ذلك من طرِيق الدرس والاطلاع على ثقافات الأممِ الأجنبيّة، وأنَّها في ميدانِ الدرس والاطلاع، كانتِ الغاية التي ارتقى إليها الفكر العربي قبل مشاركةِ الشعوب القديمة والحديثة فيما كان لها من علم وتفكير».

أما كيفَ كان اسم هارون الرشيد عنواناً للحياة الفكرية التي انتهت في عصره إلى الأوج الأعلى فهذا ما ستظهره صفحاتُ هذا الكتاب في هدوءٍ متئد، دون جلبة وافتعال.

* * *

شخصية الرشيد

من مزالق الكتّاب، أن يؤمنَ أحدُهم بفكرةٍ ما نحو إنسانٍ أو نحوْ قضية قبل أن يَبحثها بحثاً علمياً محايداً. فإذا جاء وقت البحث تسلَّطتْ هذه الفكرة عليه، فأخذَ يتلمّس تأييدها من بعض ما يقرأ، وقد يجد ـ ولا بدّ أن يجد ـ ما يخالفها كل المخالفة من الروايات الصحيحة، فلا ينتظرُ حتَّى يعدِّل رأيه، بل يبذل جهده في تأويل ما يقرأ؛ ليوافق ما اعتقده دون بحث!، ومن هذا ما اتّجه إليه بعض الكتَّاب تحت تأثير قراءاتٍ في علم النفس تذهبُ إلى أنّ لبعض الناس شخصيتين مختلفتين، كلٌّ منهما تُناقض الأخرى، فيأتي في وقتٍ ما ما ينكره في وقت آخر، ولم يَمْضِ من الزمن ما يتيحُ له أن يُفكِّر فيما يتناقضِ فيه، ومعروفٌ أن الإنسان قد يُبْدي رأياً، ثم تبْدُ لهُ من الدلائل ما تجعلُهُ يعدل عنه، وهذا ما لا يُعابَ في شيءٍ بل إنّه ليدلّ على دوام النظر، واطّراد البحث، ولكنَّ الذي يُعاب هو صاحب الشخصية المزدوجة دائماً التي تأتي في الصباح ما تنكره في الظهيرة، وتأتي في الظهيرة ما تُنكره في المساء، هنا تكون الشخصية غيرَ سويّة، بل تكونُ مريضةً، إن صلحتْ لشيء فلا تصلح لقيادة الناس.

لقد أخذ بعض الدارسين ما يدلّ على اختلافِ المنحى في بعض

ما قرأ من سيرة الرشيد، وبَدَلَ أن يَضعَ كل حادثةٍ في إطارها الصحيح، وفق ظروفها المختلفة، أخَذَ يجمع ما يُوحي بالاختلافِ ليحكمَ بأن للرشيد شخصيّتيْن مختلفتين، وأنّه لا يعرف كيفَ يستقر، ولو تمهَّل هذا الباحث ـ وله أمثال ـ لعرف أنّه في تاريخ حياته يأتي من الأشياء ما يثبت أنّها تخالف ما أَتاه من قبل، لاختلافِ المشاعر والأحاسيس في وقتٍ عنها في وقت آخر، ولكنّه جَرْياً وراء معلوماتٍ مُبتَسرة في علم من العلوم يحاول أن يُفسّر الأحداث تفسيراً منطقياً لا يدلُّ على اطرادٍ مكتمل، ولا يدرك أنّ لكل قويّ من الأقوياء مَهما تزايدتْ قوته، ساعة ضعفٍ تغلبُه فيها بعضُ المشاعر، فيخالف شأنه المعهود، وهذا يمثّل الاستثناءَ في حياته ولا يمثّل القاعدة المطّردة، هذا القويُّ المتماسك لا يُمكن لباحثٍ مُتّئد أن يتصيّد من لحظاتِ ضعفه الإنساني أعمالاً يجعلها تقفُ أمام ما تُعُورف من سُلوكه المتّزن. وَأَلِجُ إلى صميم البحث فأقولُ:

لقد ذَكَرَ صاحبُ (الإمامة والسياسة) عن الرشيد قوله[1]:

«ذكرُوا أن الرشيدَ كان كثيراً ما يتلَثّم، فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهوَ لا يُعرف، وكانَ قد قسَّم الأيامَ والليالي على سبعِ ليال، فليلةٌ للوزراء يُذاكرهم أمورَ الناس، ويشاوِرُهم في المهم منها، وليلةٌ للكُتّاب يحملُ عليهم الدواوين، ويحاسبُهم عمّا لزم من أموال المسلمين، ويرتّب ما يظهر من الصلاح، وليلةٌ للقوّاد وأُمراء الأجْناد يذاكرهم أمر

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٨٦.

الأمصار، ويسـألهم عن الأخبار، ويُوقُفهم على ما تبيّن لـه من صلاحِ الكُور، وسدّ الثغور، وليلةٌ للعلماء والفقهاء يُذاكرهم العلم، ويُدارسهم الفقه، وكان من أعلمهم، وليلةٌ للقُرّاء والعبّاد يتصفحُ وجوههم، ويتّعظ برؤيتهم، ويستمع لمواعظهم، ويرقّق قلبه بكلامهم، وليلةٌ لنسائه وأهلهِ ولذاته، يتلّذذ بدنياه، ويأنَس بنسائه، وليلةٌ يخلو بنفسه، لا يعلم أحدٌ قرب أو بعد ما يَصنع. ولاشك أنه يخلُو فيها بربّه، يسأله خلاصَ نفسه، وفكاك رقّه».

فإذا تأمّلنا هذا النص بنظرةٍ محايدة بصيرةً، وجدنا أنّ ما تُعورف من أمر الرشيد يكادُ ينطبق عليه، وبخاصّته إذا كانَ في بغداد، ولم يتكلفِ الذهاب إلى الغزْو تارةً أو إلى الحج تارةً أخرى، فالخليفةُ كان وثيق الصلة بالوزراء والولاة يُناقشهم الرأي ويُدرك ما يعتزمون عليه، وكانَ على درايةٍ بأعمال العامّة حين يتنكّر، ليقرأَ الواقع كما هو، دُون نقاب، وكانَ يعرفُ أعيْان دولته من الفقهاء والشعراء والعلماء وذوي الرأي، ولهُ معهم حِوارٌ ومناقشـات. وكان يتلّمس الوعاظ والزهـاد ليستَمع إلى مواعظهم خاشعاً متأمّلاً، وكان لا يترك حظَّه من ساعات السمر وسماع الأغاني دُونَ أن يشرب محرماً أويقترف إثماً، وهوَ في ذلك إنسانٌ طبيعيّ يملأُ وقته فيما يُفيد مملكتـه، ويملؤُه خِبرة وحنكة وتجربـة، فإذا جـاء باحثٌ، وأخَذَ ما رُوي عنـه في مجالـسِ الأنـس والسمر، وجعلَه شـأنَه الوحيد، وطابَعه العام، فهل حَالَفَ الصواب في شيء؟ وإذا عَفا الرشيد عن كثير من المخطئين، ثم مَلَكَهُ الغضب في أمورٍ لا يجوز له أن يتساهلَ

فيها فهل يكون دَيدنهُ البطش والانتقام؟ أو أن لكلٍّ حادثةٍ ملابساتها ولكل موقف ظروفه؟

يقول الأستاذ عمر أبو النصر في كتابه عن هارون الرشيد، وقد سمّاه في الطبعة الثانية (الهوى والشباب في عهد الرشيد) وما أرى أنه فعل ذلك بنفسه، فهو أكبر من أن يخْضع إلى استمالةٍ خادعةٍ بعنوان مثير، ولكنّ القائمين على النشر من تجّار الورق يُحبّون أن يجذبوا الأنظار ليلتَمسوا الرواج من وجوه ليْست هي المنشودة أمام المصلحين؛ يقول الأستاذ عمر أبو النصر[1]:

«وهارون الرشيد في الواقع شخصيةٌ غريبة، لأنّ حياته عبارةٌ عن صُوَرٍ متناقضة أشدّ ما يكون التناقض، فهو في بعضِ الأحيان خليفةٌ مترَفٌ يُسرف في ترفه، ويغرق في لهوه وعبثه، ثم هُوَ أحياناً خليفةٌ من أقوى خلفاء الإسلام، حَاربَ خصومه فأثخنَ فيهم، وَغَزَا البيزنْطيّين فأمعنَ فيهم إمعاناً لم يُمعِنْه خليفةٌ قبله، ثم أذلّهم وفَرضَ عليهم الجزية.

ثم تَراه في صورة أخرى يحفظ ليحيى والبرامكة ما أفْضَوْه إليه من خَدمات، وما قدّموه من نصيحة، حتى ليعهدَ إليهم بكلِّ أمره، ويتخلّى لهم عن ملكه، وأخيراً تراه يشتدّ في التنكيل بهم اشتداداً ليس يتصل مع صِلاته السابقة معهم في كثيرٍ أو قليل، وحيناً تراه قد ترك أمر المملكة لوزرائِه، وانْصرف إلى حَياته العائلية ولهوه وعبثه، حتى ليظنَّ المرءُ أنه

---

(١) الهوى والشباب للأستاذ عمر أبو النصر، ص٥، مقدمة الكتاب.

لم يُخلقْ للأمر والسلطان، ثم لا نلبثُ أن نَجده يطوفُ بالأسواق، ويتعرف أمور الناس، ويوغل في البيوت، ويَغشى المجالس والأنْدية حتى كأنّه ابن الخطاب في حَدَبِهِ على رعيته، ورغبته في إحقاق العدالة الاجتماعية عَلى الوجه الأكمل والأحسن.

ثم هو بَعد هذا كلِّه الخليفة المتأدب، والفقيه العالم، يتقرّب إلى العلماء والفقهاء، ويشجع العلم والآداب والفنون، حتى لا يجد كبير أمرٍ في خدمتهم والقيام عليهم، فإذا استطار لبّك كلّ ما شاهدته من مختلف الصور، وَقعْتَ على صورةٍ أشد وأعظم هي صورةُ الخليفة الورع الزاهد، المتهالِك على الصلاة والتقوى، المقيم لشعائر الإسلام، لا يترك منها واحدة، يقومُ الليل ساهراً مصلّياً، يتهجدُ ويقرأ القرآن حتى مطلع الفجر، وإذن فنحن أمام شخصية غريبة ما في ذلك شكّ ولا ريْب».

هذا ما كتبه المؤلّف المؤرِّخ، وقَال في ختامه: «إنّه أمام شخصية غريبة ما في ذلك شك»، ولو تأمّل الباحث قليلاً لعلم أن الغرابة جاءتْ إليه من تصديقِ كلّ ما يقال، دُون اتئادٍ في التحليل، فعباراتُه السابقة لا يكادُ يلتئم منها قولٌ مع قول إذا وُوزِنَ بالمنطق الصحيح؛ إذ كيفَ يرى أنّ الرشيد مُغرقٌ في لهوه وعبثه، مسرفٌ في ترفه، وهو المحاربُ الذي غزا عشرَ غزواتٍ، وحجّ اثنتي عشرة حجةً متكلفاً في كلّ رحلةٍ من الأعباء ما يُرهق ويضني، وهي رحلاتٌ وغزوات متكررة لا تنْقطع؟ ويكون مظفراً في غزواته بحيثُ يُرهق خصومه ويُثخن فيهم، ويَفرض عليهم الجزية، ويُمعن فيهم إذلالاً لم يستطعه خليفة قبله؟! كيفَ يغرقُ في اللهو

والعبث ويُسرف في المجون، وهُو باعترافِ الباحث يصلّي أكثر الليل، ويحافظ على شعائر الإسـلام، لا يترك منها شـعيرةً واحدة، فإذا تـركَ الصلاة لجأَ إلى قراءة القرآن حتى مطلع الفجر! كيف يترك أمرَ المملكة لوزرائه وَينصرف إلى حياتِه العائلية ولهوه وعبثه حتى ليظن المرء أنه لم يُخلق للأمر والسـلطان، وهو الذي كان الولاة والوزراء يَـرتعدون في مجلسه إنْ بلغهُ عنْهم ما يسوء؟!.

وإذا كانَ على هذه الدرجة من الغفلة، فكيفَ أمكنه أن يَستأْصل أكبر أعوانه، وأنْ يَقتُلَ من شاء، ويَسجن من شاء، في يَوْمٍ وليلة! ويُصبح هو الحاكم الأوحد! هلِ انتقلَ من الخمولِ واللهو إلى السيطرة والنفوذِ بَيْن صباح ومسـاء، دون خبرة دقيقـة ومهارة في تسـيير أمور الدولـة؟! أيجوز لِلاهٍ عابث مُسرف في اللهو والنعيم، أن يجْمع الأمر في يده، وقد شَـلّ أعوانَـه من مالكي الأزمَّـة شـللاً مُميتاً، ليواجهَ الموقف بسـلطانه الجبّار! دون تلكُّؤٍ أو استخذاء؟ لقد كانَ على الباحث أن ينظر إلى النتائج ليصحّـح المقـدمـات؛ وإذا كـانـت النتـائـج معلـومـةً مشتهـرة، فكـل ما لا يُفضي إليها من الأسباب خيالٌ مزوّق، واختلاق كريه!.

أَبْتَعِدُ عن الرشيد قليلاً، لأتحدث عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وما الرشيدُ مِمّن يُشبه الحجاج في شيء، ولكنّ كاتباً من الكتّاب تَعرض له بما يَصمه بازْدِواجِ الشخصية حين قرر[1] بعد أن استعرض جانباً من

(١) مجلة الثقافة ٣١/ ٣/ ١٩٤٢م.

جبروته وبطشه وجانباً مما رُوي عن عفوه وصفحه ـ أنّ الرجل ـ في بعض أنـواع الافتراض ـ كانَ ذا شـخصيّتيْن مستقلتين تحيا كلّ منهما حيـاتها الخاصة، فهو إذنْ مثلٌ قديم لشخصية (دكتور جيكل آند مسترهايد) التي صوّرها الكاتب الإنجليزي (ستيفسـون) في روايته الّتي سـماها بهذا الاسم، فقد جعلَ بطل الرواية يظهر في موقفيْن مُختلفين متناقضين، كأنّما هما شخصيتا فردَيْن مختلفين تماماً.

وقد وجد هذا الرأي معارضة شديدة من باحثةٍ فاضلة هي الأستاذة (ملكة عبد العزيز)، إذ قرّرتْ أنّ النفْس الإنسانية أدقُّ وأكثرُ تعقيداً من أن تُـوجد فيها مثل هاتيْن الشـخصيّتيْن المنفَصلتيْن كل الانفصال، إذ هي كالجسم الإنسانيّ ذاتِه كائنٌ مركّب معقد، ذُو غُدَدٍ وأجهزة لا حَصْر لها يقوم كلٌّ بـوظيفته الخاصـة، ولكنه ليس بمعزول عما سـواه، بل نراه يتفاعَل وينفعلُ، ولا يسـتطيعُ الاسـتقلال بمهمته، كما أنّها ليسـتْ من البساطة بحيثُ تظلّ سـاكنةً جامدةً لا تتحرك ولا تهتزّ أمام الأعاصيـر، فما مِن نَفـسٍ تطمئن إلى حالة واحدة، وما مِن نفس تَثْبُت على إيمان لا يُساوره شك، أو شكٍّ لا يداخله يقين، بل هي نزعاتٌ متشابكة تنقلها من حال إلى حال»[1].

وإذن فالذين يلتقطون أشياءَ يَسيرة في لحظاتٍ يسيرة، ويجعلونها دليلاً على انفصام الشخصية وازدواجها يَنْسون شيئاً واحداً هامّاً هو أنّ

(١) مجلة الثقافة، ٢٦/ ٥/ ١٩٤٢م.

صاحب الشخصية المنفصمة، والذاتيّة المزدوجة لا يصلُحُ لأداءِ شيءٍ يسير، لأنّه ينقلبُ على نفسه انقلابَ المتردّدِ الحائر، وإذا لمْ يكُن ليصلح لأداء شيءٍ يسير فكيفَ يرأس دولة؟ أويتولّى حكم قِطاع كبير من الناس، وهوَ مزدوجُ الشخصية، منفصمُ التفكير؛ كيفَ يقبضُ الحجّاج بيدٍ من حديد على أهمّ بقاع الدولة الأموية خطراً، وأكثرها استعداداً لنُشوب الثورات، وكيفَ يهاجم الرجفات المتتابعة في الكوفة وبغداد وخراسان وما وراء النهر، ويصمد وحده لجيوش الخوارج، ثم يكونُ خوّاراً متردّداً مُنْفصم الشخصية؟!، وبالتالي كيفَ يكونُ الرشيد متناقض السلوك مضطربَ الاتجاه موزّع الأهواء، وهو سيّد العالم في عصره، والذين لم يخضَعوا لسلطانه يَرقبُون مواقفه، ويرصُدون اتجاهاتهِ ويحسبونَ لقوّته ألف حساب! لقد كانَ الرشيد حاكماً سياسياً ضليعاً، وكانتْ أمورُ الدولة في يده، إذا تنازلَ عن بعضها لأحد مرؤوسيه ففي رقابةٍ دقيقة، وتحتَ ملاحظةٍ حازمة، ولكلٍّ أن يقف أمامَهُ موقفَ المسؤول أمام الرئيس، وهو بذلك عاهلٌ أي عاهل، وخليفةٌ أكبر من أنْ يُشبَّه بمريضٍ تتنازعه الصراعات، وتقعُد به الأوهام.

إنّ الذي غاب عمن يدّعون التحليل النفسي ـ وهم لا يبلغونَ من حقيقته شيئاً ـ لم يغبْ عن مؤرخ فيلسوف هو أبرعُ مؤرخي العربية على الإطلاق، وواضع اللّبنات الأولى في صرح علم الاجتماع، ذلكم هو ابن خلدون، النابغة البحاثة الدقيق، فقد قرأ كل ما قيل عن هارون الرشيد، جيدَّهُ ورَدِيئهُ، وبحث وَنقّب، وقارنَ ووازن، ثم اهتدى ببصيرته النَّقَّادة إلى الجوهر المكنون في تراثه، فكتب عنه ما أملاه بحثه المحايد، ونَظرُه

المتلد الثاقب، وقالَ فيما قال[1] نافياً ما وُصِمَ به الرشيد من افتراء: «لم يُعاقر الرشيد الخمر، لأنّه كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ على الصلوات والعبادات، ويصلي الصبح في وقته، ويغزو عاماً ويحج عاماً، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيه معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، أو تقليد الأخبار الواهية بها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع حراماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة.

ثم يقول المؤرخ الكبير:

وأين هذا من حاله وقيامه بمايجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان منه من صحبة العلماء والأولياء، وأين محاورته للفضيل بن عياض، وابن السمَّاك، والعمري، ومكاتبته لسفيان الثوري، وبكاؤه من مواعظهم، ودعاؤه بمكة في طوافه، وما كان عليه من المحافظة على أوقات الصلاة وشهود صلاة الصبح لأول وقتها».

أما ابن الأثير فقد وقف إلى جانب الأخبار الصحيحة الجديرة بمكانة خليفة عظيم هو هارون الرشيد، فقال[2]: «إن الرشيد قد اعتمر في شهر رمضان، وعاد إلى المدينة عام (١٧٩هـ)، وأقام بها إلى وقت الحج، وحجّ بالناس، ومشى من مكة إلى منى ثم منها إلى عرفات،

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/ ١٤.

(٢) كتاب الكامل لابن الأثير: ٥/ ١١٤.

وشهد المشاعر كلها ماشياً على قدميه».

ويقول في موقف آخر[1]:

«حجّ الرشيد مرة فدخل الكعبة، فرآه بعض الحجبة، وهو واقف على أطراف أصابعه يقول:

يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، إن لكل مسألة منك ردّاً حاضراً، وجواباً عتيداً، ولكل صامتٍ منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفْر لنا ذنوبنا، وكفّر عنا سيئاتنا . . . يامن خشعت له الأصوات بجميع اللّغات يسألونك الحاجات، إنّ من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي، إذا تَوفّيْتَني، وصِرتُ في لحدي، وتفرّق عني أهلي وولدي . . اللهم أَحْينا سعداء، وتوفنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين».

فالرشيدُ يشعر أنّه ذو ذنب، وأيّ الناس لم يذنب؟ ويسأل الله، يرجو رحمته ويخشى عذابه، ويأتي المشاعر على بُعد ما بينها ماشياً على قدميه، ويعرف في أعماقه أن مثوبة الله على قدر مشقة العابد، فهو إذن ليس بمتكبر في الأرض، وليس بجبّار عنيد . .

وقد واجه المؤرخ السوري الأستاذ محمد كرد علي ما وُجِّه إلى

---

(١) كتاب الكامل لابن الأثير: ٥/ ٢٣١:

الرشيد من اتهامات فقال[1]:

«وإذا كانَ الرشيد يلهو ويطربُ في الأحايين، وقد يجتمع إلى المُسمعات والمسمعين، والعازفين والضاربين، فليسَ معنى هذا أنّ ذلكَ كان دأبه، وأنّه يفعل المحرمات ولا يبالي، لاجرم أنه كان مجتهداً وأنَّ رأيه في الطرب غيرُ رأي المتعصّبين والناسكين في عصره، وقد شهد له بالتقوى جمهور العلماء في عصره، الذين كانوا يختلفون إلى مجلسه، ويَرقبون سيرته عن أَمم، وما كان هؤلاء الأئمة ممن يُصانِع عن دينه، ويشهدُ الزّور حسبةً. وهم المأمُونُون الثقات، أُعجبوا به حياً وميتاً، وشهادةُ واحدٍ منهم تعدلُ ألف شهادة صَدرت عن الفُسّاق والمجّان وما أحسن ما قاله فيه أبو المعالي الكلابي:

فمــن يطلــبْ لقــاءكَ أو يُــرده	فبالحرمينْ أو أقصى الثغور
ففــي أرض العــدوّ علــى طِمِــرٍّ	وفــي أرض البنِيَّــةِ فــوق كــور
وما حازَ الثغور سواك خلقٌ	من المستخلفين على الأمور

والبيت الأول يقوم مقام كتابٍ في ترجمة حياة الرشيد! لأنه صوَّر كفاحَ رجل الإسلام ديناً ودنْيا بما لا تصوّره عشرات الصفحات، وقد شاعَ وذاع لدى من يتحدثون عن الرشيد، وإذا كان قائلُه غير مشهور المكانة في عالم الشعر، فقد اشتهر به في عالم التاريخ.

(١) مجلة الهلال ـ العدد الخاص بالرشيد، ص١١٠٠، أغسطس سنة ١٩٤٠م.

لقد كان من أخطاء الرشيد مبايعته للأمين والمأمون معاً، وعَسفه في مؤاخذة البرامكة، وهي أخطاء يقع في مثلها كلّ حاكم، وأنت إذا قارنت ما اقترف بما اقترفه أبو جعفر المنصور، وجدت البون شاسعاً، وأوضحُ الفروق بين الخليفتين أن المنصور كان يُعاقب بالظنّة والرشيد كان يعاقب باليقين، والذي يعاقب بالظنّة إنسانٌ لا يهمّه إلا أن يكون الحاكم المطاع، فهو يحرصُ على إبادة كلّ وهم يلوِح، وإن كان سراباً لاحقيقة له. أما الذي يعاقب باليقين، فإنسان يعلم خَطر العقوبة، ولا يجد مناصاً من تنفيذها، بل إنه مع هذا العلم اليقيني كان يتسامح ويعفو، وموقفهُ من عبد الملك بن صالح، حين دبّر مكيدة للثورة عليه، والنشوز على خلافته يستدعي التأمل الكبير، فقد اعترف بالجرم ولدُ عبد الملك نفسه، وكاتبهُ الخاص به، وإنّ جريمة يكونُ الابن فيها شاهداً على أبيه، لهيَ جريمةٌ متحققة الوقوع، كما أن كاتم سرّه، ورجل مشورته وتدبيره قُمامةَ كانَ ثاني الشاهدين.

وقد كان لعبد الملك بديهة شاهدة، وفصاحة ناطقة، فلم يرهبِ الموقف، وأعدّ لكل سؤالٍ جوابهُ، والرشيدُ يعلم ما لديه من التمكن الحواري والجدل الخطابي في حَلبة النقاش، فاستمع إليه وهو يقولُ: «يا أمير المؤمنين! لقد بُؤْتُ إذن بالندم، وتعرضتُ لاستحلالِ النّقم، وما ذاك إلا بغي حاسد، نافَسني فيك مودةَ القرابة، وتقديم الولاية، إنّك يا أمير المؤمنين، خليفةُ رسول الله ﷺ في أمّته، وأمينُه على عترته، لكَ عليها فرضُ الطاعة، وأداءُ النصيحة، ولها عليكَ العدل في حكمها، والتثبّت في حادثها، والغفران لذنوبها».

وأحسَّ الرشيد أنّ الكلام سيمتّد في هذا المجرى دُون توقف، فالمتّهم ذلق فصيح القـول، فقالَ له آخذاً عليه طريقـه: أتَضَعُ لي من لِسانك، وترفعُ لي مِن جنانك، هذا كاتبُك قُمامة يخبر بغِلِّك وفساد نيّتك فاسمعْ كلامه، وجاءَ قُمامة فاعترفَ بما كان، فقال: إنّه عازم على الغْدر بك، والخلاف عليك، فقال عبد الملك مستنكراً: أهو كذلكَ يا قمامة؟ فقال قمامة: لقد أردتَ ختْل أمير المؤمنين.

وقد كان غيْرُ عبد الملك جديراً أن ينهار في موقفه، ولكنه قال في شجاعة: كيفَ لا يكذب عليّ مِن خَلْفي، وقد بَهتَني في وجهي، فتحلَّم الرشيد، واصطنعَ التّصبر. وقال: وهذا ولدُك عبد الرحمن يُخبرني بعتّوك وفساد نيّتك، ولو أردْتُ أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذيْن: كاتبك وولدك فما قولك؟ كان الظن بعبد الملك أنّ يقر بعد اعتراف ابنه، وفلذة كِبده. وأنْ يبتلعَ ريقَه، كي يَجد ما يمكن أن يقول، ولكنّـه قال في جراءة: هـو مأمورٌ أو عاقٌّ مجبـور؟ فإن كان مأمـوراً فمعذور، وإن كان عاقّاً ففاجرٌ كفور، أخبر الله عز وجل بعداوته، وحذّر منه بقول: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤] وهذا ردٌّ لا يشفي غلّة، ولا يدحض فرية، ولكنّ الرشيد لم يستجيبْ لداعية الشر، بل قال في هدوء: أما أمرُك فقد وضح، ولكنّي لا أفعلُ حتى أعلمَ الذي يُرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبيْنك، فقال عبد الملك: رضيتُ بالله حكماً، وبأمير المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه، وأمر الله على رضاه.

أتُرى المنصور كان يجلسُ لمحاكمةٍ كهذه بعد أن شهد الابن والكاتب الخاص؟! إنّ المحاكمة لن تقع أصلاً، ولكان الحكمَ بالقتل يصدرُ على الفور، ولكن الرشيد مع اعترافه بأن الأمر في عبد الملك قد وضح، آثرَ العفو، وقال بعد نقاشٍ سجّلتْه كتب التاريخ بإسهاب، ويضيق المقام دون سرده: أما واللهِ لولا الإبقاءُ على بني هاشم لضربت عنقك[1]، وأمر بحبسه فقط.

وقد استشهدَ بعض الدارسين على بلاغة الرشيد بكُتُبٍ ديوانيّةٍ أرسلها لعمّاله، ومجالُ الاستشهادِ بها موضعُ بحْث، إذ المعلوم أن الوزير المختّص بالرسائل هو الذي يكتب ما يَصدر عن أمير المؤمنين موقَّعاً باسمه، فمن الجائز أن تكونَ الرسائلُ من إنشاء جعفر البرمكي أو عمرو بن مسعدة، أو يوسف بن القاسم الكاتب، أو غيرهم من حملةِ الأقلام الفَصيحة! أمّا الذي يصدر عن ذاتِ نفسه فهي خطبه المرتجلة التي كان يُلقيها في المواسمِ العامة، وهي خُطَبٌ موجزة، ولكنها تدلّ على تركيز دقيق، أَوْحَى به تَفكير منظم، وإيجازُ الكلام يـدلّ على صبْر طويل في إعدادهِ. لأنّ الموجِز يضعُ كلّ كلمة موضعَها، وَينْفي كلَّ لغو يلحق بالكلام، وهو يَعلَم أن الناس سَيروُون قوله، ويتناقلون حديثه، فهوَ في حاجة إلى إقناعهم بالقول المفيد، والمنطق السديد، على أن الرشيد قد تخلَّى عن الإيجاز قليلاً في خطبة قالها بعد رجوعه من غزو

---

(١) الطبري، ج١٠؛ وابن الأثير، ج٦، بعبارات متشابهة.

الروم، إذ ارتجل القول على نحوٍ بيّن تنوّع ثقافته، ووفرةِ ذخيرته من المختار المحفوظ، وقد قالَ فيها جامعاً بين الاستشهاد بالمأثور، والمبتكر من وحي الموقف:

«عباد الله! إنكم لم تُخلَقوا عبثاً، ولن تُتركوا سدًى، فحصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، إنكم سفرٌ مجتازون، وأنتمْ عن قريب تنتقلون من دار فناءٍ إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرةِ بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهُدى بالأمانة، وإياكم والأماني، فقد غرَّتْ وأرْدَتْ، وأوْبقتْ كثيراً حتّى أكْذَبَتْهم مناياهم، فتنَاوشُوا التوبة من بعيد، وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، وقد رأَيتُم وقائعهم في القرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتُم الآباء والأبناء والأحِبّة والعشائر باختطافِ الموت إياهم من بيوتكم، ومن بيْن أظهركم، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم؛ فزالتْ عنهم الدنيا، وانقطعتْ بهم الأسباب، وأسلمتْهم أعمالهم للحساب ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]».

هذا الأثر الأدبي الذي يُنبئ عن معدن الوعظ الخطابي لَدى الرشيد، تُجاوره وصايا كثيرة، وتعْقيباتٌ دقيقة، لا تُلقى جزافاً، ولكنْ بعد طول رَوِيّة، وبُعدِ نظر، وكُتُب التربية والسلوك تتناقل وصيّةً تربويةً للرشيد، قَالَها لمعلِّمِ ولده الأمين، وأُعجب بها ابن خلدون فنقلها في مقدمته، باعتبارها أثراً بارزاً من آثار الفكر المؤتلق، وهي بأفكارها الدقيقة تغني عن كل تعليق:

قـال الـرشيـد يـوصـي الأحمـر(علـي بـن المبـارك صـاحـب الكسائي)[1]:

«يا أحمر! إنّ أمير المؤمنين قد دَفعَ إليك مُهجة نفسه، وثمرةَ قلبه، فصيَّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتَه لك واجبة، فكُن له بحيثُ وضعك أمير المؤمنين، أَقْرِئه القرآن، وعَرِّفْه الأخبار، وَرَوّه الأشعار، وعلّمه السنن، وَبصّره بمواقع الكلام، وَبدئـهِ، وامْنَعْهُ من الضحك، إلا في أوقـاتِه، وخُذهُ بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دَخلُوا عليه، وَرفْع مجالسِ القوّاد، إذا حضروا مجلسه، ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلا وأنتَ مُغتنمٌ فائدة تفيدُه إياها، من غير أن تُحْزنهُ فتميتَ ذهنه، ولا تمعنُ في مسامحته، فيسْتحلي الفراغ ويـألفُه، وقوِّمْه ما استطعتَ بالقُرب والملاينـة، وإن أَبـاهُما فبالشـدة والغلظة»

وبدراسةِ هذا النص يظهر لنا أنّ مؤدِبي أولياء العهود لم يكونُوا معلّمينَ للعلوم فحسب، بلْ تَربَوِيّن، يعلّمون قواعد السلوك الإنساني الصحيح، فيعرفونَ متى يكونُ الكلام، ومتى يُمنع الضحك، ومن له حقّ التبجيل والتعظيم، وهكذا التصقَ مفهوم التربية بمفهوم المعرفة في ذهن الرشيد.

لقد كانت شخصيةُ الرشيد شخصيةً مكتملةً ناضجةً، نجدُ فيها

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٦٣٣

سمات الحاكم، والعالم، والقائد، والناصح، والقاضي، والمربّي، مع سعة الصدر، وطول الأناة، وصِدق التجاريب، وبُعد النظر، وبذلك كله صار صاحب الصيّت المدوّي والخطر البعيد.

* * *

سـلوك الرشـيد
بين كتب التاريخ وكتب الأدب

لا يستطيع باحثٌ ما أن يَرجع في رواية الحديث النبوي إلى كُتب الأدب، لأنّ للحديث في روايته مُصْطلحاً خاصّاً صارَ عِلْماً مستقلاًّ بذاتـه، ومنه نَعرفُ أنـواعَ الحديث المختلفـة، من مرفـوع، ومتصل وموقوف، ومقطوع، ومرسل، ومُسند، وضعيف، ومنقطع، ومدلّس وشاذ، ومنكر، إلى آخر ما هُوَ مقرّر في كُتب هذا العلم الشريف، وإذا كان كثيرٌ من رجال الحديـث قد زَاوَلوا كتابـة التاريخ فقد جَرَوْا في تمحيص كثيـر من الروايات التاريخيّـة على سننهم المعهود في علم الحديث.

وأذكُر أنّ باحثاً كبيراً هو الأستاذ الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة اللبنانية قد ألّف كتاباً قيّماً سمّاه (مصطلح التاريخ) ذهب فيه إلى أنْ يلتزم المؤرخون طريقة المحدثين في التّثبّت والتّحري، وأنْ يستفيدوا من قواعدهم الّتى وضَعُوها في الجرح والتعديل، وهو مذهبٌ يشهد لعلماء الحديث بالضبط والتحرز، كما يدل على أنّ نفراً من كبار المؤرخين قد بذلُوا جهدهم في التحرّي والتدقيق، ولا أذكُر ابنَ خلدون

في هذا المجال، فهو أشهرُ من أن ندلّ على منحاه الفكري الرائع في تأصيل قواعد التاريخ، وإنما أذكر ما قام به أمثالُ ابن الأثير والقفطي والمقريزي وغيرهم من موازنة وترجيح.

أسوقُ هذه المقدمة لأقرّر أنّ كتب التاريخ هي وحدَها المرجع المعتمد في تراجم الأعلام من رجال هذه الأمّة، ولا تُشاركها كتبُ الأدب في هذا المجال، لأنّ روايات (العقد الفريد)، و(محاضرات الأدباء)، و(المستظرف) تجمع الصحيح والمختلق، فإذا ذكرنا كتاب (الأغاني) فقد ضربنا المثل الأول في حشد الموضوعات دُون تمحيص، وجمعِ الروايات دُون تدقيق، لذلك أجمع الباحثون على أن هذا الكتاب ليسَ مصدراً من مصادر التاريخ، وإنما هُو معرضٌ لأخبار الشعراء صحيحها وموضوعها، ومصدرٌ لمادة أدبيّة؛ شعراً كانت أو نثراً، أما ما يلّم به من وقائع الخلفاء وأخبار الساسّة والقوّاد والأمراء فلابد أن يُنظر إليه بعين التمحيص.

يقول الدكتور أحمد أمين في كتابه عن هارون الرشيد[1] تحت عنوان (صورتان):

هناك فرقٌ شديد بين صُورة الرشيد التي يمثّلها المؤرخون أمثال الطبري وابن خلدون وأبي يوسف في (الخراج)، وصورته الّتي يصورها (ألف ليلة وليلة) و(الأغاني)، و(إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني

(١) هارون الرشيد للدكتور أحمد أمين، ص١٨٣.

العباس)، فصورةُ المؤرخين تُصوّر الرشيد رجلَ جدٍّ فيه شيء من اللهو، والكتب الأخيرة تصوّره رجلَ لهْوٍ فيه شيءٌ من الجد، وربّما كانت صورةُ المؤرخين أعدل، لأنّ الآخرين أكثر حرية وتساهلاً في الرواية، وأَمْيَلُ إلى التّزيّد من ذكر عطاءاتِ الرشيد والبرامكة وغيرهم، لعلّهم يستفيدون من أمراء عَصرهم بعض ما أعطى مَن يحكون عنه، فإنا لَوْ حسبنا حساب المال الذي أَعطاهُ الرشيد والبرامكة على قولهم لما كَفَتِ الدنيا لتحقيق ما قالوا، فكيفَ ومالُهم محدود.

هذا ما قاله الأستاذ أحمد أمين في كتابه (هارون الرشيد) وقد صدر في سنة ١٩٥١م، بعد صدور (ضُحى الإسلام) بقرابة عشرين عاماً، ولهذا التحديد الزمني مدلوله، لأنّ الكاتب الكبير قد اعتمد فيما قاله عن الرشيد في الجزء الأول من ضحى الإسلام على مرويّات الأغاني، فكان ذلك موضع نقدٍ، وهاهو ذا يضعُ الأمر في نصابه بما نقلناه عن كتابه الأخير.

وسبيلُنا الآن أن نعرضَ أقوالَ الثقّات من المؤرخين في هذا الخليفة المظلوم، وأن نُبيِّن قيمة كتاب (الأغاني) التاريخية لنعصفَ بكلّ ما جاء به أبو الفرج من أراجيف.

لم يجمع كلّ المؤرخين ـ عدوّهم وصديقهم ـ على أمرٍ دُون أدنى ريْب إلا إذا كان صحيحاً، وقد أجمعوا على أن الرشيد كان يحج سنةً ويغزو سنة، وَذكروا لَهُ ثلاثَ عشرةَ حجةً إلى البيت الحرام، والحجُّ في عهد الرشيد ذو عناء وجهد، فقد كانت الرحلة تبتدئ من أول شوال وتنتهي في نصف المحرم، وقد أرادَ الرشيد ذات عام أنْ يقضي الاعتكاف

الرّمضاني في المسجد النبوي، فَسافر في منتصف شعبان، وظلَّ مُقيما بأرض الحرمين؛ مكةَ والمدينة حتى انتهت شعائر الحج، ولَوْلا أنّ إيمانه قويٌ بهذه الفريضةِ ما وَاظَبَ على أدائها، ولم يكنْ أحدٌ ما يلومهُ لو اكتفى بحجة أو حجتين، ولكنه امتد بالفريضة المباركة إلى ثلاث عشرة حجة.

ولم يكن الرشيد في خلالها يفرغ للعبادة والتسبيح تاركاً الأمر لكبار حاشيته من مرافقيه، بل كانَ يفكّر فيما حوله، ويتسمّع إلى آراء الناس حين يطوف بالبيت متنكراً، ويسألُ عمّن زار الحرم من كبار الفقهاء والصالحين في العالم الإسلامي ممّن بَعدتْ ديارهم عن بغداد، ليأنسَ بآرائهم، ويطيل الحديث معهم، وفيهم منْ كان يتأبّى على حضور مجلسه، فما تزال رُسُله ساعيةً مُلحفة حتى يتسنى اللقاء، ولو كانَ الخليفةُ رجل جبروتٍ وسلطة لأمر بإحضارِ مَن شاء متى شاء، كما كانَ يفعل جدّه المنصور، وكأنّي بـه وقد أيقن أنّ حَرمَ الله آمنٌ لكل من نَزلَ بساحته، فليسَ له أن يروّع حاجاً قصد البيت ملّبياً دعوة ربّه، إذ الموقفُ كله لله، لا لأحد وإن عزَّ واستطال، وكانَ للرشيد أسلوبهُ العلمي الدقيق في مناقشةِ زائريه، وتقديره الصحيح للأشخاص، حيثُ يكلّم كلّ زائر بما يُناسب شخصيّته، مفترضاً أنه قد يسمع ما لا يرضيه، وموطّداً العزم على أن يقبل كلَّ ما يقال، وإن خرجَ به قائلُه عن سواء السبيل.

يذكرونَ أسماءَ لِعدّةِ أناس وعظُوا الرشيد استجابةً لطلبه، وفيهمْ من استمع إليهم فأدركَ أنهم غير مُخْلِصي الطوية، ولكنّه أحسن استقبالهم،

وأثابَهم، ففَرحوا بما أُعطوا، وحينَ مضوا لسبيلهم أَبْدى لوزيره رأيَه في أقوالهم، فسألَه ولماذا أجزَلْت لهم العطاء؟ فقالَ: هذا شيء وذاك شيء، وهذا مما يُنبئ عن نفسٍ رحيمة، تحملُ رصيداً من الحياء، لو كانَ أبو جعفر المنصور مثلاً هوَ الذي أحسَّ إحساسَ الرشيد نحوَ مدّعي العظة، لأَرْهقَه وأنَّبه، وانصبّ عليه بالتقريع الفاجع، ولكنّ حساسية هارون ـ وهو أمير المؤمنين ـ تجعلُه يحسُّ بإحساسِ إنسانٍ سعى إلى مجلسه متوسّماً فيه الأمل، ولعلّه تصوّرَ بروحه الشاعرة مَنْ وراءه من أبْناء وزوْجة ورَحم، وأنهم يحلمونَ بعودةٍ ظافرة، وهناءةٍ مُرتقبة، فعزّ عليه أن تكْتئِبَ وجُوهٌ كانت تنتظر البهجة، وأنْ تترَقرق دموعٌ كانت وجُوهُ أصحابها تترقّب الابتسام، فآثَر أن يَمْنحَ راضيَ النفس هانئ البال.

لقد استمعَ الرشيد إلى أناسٍ كثيرين في مجال الوعظ نذكُر منهم ابن السَّمّاك، والفضَيْل بن عياض، أمّا ابنُ السماك فقد سعَى إلى مجلس أمير المؤمنين حين استدعاه، وقد قالَ له في بعض ما قال: «يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعْل أحداً فوقك، فاجتهْد ألا يكون فيهم أحدٌ أطوعَ إلى الله منك، ولئن كنتُ أقصرتُ في الكلام لقد أبلغتُ في الموعظة، فقال له الرشيد: زِدنْي يا رجل، فقال ابن السماك: «يا أميرَ المؤمنين، اتّقِ الله وحده، واعلم أنّك واقفٌ غداً بين يديْ ربك، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثةَ لهما؛ جَنة أو نار...»، وكانَ في قلب الرشيد رقّةٌ، فنزل الكلام على جنانه نزولاً موجعاً، جَعل عيْنه تخضلّ بالدموع، وشاهد أحد الجلساءَ تأثُّرَ الرشيد بما سمع، فأرادَ أن يتزلّف ببعض ما ظنّه يُرضي أمير المؤمنين،

فقالَ لابن السماك: سبحانَ الله، وهل يتخالجُ أحداً شكٌّ في أنّ أمير المؤمنين مصروفٌ إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده، فَرمَقهُ الرشيد بنظرةٍ غاضبة كانتْ أبلغ من كل مقال.

وفي مجلسٍ آخر، طلبَ الرشيد ماءً فشرب، وحمد الله، ثم قال لابن السمَّاك: عِظْني فقال: يا أمير المؤمنين، بِكم كنت تشتري هذه الشربة لو مُنِعتها؟!، فقال الرشيد: بنصفِ ملكي؛ فقال ابن السمَّاك اشربْ هنيئاً، ولكن أرأيتَ لَوْ تعذّر خروجها من بدنك، فبِكَمْ كنت تشتري ذلك؟! فقال الرشيد: بنصف ملكي الآخر، فقالَ ابن السماك: إنّ مُلكاً قيمته جميعَه شربةُ ماء لخليقٌ ألا يتنافس عليه أحد[1].

أما الفضيلُ بن عياض فمجلسهُ مع الرشيد طويلٌ ممتد، وقد طلبه الرشيد في بعضِ رحلاته إلى الحج فلم يقبل، فَعَزم الرشيد على أن يزوره في منزله، وصحب وزيره الفضل بن الربيع في هذه الزورة، فحينَ قدما إلى المنزل سمعاه يتلو آيةً من القرآن يردّدُها، فقرعا الباب، فخرج الفَضيل يسألُ عن الطارق، فقالَ الفضل: أجب أمير المؤمنين، هاهو ذا؟ فقالَ الفضيل: وما لي ولأمير المؤمنين؟ فردّ الفضل: أليسَ عليك طاعته؟ فقال: نعمْ، ونَزَلَ واستقبل الزائريْنِ.

---

(١) أخبار ابن السمّاك مع الرشيد مذكورة في (البداية والنهاية) لابن كثير؛ و(تاريخ الأمم والملوك) للطبري؛ وغيرهما. وقد جعل منها بعض المُحْدَثين حلقاتٍ إذاعيةً أضاف إليها غيرها من مجالس الرشيد وخاصة حواره مع الفضيل بن عياض.

قال الفضيلُ في نفسه: لأكلّمنّ الخليفة بكلام لا يصدر عن غيري، ومَضى يُحدّثه عن عمر بن عبد العزيز، وكيفَ أحْيا سنّة الخلافة الراشدة، واختارَ لمشورته أُولي الورع من العلماء كسالم بن عبدالله، ورجاء بن حَيْوَة، ثم وجّه بصره إلى الرشيد قائلاً: يا أمير المؤمنين إنّ العبّاس عمّ النبي ﷺ جاء إليه، فقال له: يا رسول الله! أَمِّرْني على إمارة، فقالَ النبي ﷺ: «إن الإمارة حسرةٌ وندامة يومَ القيامة، فإن استطعتَ ألا تكون أميراً فافْعل» فبكى هارون، وقال: زِدني.

فقال الفضيل: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإذا أردتَ أن تقي هذا الوجه من النار، فإيّاك أن تصبح وأن تمسي وفي قلبك غشٌّ على أحد من رعيّتك، فإنّ النبي ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشّاً لم يُرحْ رائحة الجنة»، فبكى هارون. . ومضتْ فترة فقال الرشيد لصاحبه: أعَلَيْك ديْن، وهذا سؤاله لكل من يلجُ بابهُ، فقال الفضيل: دينٌ لربّي لم يحاسبني عليه، والويلُ لي إن سألني، فقال الرشيد: إنّما أعني دين العباد، فقال الفضيل: إن رَبّي عز وجل لم يأمُرني بهذا، إنما أمرَني أن أصدق وعده، وأطيع أمره إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ـ٥٨]، فقال الرشيد: هذه ألفُ دينار، خذها فأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على ربِّك، فقال الفضيل: سبحان الله. أنا أدلّك على طريق النجاة، وأنتَ تكافئني بمثل هذا، سلّمك الله ووفّقك، فرأى الرشيد أن يَبرحَ متعجباً، ثم قال

لصاحبه: إذا دَلَلْتَني على رجل، فدلّني على مِثل هذا، هذا سيد المسلمين[1]!.

ولا شك أن حديثاً صامتاً دار بيْن الرشيد ونفسه حول هذا الزاهد الفقير الّذي لا يملك قُوت يومه، وترفّعه أن يأخذ مالاً، هُو من حقه، لأنّ الرشيد حينَ يُعطى إنما يُعطى من مال المسلمين، والفُضيْل أحدُهم، فهو صاحبُ حقّ وحاجةٍ. ولكنه استعصَم، ولعله تذكر موقفَ جدّه أبي جعفر المنصور من صديقه عمرو بن عبيد حين عَرض عليه بعضَ ما يُعينهُ على العيش، فأبى وترك مجلسه فأنشد المنصور:

كلكم طالبُ صيد. . كلكم يمشي رويد. . غير عمرو بن عبيد

وما كان المنصور شاعراً، ولكنّ القول جَرى على لسانه تلقائيّاً تحت تأثيرِ عاطفة جاشت فألهمت، فنطقَ صاحبها بما ينفّس عن صدره، وقولُ الرشيد لصاحبه: إذا دَلَلْتني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين، يصوّر أكبر إحساسٍ بالروعة نحو الفضيل، فهو سيد المسلمين، ومنهم الرشيد!.

لقد كان الرشيد يحب أن يستمعَ إلى الموعظة من أصحابها، ومن غير أصحابها، ولا يأنفُ أن يسمع عن مجنون يُلقي بالعظات عبر الطريق فيتشوق إلى استماعه، فقد ذكروا أنّ الرشيد في بعض رحلاته للحج مرَّ

---

(١) قصص االعرب: ١/ ٢٩٠ وما بعدها ـ باختصار ـ.

بالكوفة فأبصرَ الصبيان يَعْدُون خلف رجُلٍ، ومعه قَصَبتُه يرفعها بيده، فقالَ: مَن هذا؟ فقيل له: هذا بهلول المجنون، فقالَ: كنتُ أشتهي أن أراه، فادعُوه من غيْرِ ترْويع، فذهبوا إليه، وقالوا في رقّة: أجبْ أمير المؤمنين، فلم يُجب، وظل واقفاً، ورأى الرشيد أنّه قد امتنع، فسارَ إليه بنفسه، وبدأه بالسلام، فردّ في أدب، فقالَ الرشيد: دعوتُك لاشتياقي إليك، ففُوجئ بالمجنون يقول: ولكني لم أشْتَقْ إليك، فقال الرشيد: عِظني يا بهلول، فقال: وبمَ أعظك؟ هذه قصورهم، وهذه قبورهم، فقال الرشيد: زدني، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن رزقه الله مالاً وجمالاً فَعفّ في جماله، وواسَى في ماله كُتب في ديوان الأبرار، فظّن الرشيد أنهُ يُريد مالاً، فقال له: أمرنا لك أن نقضي دينك، فقالَ: لا، يا أمير المؤمنين: لا يُقْضَى دينٌ بدين، أرددِ الحق على أهله، واقْضِ دينَ نفسك من نفسك. قال: فإنّا أمرنا أن يجرى عليك، فقال يا أمير المؤمنين أترى الله يُعطيكَ وينساني، ثم ولى هارباً[1].

وحديث البهلول مع الرشيد يدلّ على عقل لا على جنون، وبعضُ الذين يتحدّثون عن أمثاله من المؤرخين يقولونَ: إنهم يتمتّعون بعقل طبيعي، ولكنّهم يَصْطنعون الجنون، خوفاً من العقاب، حين يعلنون الرؤساءَ بما لا يُرضيهم من النقد الجارح، ويُخيّلُ إليّ أن جُنون هؤلاء مُتَقطّع لا دائم، ففي بعض الأوقات يكثرُ انفعالُهم، ويزيد عن حدّه،

---

(١) قصص العرب: ٤/ ٤٢٤، نقلاً عن كتاب (عقلاء المجانين للنيسابوري).

فيأتونَ بما يُشبه الجنون، وفي بعضها الآخر تهدأُ نفوسهم ولا ينفعلون، فيحكـون كلام العقلاء، بل يـزيدونَ عن الكثير من العقلاء أحيانـاً، فلِبعضهم أبياتٌ شعرية، ونقداتٌ أدبية لا تَصدر إلا عن موهوب.

وهارون كإنسانٍ لهُ شعورُه لابدّ أن يستاء من الذين يُهاجمونه بالباطل أو الحق، ولكنّه يكظم غيظه، ويجادلُ بالتي هي أحسن، رَكب ذات يوم إلى الصيد، فوجدَ من يعترضه ويقول في غلظةٍ: اتّق الله، يقولها بلهجة استعْلاء، فَحَلُمَ عليه، وأمر به أن يُطعم ممّا أُعِد لطعامه الخاص، حتّى إذا هدأ الرجل قال له الرشيد: أخبِرْني أأنَا شرٌّ من فرعون؟ فقالَ الرجل: بل فرعون، لأنه قال: أنا ربكم الأعلى، وما بعد هذا كفر؟ قالَ الرشيد: أخبْرني أأنتَ خيرٌ أم موسى بن عمران؟! فقال الناسك: موسى خير لأنّه رسول الله وكليمه، وهنا قال له الرشيد: إنّ موسى حين أرسله الله إلى فرعون مع عتوه وجبروته قال له ولهارون أخيه: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طـٰه: ٤٤] وأنت تحدثني بأقْسى الألفاظ وأوجعها، ولستُ شرّاً من فرعون ولستَ بأفضل من موسى! وقد تَعجّبَ الحاضِرون من هدوء الرشيد، وحُسن تأتّيه في النصيحة، وزادعجبهم حينَ أمر للرجل بِصِلةٍ جزيلة، وكأنّه استحيا أن يأخذها بعد ما فَرط منه، ولكنّ وزير الرشيد أخبره أن صلة أمير المؤمنين لا تردّ، فأخذ الصلة وفرّقها عقب خروجه، وصنيعُه هذا ينبئ أنه صادق النيّة، ولكن حماسته الدينية تدعوه إلى التسرع، والتؤدة أَوْلى.

هذا بعضُ الحديـث عن حوار الرشـيد مع النسّـاك، أما صلتُـه

بالعلماء فأقوى وأثبت، وقد كانَ أبو يوسف القاضي جليسَ محضره، وصاحبَ حواره، ومن عجبٍ أن يسكت الكاتبون عن تسجيل ما دَارَ بين الخليفة والقاضي من سَمر علمي، فلا تمتلئ به الصحف، ثم يعكفون على تسجيل طرائف الشعراء والمغنيين، بل لا يكتفون بما كان، إذ يزيدون ويختلقون! فهل نَسي هؤلاء أنّ من القرّاء من يشتاق إلى حديث الجدّ، وأَنّ ثمار العقول أولى بالصون والإثبات؟!.

لقد تربّى الرشيد صغيراً على يد الكسائي إمام النحو، وأحدِ شيوخ القراءات السبع، وجالَسَ محمد بن الحسن، ولولا رغبةٌ لديه في الاعْتزال والاحتجاز لحلَّ منه محلّ أبي يوسف، فكلاهما عالم عَلَم، وكانَ أبو معاوية الضرير عالمَ بغداد يُجالسه في أوقات كثيرة، ويأكلُ معه، وقد صَبَّ على يديْه الماء، وهو لا يدري، فكان ذلكَ من أقوى مظاهر التّواضع للعلم والعلماء.

ويذكُر ابن كثير أنّ الرشيد كان إذا خطب روى في الخطبة أحاديثَ رسول الله بإسنادها، مما يدلّ على تمكُّنه من الرواية على وجهها الصحيح، ولولا اشتغاله بالغزْو والحج لعَقد مجالس الثقافة كابْنهِ المأمون، مع أنّ الفارق بينهما هو أنّ مجالس الرشيد تتّجه وجهة الثقافة العربية، أمّا المأمون فقد دَرسَ مسائل الكلام، وألمّ بشذور من الفلسفة، وكلٌّ ميّسرٌ لما هيِّئ له، وقد كانَ الرشيد يكرهُ الخوضَ في مسائل علم الكلام، وحسناً فعل، لأنّ قضايا هذا العلم لا تَرْقَى أذهانُ العامة إلى استيعابها، وحديثُ الخليفة في مجلسه مما يُذَاع ويُنشر، فالتّجنبُ أولى وأحزم، ولكنّه يسمح

للمتخصّصين من العلماء أن يَدرسوا علم الكلام، فهم حماة الدين، ومن رسالتهم دفع الاعتراض، وتفنيد الأباطيل.

وتُروى بهذه المناسبة قصّةٌ تاريخية.. فقد شغف أحد ملوك السند بالجدل والمناظرة، وطَلبَ من الرشيد أن يُرسل إليه مَن يناظره في بعضِ مسائل العقيدة. فهيّأ من يفد إليه، ليرَى مجلساً حاشداً يتصدرهُ رئيس العلماء هناك، وبه لجاجةٌ وغلّو، فسأل الوافد قائلاً أيها القاضي: هل اللهُ عندك قادرٌ على كل شيء؟ فقال القاضي: نعمْ ولاشك في ذلك، فقال السندي: وهل يقدر على أن يخلق مثله؟ فامتنعَ القاضي عن الإجابة، وقال: هذه من مسائل علم الكلام، وأصحابُنا ينكرونه، ورجعَ إلى بغداد ليروي للرشيد ما كان، فغضب غضباً شديداً، وصاح بمن حوله: أليس لهذا الدين من يُدافع عنه، فقالُوا: بلى، وأشارُوا أن يكون ثُمامةُ بن الأشرس رجلَ الموقف، فهيّأه الرشيد للسفر، ودار النقاش في المجلس هناك، فقال ثمامة للقاضي السّندي ردّاً على سؤاله: هذا محالٌ، لأن الخالق قديم، فإذا خَلقَ مثله كان المخلوق حادِثاً فلا يكونُ مثله! وأفاض ثمامةُ في ما يشبه هذه القضايا من مسائل الاعتزال، وهو رأس من رؤوسه، فأفحم السندي، وانفضَّ المجلس[1].

أقول: إن الرشيد كان يكره الجدل في مسائل التوحيد، إذْ لا ضرورة له في مثل مجلسه، فلما علم بمن يُريد النقاش متطاولاً

---

(١) (المنية والأمل) للبغدادي نقلا عن كتاب الدكتور شعوط، ص٣٦٠.

متحدّياً، ضرب الحديد بالحديد.

وإذا كان هذا موقفهُ من الزهاء والواعظين فما موقفه من إمَامَي العصر في عهده مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي؟!.

أمّا مالك بن أنس، فقد عاصَر المنصور، وكانَ له معه موقفٌ مشتهر ذائع، انتهى بضربه المبرح لفتوَى قرّرها عن اعتقاد، وشاءَ الله أن يكونَ هذا الموقف، موضعَ إجلالٍ لمالك، إذ زادَ في نفوس العامة والخاصة إجلالاً، وَحين ماتَ المنصور تولّى المهدي الخلافة، وكان سمحاً كريماً، يميلُ إلى نسيان الماضي بمحرجاته، وقد زار المدينة سنة سبع وستين بعد المئة حاجاً، وهو يعلم شدة أبيه على أهل المدينة بعد التفافهم حول الثائر العلوي، فرأى الإمام مالك من واجبه أنْ يُقابل أمير المؤمنين، ليحضّه على البرّ بمدينة رسول الله ﷺ، فقال للمهدي[1]:

إن رسول الله ﷺ، قالَ عن المدنية: «أُمِرْتُ بقريةٍ تأكلُ القرى، وتنفي الناس كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ»، وأهلُها في حاجة إلى أن يُعانوا على الصبر عليها، وعلَى جوار رسول الله ﷺ، فقال المهدي: نعمْ يا أبا عبدالله، حتّى لا أجد إلا مثل هذا، وقد صدقْتَ فيهم وبررتَ وحضضتَ على الرشد، فأنتَ أهلٌ أن يُطاع أمرُك، ويُسمَع قولُك، ثم أمر بخمسة أبيات من المال، والبيت حينئذٍ خمسمئة ألف، وطلب من مالك أن يختار من تلاميذه رجالاً يثق بهم، ويعتمد عليهم في تقسيمها على

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٨١.

أهل المدينة، على أن يؤثروا أهل بيت رسول الله ﷺ، وأهل بيت أبي بكر وعمر وعثمان، ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار، ثمّ الذين اتبعوهم بإحسان، ففعل مالك ما طلب المهدي، وأغنى أهل المدينة عامهم ذلك، وظلت المدينة موضع رعاية المهدي بمشورة مالك.

ثم ولي الرشيد، فكان من همه أن يوثّق صلته بأهل المدينة، وحين نزل بها بعث إلى مالك فأتاه، فسمع منه بعض فصول (الموطأ) ومعه مَنْ صَحِبه من فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، ويذكرون حواراً دار بين مالك وأبي يوسف في مسألة فقهيّة أطالَ الفقهاء في شرحها، وهي مسألةٌ فرعية تختلف فيها الأنظار، ولكلٍّ دليله الراجح، وانتهى المجلس على خير، بعد أن أمر هارون بمالٍ وفير لأهل المدينة استجابةً لمطلب مالك كعهده مع أبيه.

وقد شاء الرشيد أن يعرض على مالك رأيه في أن ينزعَ من منبر المسجد النبوي ما زادهُ معاوية في درجاته، فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فالمنبرُ من عودٍ ضعيف تفككَتْ أجزاؤه، ونحنُ نبقيه تبرُّكاً بمن جلس عليه لأَولِ عهده، ولا آمنْ إذا أحدثْتَ فيه شيئاً أن يأتيَ مَن بَعدَكَ فيقول: ينبغي لمنبر رسول الله أن يكونَ فيه كذا وكذا، بل ربّما اقترح أن يُنقل من المدينة ليكون منبراً للخليفة في العاصمة، فاستجابَ له الرشيد، ولم يهمُمْ بشيء، وظلّ أمر مالك في المدينة نافذاً على الولاة استجابة لرغبة الرشيد، وله الحكم المطاع.

هذا، وقد تسرّع الأستاذ الكبير محمد أحمد عرفة ـ عضو جماعة

كبار العلماء بالأزهر ـ حين كتب في مقالٍ عن الرشيد بالعدد الخاص من مجلة (الهلال) تحت عنوان: (بين التشريع والسياسة في عهد الرشيد)، فذكر ما نصّه[1]:

«وفي زمن هارون الرشيد سُعي بمالك بن أنس ـ عالم المدينة وإمامها ـ إلى الأمير العباسي جعفر بن سليمان والي المدنية من قبل الرشيد، وقيل له: إنه لا يرى أيْمان بيعتكم شيئاً فضربه بالسياط، ومدّه بالضرب حتى انخلع كتفاه، والحادثة مشتهرة، ولكنها كانت في عهد أبي جعفر المنصور، ولم تقعْ على عهد الرشيد، وما كانَ لي أن أعرض لها هنا، لوضوح الخطأ بها، ولكن نفراً ممن كتبوا الرسائل الجامعية عن التشريع الإسلامي في عهد الرشيد، رجعوا إلى مقال الأستاذ عرفة واستندوا إليه؛ فصارَ من الواجب أن أقرّر هنا تسرّع الكاتب الكبير، وقد بحثت عن مصدر واحد يثبت أدْنى أذىً علق بالإمام مالك في عهد الرشيد، فلم أجد غير ما يدل على التجلّة والتوقير.

أما موقفُ الرشيد من الإمام الشافعي حين طلب حضوره من اليمن سريعاً لمحاكمته، فليس فيه ما يدل على عُدوان الرشيد، إذ إنّ حاكم اليمن حمَّادَ البربري قد تضايقَ من الشافعي لمعارضته إياه في بعضِ ما يقوم به من المظالم، فكتبَ للرشيد يقول: «إن العلوية تحركوا باليمن، وإنّ هنا رجلاً من ولد شافع بن السائب من بني المطلب، لا أمرَ

---

(١) مجلة الهلال، أغسطس، سنة ١٩٤٠م.

لي معه ولا نهى» وكانَ من الطبيعي أن يكتب الرشيد لعامله بالقبض على رؤوس الثورة، ومن بينهم محمد بن إدريس الشافعي، وقد سارَ القوم إلى بغداد، وجاءَ دور الشافعي في ساحةِ الاتهام، فقالَ للرشيد: ما رأيك يا أمير المؤمنين في رجليْن أحدُهما يَراني أخاه، والثاني يراني عبده، أيّهما أحبُّ إليّ، قال الرشيد: الذي يراك أخاه، فقال الشافعي: أنتَ هو يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهو ولد علي، ونحن إخوانكم من بني المطَّلب، فأنتم تروننا إخوة، وهم يروننا عبيداً[1]، فتأمل الرشيد قول الشافعي واستوى جالساً وعفا عنه.

وأنا في نفسي شيء من هذه المحاورة وقد ترددت في كتب التاريخ والمناقب، وأحسب أن الشافعي دقيق في لفظه، ولعله قال: «ما رأيك فيمن يراني أخاه ومن لا يراني كذلك» لأن أبناء علي لا يرون أبناء المطلب عبيداً، بل يرونهم لا يستحقون الخلافة فحسب!

وقد توسع بعض المتعصبين فزعموا أن أبا يوسف أشارَ على الرشيد بِقتل الشافعي، وأن محمد بن الحسن وافقه على ذلك، لأنه خالف المذهب الحنفي في كثيرٍ من مسائله، وهذا افتراءٌ كاذب، لأنّ أبا يوسف لم يرَ الشافعي، وماتَ قبل وصوله إلى بغداد بعامين،

---

(١) كان بعض غلاة الشيعة تسرع فقال: إن قريشاً عبيد الطالبيين، وهي قولة جازت على الدهماء، وأنكرها أئمة العلوية، فلزم التنويه، والشافعي أول من يعرف الزائف من الصحيح..

ومحمد بن الحسن، قد ناظرهُ في المسجد الجامع، وأكرم مثواه ضيفاً، وأهداه بعض ماله، أفيكون من أخلاقه أن يصادقه جهراً ويحرض الرشيد عليه سرّاً؟!! وهو يعرف مكانه من الفقه، وأخوّته في طلب العلم!! إن الذي كذب على أبي يوسف، لابد أن يكون قد كذب على محمد بن الحسن، وكلاهما بريء بريء.

رأينا كيف كان الرشيد سريع الاستجابة إلى تنفيذ اقتراحات العلماء والوعّاظ، فآراؤهم تنزل لديه بالمحل الأول، وقد قابل عبدالله ابن المبارك وأصاخ إلى رأيه، واجتمع بالفضيل بن عياض بوساطته، إذ احتال ابن المبارك حتّى جمع بينهما في مجلس آخر غير المجلس الذي أشرت إليه، وإنّ خليفةً يبذل جهده للقاء زاهدٍ ورع لمما تُحسَبُ له في شدة اهتمامه بأولي الفضل من الناس، وقد قالَ له الفُضيل ـ فيما روى ابن المبارك ـ: يا أمير المؤمنين؛ إني أخشى أن يكون العلم قد ضاعَ عندكم كما ضاع عندنا[1]، فقال الرشيد: هو ما قلت. وظلت هذه الجملة مصدر تفكير شاغل له، حتى انتهت أيام الحج، ووفد إلى العراق، فكان أول ما بدأ به، أن كتب إلى عماله بالأمصار، يأمرُ بأنّ من التزمَ الأذان فلَهُ ألفٌ من العطاء، ومَن جمع القرآن وأقبل على العلم، وعمرَ مجالس الذِّكر ومقاعد الأدب فله ألفان من العطاء، ومن جمع القرآن ضامّاً له التفقه في الحديث والتشريع فله أربعة آلاف، وليكن ذلك

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٨٨.

بامتحان حقيقي يقومُ به العارفون من أهل الدراية والعلم، قال ابن المبارك: فما رأيتُ عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخير، ولا حافظاً للحرمات، في أيامٍ بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد، إذ كانَ الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، وكانَ الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث، ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين، وهو ابن إحدى عشرة سنة!.

لا أذكر ذلك للتدليل على ازدهار الحركة العلمية الخاصة بعلوم الدين فحسب، إذ لذلك موضعه المبسوط في باب آخر، ولكن أذكره لنَعْرف أثر الفقهاء والعلماء في نفس الرشيد، ولنردّ على الذين جعلوه متصل الساعات برجال اللهو والغناء، وإذا كانت كتب الأدب ومِن أشهرها في ذلك كتاب (الأغاني) هي التي ألْصقت بالرشيد هذه الأراجيف، فلابدَّ من كلمة منصفة تضع كتابَ الأغاني موضعه الصحيح، إذ لا يزالُ بعض الباحثين يجعله مرجعَه الأول في كل ما يصم به عهد الرشيد من تحلّل، أما كتابُ (ألف ليلة) فلا يحتاج إلى نقض، لأنه عند الجميع كتاب أساطير.

لقد تحدثتُ عن كتاب الأغاني ومنزلته التاريخية في مقال مبسوط نشرته بالجزء الثاني من كتابي (قضايا إسلامية: مناقشات وردود) وسأحاول أن أنقل عنه ما يحدّد قيمة هذا الكتاب العلمية ليعرف القارئ كيف اختلَق أبو الفرج الأساطير تارةً، وكيف نشط لروايتها تارة أخرى من المختلقين ـ وهم كثير ـ.

وسيجد القارئ ـ في كتابنا هذا ـ فصلاً خاصاً عن طبيعة العصر العباسي، وما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أنّه كان عصر تحلل ومجون، راجعاً في كل ما أبداه إلى كتاب (الأغاني)، سيجد القارئ هذا الفصْل، وليسَ فيه غُنية عن أن أفصّل حديث (الأغاني) في هذا الموضوع، لأنّ ما فعله الدكتور طه من الارتكاز على الأغاني وحده قد أوجدَ تلاميذَ آخرين يكتبون عن التاريخ الإسلامي في عصريْه الأموي والعباسي وكلٌّ مرجعهم ما ذكره أبو الفرج وما نقله عنه خالفوه.

وقد وقَعَ في يدي كما قلت في كتابي ـ (قضايا إسلامية) ـ[1] كتابٌ تاريخي لأحد أساتذة الجامعة يتحدث عن الحقبة الأولى من العصر العباسي، ويفصّل أنباء أبي جعفر المنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ـ وإذن فليس الرشيد وحده بل هم خلفاء دولته ـ يُفصّل تاريخ هؤلاء، ومرجعُه الأول في بحثه هو كتاب الأغاني، وقد خلص إلى نتائج مخطئة، تابع فيها نفراً من المستشرقين ممن جعلوا كتاب الأغاني مصدرهم الأول، وإذا عرفنا أن كتاب الأستاذ الجامعي مقرّر على مئات الطلاب في العام الواحد، ويليهم مئاتٌ شتى في أعوام قابلة، وأنهم يعكفون على دراستِه ليحفظوا ما جاء به. فإن المعلومات التاريخية التي ألموا بها لم تكنْ من الصواب بحيثُ تهديهم إلى الحقائق، بل إن أثر هذا الكتاب سيتحول إلى مِعول هادم يعصِف بكرامة كثير من

---

(١) قضايا إسلامية: ٢/ ١٩٠، للدكتور محمد رجب البيومي.

الأبطال، حين تكون أخبار أبي الفرج اللاهية هي مقومات حياتهم، تلكَ التي لو ثَبتتْ صحتها لما كان لرجالها هذه المكانة التي يتبوَّءونها في سجل التاريخ! وهم بعدُ أعلامُ العصر وحماة الإسلام.

ثم قلت[1]: لسنا نبرّئ خلفاء بني العباس من مواضع المؤاخذة، فهم بَشرٌ يخطئون ويصيبون، ولكن ما تُردّده كتب الأدب من أخبار الرُّواة عن خلوص حياتهم للهو والعبث، لا يستقيم في منطق الواقع، إذ لو كان هؤلاء كما صوّرَتْهم أخبار أبي الفرج ما كانوا موضع الثقة لدى معاصريهم، ولوُجِد مِن معارضيهم من يستطيعون تأليب الرأي العام عليهم إذ خَالفوا أوامر الله، وأغرَقُوا في المحرمات إغراقاً لا تقيم معه دقّة الحكم في سيرها الصحيح، ولهم خصُومُهم الذين يتحيّنون الفُرص ليثبوا على مراكزهم غاصبين، فكيف استطاع هؤلاء أن يُمثّلوا أدوارهم على مسارح الحياة، دون أن يتعرضوا الزلزال الثورة باسم الدين، وإن كَانُوا قد خرجوا عن تعاليم الإسلام، وهم بعدُ أمراء المؤمنين.

ودراسةُ كتاب الأغاني لا تكتمل للباحث دون أن يعرف حياةَ مؤلفه ومنهجه في الحياة، ومعدن ثقافته التي اهتم بها بين معاصريه، وكلّ الذين تحدثوا عن حياته أجمعوا على تبذّله، وميْله للمجون ومعاشرة الغلمان، والولوع بمجالس اللهو والخمر والقيان، وقد اعترف بهذا في كتابه (أدب الغرباء) وذكر أمثلة من انحداراته، ورجلٌ يشتهر بهذا المنحى

---

(١) قضايا إسلامية: ٢/ ١٩١، وما بعدها.

ويهيم به، وينقُل الناقلون من أخباره ما يرميه بالانحراف لابدّ أن يجري في مؤلفاته على نحو يُرضي مزاجه الخاص، فهو يتتّبعُ مزالق الريبة من من أنباء من يتحدث عنهم، ويُسهب إسهاباً كثيراً في سرْد ما يشينهم من ألوان الخلاعة والمجون.

ونحنُ لا نزعم أن نفوس من تحدثْ عنهم قد برئتْ من كلّ شر، إذ نعرفُ أن للإنسان مهاويه المنحدرة، ومراقيه المرتفعة، وكان على من يترصَد تسجيل النوادر عن رجال الأدب والتاريخ ألا يترصّدَ المزالق وحدها، مغمضاً عن كل نوازع الخير؛ بل كان عليه أن يدّقق في اختيار هذه الأنباء، فَمَا ظَهَر عواره من هذه الأكاذيب المفْضوحة يجب أن يُهمل، وإذا ذُكِرَ فلْيُشفع بما يدحضه، ولأبي الفرج عقلُه الواعي الذي يميّز بين الصواب والخطأ، ولو أصاخَ إليه لخفّف كثيراً مما ثبت لديه كذبه وإغراقه، ولكنه جعل الرواية عن غيره تكفي لتبرئته من المسؤولية الأدبية حين يُسجّل ما لم يقعْ مهما كانتْ هذه الأنباء واضحة البرهان.

والرواية في كتاب الأغاني التي ينقل أسانيدها في مفتتح الأحاديث عن الشعراء والوجهاء، ليست كالرواية الدقيقة التي يسوقها علماء الحديث، فهم يعرفون منزلة كل راوٍ، ويحكمون عليه بما يضعه الموضع الصحيح، أما الرواةُ الذين يذكرهم أبو الفرج فأكثرُهم مجهول، وفيهم من اشتهر بترويج الإفك الصارخ، واختلاقِه في أحيانٍ كثيرة، وإذنْ فذكرُ الأسماء المشبوهة لا يكون مصدر قوة بل يكون شهادة تجريح واتهام، وإذا كان القراء في عهد أبي الفرج يعرفون حقيقة هذه الأسماء، فإنّ من

جاء من بعدهم في العصور الممتدة لا يلتفتون إلى السَّند، بل يقرؤون ما جاء دون اعتبار لهذه السلسلة التي يرويها الرجل، فهي إذن غير ذات موضوع.

وإذا كان الدكتور طه حسين قد تابع المستشرقين في الاعتماد على روايات أبي الفرج، واعتبارها من الحقائق المؤكدة ـ كما سأشير إلى ذلك بعدُ ـ فإن فريقاً من الباحثين الأُصلاء قد وضعوا أبا الفرج الأصبهاني موضعَه النقدي الصحيح، وفيهم مَن واجَه المستشرقين من أساتذته في جامعة السوربون بما يدحض اعتمادهم على روايات أبي الفرج دون أن يتملق أهواءهم المغرضة كما تملّقها من يبتغون النجاح من غير وجوهه، فقد كتب الدكتور زكي مبارك في رسالته السوربونية (النثر الفني في القرن الرابع) فصلاً قيِّماً عن صاحب الأغاني، كشف فيه النقاب عن ميوله الشخصية، واتجاهاته العابثة، وقال فيما قال[1]:

«كانَ الأصبهاني مسرفاً أشنع الإسراف في اللَّذات والشهوات، وقد كانَ لهذا الجانب في تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، لأن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للكتَّاب والشعراء وللولاة والحكام يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية، ويهمل الجوانب الجدِّيَّة إهمالاً ظاهراً، يدل على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة والتجمل والاعتدال، وهذه

---

(١) النثر الفني للدكتور زكي مبارك: ١/ ٢٣٥، ط. ثانية.

الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيراً من آراء الذين اعتمدوا عليه، ونظرة فيما كتبه الأستاذ جورجي زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) وما كتبه الدكتور طه حسين في (حديث الأربعاء) تكفي للإقناع بأن كتاب الأغاني جرَّ هذين الباحثَيْن إلى الحطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية، وحَمَلَهُمَا على الحكم بأن ذلك العصر عصر شك وفسق ومجون».

لقد اتضح لنا الفرق بين كتب الأدب وكتب التاريخ في تسجيل الأحداث، وأنّ الاعتماد على الأولى في تحديد شخصيات الخلفاء والرؤساء ومَن يليهم مظنّة خطرٍ يؤدي إلى الاتهام الظالم، لا إلى بعض الناس بل للعصر جميعه حين سكت أبناؤه عن الشر، بل حين لهجوا به وأيَّدوه، وإذن فنقرأ سيرة هارون الرشيد بعيداً عن مفتريات صاحب (الأغاني) لأنه المصدر الأول لمن تلاه من مؤلِّفي كتب النوادر، أمثال صاحب (إعلام الناس فيما وقع للبرامكة من بني العباس) وغيره.

أما المصدر الآخر، وهو كتاب (ألف ليلة وليلة) فقصصٌ ملفّقة مخترعة، وليس الخطب به كالخطب بكتاب الأغاني، لأن الناس يعرفون جميعاً أنه مجرد حكايات ملفقة تستهوي الألباب، ومخترعها يعرف أنها كلما كانت أغرب، كانت أعجب.. فهو في منطق المؤرخين ساقط الاعتبار.

* * *

الحركة الفكرية في عهد الرشيد وأعلامها

أفاضتْ كتبُ التاريخ الأدبي في وصف ازدهار الحركة الفكرية في العصر العباسي، وبدأتْ بأبي جعفر المنصور فذكرت اهتمامه بالترجمة للكتبِ العلمية وتشجيعه للحركة التأليفية على قدر محدود، ثم ذكرت جهوداً حافلة للمهدي والرشيد، حتى إذا جاء الحديث عن المأمون استفاضت في ذكر مآثره الكبرى على الحركة العلمية، وما أعقب ذلك من ازدهارٍ حقيقي للفكر الإسلامي صار مضرب المثل بين الأجيال حتى الآن.

ونحن لا ننكر مقام المأمون في هذه الحركة الهائلة الممتازة حقّاً، ولكننا نذكر أن عهده كان زمن اقتطاف الثمرة التي بَدأَ غرسُها أيام المنصور، فلولا ما بذله المهدي على نحوٍ واسع، والرشيد على نحو أوسع، ما أتت هذه الثمار أُكُلَها، بل إنّ العلوم العربية والإسلامية بالذات، قد وجدت من تشجيع الرشيد أكبر عون، وكانتْ له مشاركة دقيقة في اختيار العلماء ومناقشتهم واصطحابهم في رحلاته الكثيرة، وقد عُقدت مناظراتٌ علمية كثيرة في مجلسه، ونلْحظ في هذه المناظرات أنها لم تكن على النمط الجدير بهذا الوصف، إذ نَعرف في المناظرة

الحقيقية امتداداً في القول، وبسطاً في الحجة، وتنوعّاً في الحوار، ولكنّ ما رُوي عن مجلس الرشيد لا يتعدى القول في جزئيةٍ من الجزئيات أخذاً ورداً على نحوٍ مقتضب، ولعلّ جَلالَ المجلس كان يُلزِم كلّ مناقش بتحديد مناط الحوار وعدم التزيُّد، وكان للبرامكة في عهد الرشيد جهدٌ علميّ كجهده، إذ كانوا حُماةَ العلم الأدب، ودُورُهم الواسعة تضمّ من العلماء مثل من تضم دار الخلافة إنْ لم تزد عليها بتعدد أسماء رجالها المشهورين، ولكلّ منهم مكانه الملحوظ.

ولستُ أريد أن أتابع رجالَ التاريخ الأدبيّ، فأسرد ما تكرر قوله في نشأة هذه العلوم وازدهارِها في هذا العصر الزاهر، ولكني سأختار من العلوم الكثيرة رجالاً عُرِفوا باتصالهم الوثيق بالرشيد، وبتقديره إياهم، واعتزازهم بالنسبةِ إليه، فيكونُ من موجز سِيَرهم ذاتِ الاتصال الوثيق بالرشيد ما يدل على أثره في ازدهار الحركة العلمية. ولَسْنا نغمض حقَّ أناسٍ لم يتصلوا بالخلفاء، وعكفوا على تحقيق دَورهم العلمي في المساجد، والتأليف المنفرد دون عون إلا من الله، فمن هؤلاء مَن قد يكون أعْرق أصلاً في العلم كالخليل بن أحمد وسيبويه مثلاً، ومِن فضل الله ورحمته أنّهُ لا يُضيع عَمل عامل، فَقدْ ذاعتْ آثار هؤلاء، وكُتبتِ المؤلفات المبسوطة في تشريح ما أتوا به مِن فنون المعرفة.

والحظ غلابٌ في كل شيء لا في العلم وحده، بل في كل مجال من مجالاتِ الحياة، ففي الأدب قد ذاعتْ شهرةُ الشعراء الذين اتصلوا بالخلافة، بل ربما كان لبعض المشاهير قصيدةٌ أو قصدتان خَلّدتا ذكره،

ونوّهَتَا به، على حين يكونُ من الشعراء المغمورين مَن يفوقه إبداعاً، ثم لا يعرفهُ أحد غير الخاصّة، بلْ فيهم من لَحقه البخس، فلم يعْرفه أحدٌ ما على ارتقاء تفكيره وسُمو تصويره، وأنتَ تقرأ مثلاً (ديوان الحماسة) لأبي تمام، فتجد أسماءَ شعراءٍ لم يأخْذوا حظّهم من الاشتهار. وما رُوِي من مقطُوعاتهم الممتازة يدّل على معدنٍ أصيل، ونَفَسٍ حارّ ملتهب، وبعيدٌ أن يكون أصحاب هذه المقطوعات لم يقولُوا غَيرها، لأنّ الشعر وحيٌ اضطراري إذا أُلِهمه الشاعر كانَ كالغيثِ المتدفق، لا يزالُ يهطل ثجّاجاً غزيراً، بحيثُ لا يستطيعُ مُلْهَمٌ أن يكبت ما تشتجر به نفْسه من الأحاسيس، فأيْن دَواوين مَن اختار لهمْ أبو تمام؟ وغير أبي تمام في المجموعات الشعرية كـ(المفضليات) و(الأصمعيات) و(جمهرة أشعار العرب) وغيرها. لقد ضاعت كما تفنى الدّرر الغالية في أعماق المُحيطات دون أن تصل إليها أكفّ الغائصين.

قُلْتُ: إني سأختارُ بعض الأعلام الذين عُرفوا بالاتصال الوثيق بالرشيد، والذين حَبَاهم بتشجيعه، فدوَّى لهم ذكرٌ حميدٌ في ساحات العلم، وكُتب الثقافة، وَحَسْبُ الخليفة أنْ يرعى هؤلاء، فيدلّ على اهتمامه بثمار العقول، ومبدعاتِ القرائح، اهتماماً ساعد على ازدهار الفكر الإسلامي في عصره المجيد، وسأحاول الإيجاز ما استطعت، لأن الإشباع يستدعي أن يخرج الكتاب عن موضوعه الأصلي إلى سواه، وأبدأ بالعلاّمة:

محمد بن الحسن الشيباني

ازدهر الفقهُ في عصر الرشيد ازدهاراً ناضراً، لأن اتساعَ العمران في العراق، قد دعَا الفقهاء إلى دراسة النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام الخاصة بالمسائل الطارئة، والقضايا الحديثة، في شُؤون التجارة والجباية والخراج والجزية، وما تتطلّبه الإدارات المستحدثة في الدولة من فتاوى تشريعيّة، ولم يغبْ ذلك عن الرشيد، إذ كانَ طابَعُ الدولة دينيّاً، وثقافةُ الرشيد في صميمها ترتكز على القرآن والسنة وما دار حولهما من شُروح وإيضاحات.

ومِن اتساع أفق الرشيد أنه وهو الذي يُؤْثِر القاضي أبا يوسف بحبّه ويجعله قاضي القَضاة في الدولة، بحيثُ لا يُعَيَّنُ أحدٌ منهم إلاّ بإشارته. كان يحفظ للإمام مالك بن أنس مقامه، ويمنحه من السلطان بالمدينة ما يجعلُ أمره نافذاً على الوالي، وقد اختار ذات عام أن تكونَ آراؤه الفقهيّة في (الموطأ) مرجع الناسِ في الفتوى، ولكنّ الإمام مالكاً لمْ يشأْ أن يستقلَّ وحده بالحكم التشريعي، فقال للرشيد: دعْ كلّ قاضٍ يُفتي بما يرجحُ لديه، لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، وحدثوا بما سمعوه.

وإذا كانَ أبو يوسف رجل الحظوة الأولى في بلاط الرشيد، فسأتركُ الحديث عنه لفصلٍ خاص يتحدّث عن كتابه العظيم (الخراج)، وأختارُ محمد بن الحسن الشيباني مُمثّلاً للنضوجِ الفقهيّ في عهد الرشيد، لأنّه هو الذي حفظ فقه الإمام أبي حنيفة بما أصدرَ من كُتب تجمع مذهبه،

وهو لم يقتصر في علمه على علماء العراق وحدهم، بل أَخَذَ عن مالك في المدينة. وسَمِع من الأوزاعي في الشام، وقد بقيتْ مؤلفاته مَدَداً للفقهاء من بعده. ومن أشهر كُتبه (المبسوط)، و(الزيادات)، و(الجامع الصغير)، و(الجامع الكبير)؛ كما أنه أشهرُ من تحدث عن القانون الدولي في الإسلام، فَكَتَبَ عن العلاقات الخارجية للدولة حرباً وسلماً بما صارَ اليوم موضع إعجاب المتشرّعين من رجال القانون الدولي المعاصر، حيثُ أُطلِق اسمه على بعض القاعات العلمية بإحْدى جامعات ألمانيا تقديراً لريادته القانونية في هذا المجال.

ويلوح أنّ اعتداده بعلمه، ومقامه بين الفقهاء، كانَ ذا أثرٍ في تقديرِ الخاصّة والعامة له، فقد رَوى مؤرخوه أنّ الرشيد أقبلَ يوماً على مجلس الفقهاء في دار الخلافة، فوَقفْوا جميعاً دون محمد بن الحسن، فانصرفَ الرشيد إلى مجلسه الرسمي، ونَادَى الحاجب باسم محمد بن الحسن[1]، فأشفقَ الحاضرون عليه، إذ تبيّنوا موضع الخطر في استدعائه، لكنّ الرجل تقدّم واثقاً بربه، فلما سألَه الرشيد مغضَباً، لِم لمْ تَقُم مع الناس؟ قالَ في هدوء: كرهتُ أن أخرجَ عن الطبقة التي جَعلْتني فيها، إنّك أهّلْتَني للعلم، فكرهت أن أنزلَ إلى طبقة الخدمة؛ فَرضي الرشيد وأوحَى له بالانصراف.

وإذا كنّا نحمد جُرأَة ابن الحسن وثقَته بمكانته العلمية، فنحنُ نحمد

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٢٠٣، نقلاً عن الخطيب البغدادي.

للرشـيد أنّه لم يُمعن في غَضبه، بل تراجعَ عنه مقتنعاً بمنطقـه الشـامخ، وما كانَ مثل أبي جعفر المنصور ليرضيه هذا الرد، ولكنّه حِلْمُ الحليم، وسعةُ الصدر.

ولم يكنْ هذا الموقف وحده هو الذي خالَف فيه منطَق الرشيد، إذ ذَكروا أنّ الرشيد كانَ قد أعْطى أماناً لأحد الطَالبيين، واشتُهر الأمان بين النـاس، ثم غَلبَ دعاةُ السـوء على اتجاه الرشـيد، فزيّنوا له أن ينقض ما أعطى من الأمـان؛ فقالَ: وكيف وقد ذاع الأمـر في الناس، فقالُوا: يلتمس فتوى جديـدة ولن يعدم، ثمّ ذهَبَ إلى ابن الحسن مَنْ أرسـله الرشـيد أن يُجيز التحلّل من الأمان بما يراه من البرهان، ولكنّ محمداً قـال: هذا أمانٌ صحيحٌ، ودمُ الطالبيّ حرام، وفي لحظـةِ حَرجٍ أقدم الرشيد على عزله من القضاء، وكأنّه أرادَ بذلك أن يَقطع ألسنةَ حاشيته. حتى إذا هدأتِ النفوسُ بَادَرَ بإعادته، وجعلَه مقرّباً إليه مِمّن يفدون من العلماء إلى سمره العلمي.

ولذوي التحليل النفسي أن يقفوا من هذيْن الحادثيْن وقفةً مستأنية ليعرفوا مَعْدِني الخليفة والقاضي؛ وهو معدنٌ من الذهب الخالص لم يُدركه الخَبثَ فيحتاج إلى النقاء! وقَد كان من عَادة الرشيد أن يَصطحب طائفةً من العلماء في سفره خارج بغداد، فكانَ ابن الحسن والكسائي معاً في رحلته إلى الري سنة ١٨٩هـ، وكأنّهما كانا مريضيْن، ولم يشاءا أنْ يقف الرشيد على ما يُكابدانه، فنفذا الأمر في ارتياح، ثم أدركهما الأجل معاً في وقت واحد، فدُفنا حيث ماتا، وصلّى عليهما الرشيد.

ولا أترك الحديث عن محمد بن الحسن دون أن أشير إلى إحدى مناظراته العلمية مع الشافعيّ، لأنّ ذوي النيّات المريضة قد افتروْا على ابن الحسن أنّه سعى لَدى الرشيد كي يُدين الشافعي، وهو ما أثبتتِ الروايات الصحيحة نقيضه، إذ إنّ محمد بن الحسن أرفعُ مقاماً من أن يَهوي إلى هذا الدرك، وقد أثْنَى عليه الشافعي في بعْضِ ما كتب، وقد دارت المناظرة حَول مسألةٍ من مسائل الغصْب، إذ ذهَب الحنفيّة إلى أنّ الغاصب إذا زادَ في غصبه شيئاً، فإنّ المالك يُخيّر في ردّ قيمة الزيادة وأخذ العين، أو أنْ يأخذَ قيمة العين ويتركها للغاصب، أما الشافعيّ فَيرى أن المالكَ إذا رضي أن يأخذ قيمة المغصوب كان بها، وإلاّ فَعلى الغاصب أن يزيل الزيادة ويرد العين إلى صاحبها!.

هذان الحُكْمانِ المختلفان كانا موضع مناظرةٍ مُمتعة شائقة بين محمد بن الحسن والشافعي، فقد بدأ محمد بقوله لصاحبه: ما تقولُ في رجلٍ غَصَب ساجةً وبني عليها جداراً، وأنفَقَ عليها ألفَ دينار، فجاءَ صاحبُ الساجة، وأقامَ شاهدين على أنها مُلكه؟ فقال الشافعي: أقولُ لصاحبِ السّاجة: أتَرضى أن تأخذ قيمتها؟ فإن رَضي، وإلاّ قَلَعْتُ البناء المستحدث، ودفعتُ ساجته إليه، قالَ محمد: ما تقول في رجل غَصَب لوحاً من خشب فأدخلَه في سفينته، ووصلَتِ السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحبُ اللوح بشاهديْن عدليْن؛ أكنتَ تنزعُ اللوح من

السفينة، قالَ لا : قال : الله أكبر تركتَ قولك! .

ثم قال محمد بن الحسن: ما تقولُ في رجلٍ غَصب خَيْطاً من الحرير ثمّ مُزقت بطنهُ، فخاط بهذا الحرير جراحتَه، وجاءَ صاحبُ الخيط بشاهديْن عَدليْن على أن الخيط مغصوب، أكنتَ تنزع الخيطَ من بطنه، قال الشافعي: لا ، قال ابن الحسن: الله أكبر، رجعتَ عن قولك؟ قالَ الشافعي لمن حوله: لا تَعجلوا، ثم سألَ محمد بن الحسن: أرأيتَ لو كانَ اللّوح لوحه نفسه، ثم أرادَ أن ينزع ذلكَ اللوح من السفينة حَالَ كونهما في لجـة البحر، أمباحٌ له ذلك أمْ يحرم عليـه، قالَ: يحرم عليـه، قال الشافعي: أرأيتَ لو كان خيط الحرير خيطَ نفسه، وأراد صاحبه أن ينزعه فيموت، أمباحٌ ذلك له أمْ محرم، قال: بل محرم، قالَ أرأيتَ لو جاء مالك الساجة وأرادَ أن يهدم البناء، أيحرم عليه ذلك أم يُباح؟ قال بل يباح: قال الشافعي: فكيف تقيس مباحاً على محرم!

والمنـاظرة طويلة ذكرَهَا الرازي في (منـاقب الشافعي)، ونقلهـا الدكتور أحمد أمين في الجزء الثاني من (ضحى الإسلام)، وقد اكتفيتُ بالجزء الأول منها، لأعطي صورةً من روعة الجدل العلمي بين إماميْن كبيرين، وإذا كان اقتدار الشافعي لَدى العامة واضحاً مشتهراً، فإنّ اقتدار ابن الحسن يجب أن يُعلم ويُذاع، وما منهما إلاّ إمام مكينٌ وغرسٌ يانع في عصر الرشيد.

مالك بن أنس

تحدثتُ في غير هذا الكتاب عن شذورٍ من مواقف مالك بن أنس، وجهاده الشريف في ذات الله[1]، وأناالآن أتحدث عن بعض أثره العلمي في التشريع الإسلامي والحديث الشريف، وكانا معاً لديه عِلْماً واحداً، ترى ذلك في كتاب (الموطّأ) حيث رتّبه على أبواب الفقه، يقول الأستاذ أحمد أمين في منهجه[2]:

«طريقته في التأليف أن يذكر الأحاديث المتعلّقة بالموضوع الواحد، وقد يَعْقُبُ الحديث تفسير كلمةٍ لغويّة فيه، وأحياناً يعقبه بأنه سُئل في كذا فأجاب بكذا، استناداً إلى آية أو حديث أو قياس . . . فهو لهذا كتابُ حديثٍ وفقهٍ معاً».

ومالك رضي الله عنه لم يكنْ يُفَرِّقُ بين الفقه والحديث في شيء، لأنه كان يلتزم في الفتوى بنصّي القرآن والحديث، فالحديث لديه فقه صريح، ومِن بركة هذا الكتاب أنّ رواتَهُ في الأمصار قد خرجوا عن الحصر، وقد تفرقوا في كل مكان من ربوع الإسلام، ينشرونه، ويهتدون بهديهم، ومن هؤلاء الرواة محمد بن الحسن من أئمة المذهب الحنفي، والشافعي صاحب المذهب المستقل، وابن حنبل تلميذ الشافعي ووارث

---

(١) علماء في وجه الطغيان، للدكتور محمد رجب البيومي، ص٤٦، ومابعدها.

(٢) ضحى الإسلام: ٢/ ٢١٤.

حُبِّه لمالك وإعظامه إياه، ويكفي أن يكون الرشيد والأمين والمأمون من رُواته، ولا نعلم ثـلاثة خلفاء اجتمعـوا على رواية كتاب واحد، غير الموطأ. هذا إلى أنّ المهدي نفسه قد استمعَ إلى بعض أحاديثه، وتقول بعض الروايـات: إنه هو الذي عَزمَ على نَسْـخه ونشـره في الآفاق فأبى مالـك، لأنّ أصحاب الرسول ﷺ قد تفرقوا في بلاد الإسلام، وأفْتَوْا بما سـمعوه، وقد يكون للقضية رأيان، إذ أفتى صحابيّ بغيـر ما رواه مالك وتبعه الناس، فإذا وَجَدوا ما يخالفه كَثُرتِ البلبلة، ووجد الشيطان طريقه للشك، وهو رأيٌ سديد يدلّ على توّرع مالك وشدة احتياطه، ولو كان الرجل لا يُقدّر تبعة الفتوى، ويرى نفسه فوق كلّ فقيه، لاستجاب لرغبة أمير المؤمنين، ولكنّه الدين! وكلُّ من تحدثوا من كبار السلف يقولون: إن مالكاً قد توخّى في كتابه الثابت من أحاديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، لأنّ الحكم الشرعي عنده كانَ أساس التأليف، فلا بدَّ أن يُفسِّر ما يروي بما يعلم من القول فيه، وكان من التورّع والحيطة بحيث عَرضَ كتابه على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلّهم واطَأَهُ عليه، لذلك سمّاه (الموطأ).

ولعلَّ ربيعة الرأي مع إقامته بالمدينة لم يكنْ من هؤلاء السبعين، لأنه ـ وهو أستاذ مالك ـ كان يقول في بعض ما يفتيه بغير ما ينطق به ظاهرُ الحديث، لا يقول ربيعة ذلك اجتراءً وتظاهراً، بل لمنحًى خاصٍ في الفهم الدقيق، وهذا ما كانَ موضع الخلاف بينه وبين مالك، فاضطرّ إلى فراق حلقته، ولا بدّ أن نعرف أن هذا الخلاف بين الفقهاء كانَ مصدر خيرٍ كثير، إذ به اتّسعت وجوه القول في قضايا كثيرة. فكان مصدر ثراءٍ فكري

نجده اليوم في مئات الموسوعات الخاصة بالتشريع الإسلامي، ولوْ وقف الدارسون عند قول واحدٍ، لضاقتْ سبل الرأي في ما جدّ ويجدّ من الأمور على تعاقب الأحقاب.

أقول ذلك ردّاً على بعض من كتبوا في مناقب الأئمة، فأخذوا ينتقصون كلّ مَن خالف إمامهم، وهؤلاء ليْسوا فقهاء دارسين، ولكنهم حملة أقوال عن حياة الفقهاء، وفي هذه الأقوال ما يظهر خطؤه دون أن يلتفتوا إلى ما فيه، وأصحاب هذه المناقب لم يكونوا وحدهم ـ بفضل الله ـ أصحاب التاريخ، فمن ورائهم جماعة من الدارسين، أخذوا منهم وردّوا، وحفظوا لكلِّ إمام حُرمته، ورعوا مقامه.

وقد تعددت في هذا العصر طبعات الموطأ، بحيثُ عمل على نشره أكثر من عشرة من المحقّقين، ومن أدق الطبعات التي صدرت عنه، ما قامَ على تحقيقها وتصحيحها وترقيمها وتخريج أحاديثها والتعليق عليها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله، إذ ألزم نفسه باستيعابٍ دقيقٍ لما قدر على الاطلاع عليه من النُّسخ: مخطوطةً ومطبوعةً. وفي حديثه عن الموطأ لم يُباهِ برأيٍ خاص له، بل استترَ وراء نصوص ممتازة للفضلاء من الباحثين، وكان في طوقه ـ وقد جمعَ هذه النصوص ـ أن يَمزجها مزجاً متّصلاً في أسلوب ممتد، ليظهر بمظهر الباحث المتدفّق، ولكنه آثر الاعتزاز بمن طار لهم صيتٌ ودَوِيّ في البحث العلمي النزيه؛

وقد أعجبني ما نقله عن الإمام ولي الدين الدهلـوي صاحب (الحجة البـالغة) حيث قال[1]:

«كتابُ الموطأ، أصحّ الكتب وأشهرها وأقدمها وأجمعها، وقد اتّفق السوادُ الأعظم من الملّة المرحومة على العمل به، والاجتهاد في روايتـه ودرايته، والاعتناء بشـرح مشكلاته ومعضلاتـه، والاهتمام باستنباط معانيه، وتشييد مبانيه، وَمَن تتبّع مذاهبهم، ورُزق الإنصاف من نفسه، علم لا محالة أن الموطأ عُدّةَ مذهب مالك وأساسه، وعُمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيْه ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كالشروح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون، وإنّ الناس وإنْ كانوا من فتاوى مالك في ردٍّ وتسليم، وتنكيت وتقديم، ما صفا لهم المشرب، ولا تأتّى لهم المذهب، إلا بما سعى في ترتيبه في الموطأ واجتهد في تهذيبه، لذلك قال الشافعي: ليسَ أحدٌ أمنّ عليّ في دين الله من مالك، وعُلِمَ أيضاً أن الكتب المصنَّفة في السنن كـ(صحيح مسلم) و(سنن أبي داود)، وما يتعلق بالفقه من (صحيح البخاري) و(جامع الترمذي) مستخرجاتٌ على (الموطأ)، تحومُ حَوْمه، وتروم رومه، مطمح نظرهم منها وَصْل ما أرسله، ورفع ما أوقفه، واستدراك ما فاته، وذكر المتـابعات والشـواهد لما أسـنده، وإحاطة جـوانب الكلام بـذكر ما رُوي خلافه».

---

(١) مقدمة الموطأ، ص(ح)، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

هذا كلام الإمام الدهلوي بِنصّه، ومعَ ما أسبغه على الموطأ من الثناء المفرط، فقد لزم منهج أهل العلم، حينَ قرر أن من درسوا الموطأ لم يقفوا عند مرويّاته فحسب، بل وصلوا ما أرسل مالك من الأحاديث، ورفعوا ما أوقفه منها، واستدركوا ما فاته، وأحاطوا جوانب الكلام بذكر ما رُوي خلافه.

وقد قال العلامة الدهلوي: إن الموطأ مصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه، ومعلومٌ أن مذهب أبي حنيفة لم يدوّنه الإمام نفسه، ولكن محمد بن الحسن قد بَدأ بالتدوين بَعد أن قرأ الموطأ على مالك مشافهةً، ولازمه أربع سنوات، وظهر أثر ذلك كله فيما استشهد به في كتبه، وهي عمدة أهل المذهب، لأن أبا يوسف رحمه الله لم يترك غير رسالته عن الخراج، وقد ضاعت كتبه التي ذكرها مؤرخوه فلم يصل إلينا منها شيء.

الواقدي

اخترت الواقدي ممثّلاً لكتابة التاريخ في عهد الرشيد، لأنه ألّف في هذا الفّن كتباً كثيرةً، ذكرها ياقوت وغيره وإنْ لم يبقَ فيها سوى ما رواه ابنُ سعد عنه في (الطبقات)، ولم يقْتصِر على التاريخ وحَده، بل شغل نفسه بالحديث والفقه وعلوم القرآن، وهي حينئذٍ جوهر الثقافة الإسلامية.

أقولُ: اخترتُ الواقدي ممثّلاً لهذا العصر، لأني رأيتُ أحد الذين

يؤلّفون في سِيَر الرجال، يتتبّع النقدات التي وُجّهت في كتب التراث لنفرٍ من الأعلام، فيجعلها موضع التشكيك، ويتركُ ما قيل عن مزايا المنقود، وقد تحدّث عن الواقدي فذكر بعض ما قيل في نقده، وتَرك أضعافه مما قيل في الثناء عليه! حتى حَسبت أن التجريحَ لديه مقصودٌ لذاته، ولو سلك المؤرخون مسلكَ هذا المترصّد للنقدات ما كانَ لنا تاريخٌ يذكر.

والحق أنّ الواقدي قد سدَّ في تاريخ الصحابة والتابعين وتابعي التابعين مَسدّاً لم يقُم به سواه، إذ كان يَحرص على لقاءِ أحفادِ الصحابة في أماكنَ شتى يرحلُ إليها، ليسألَ كلّ حفيد عما يعلمه من سيرة الصحابي والتابعي، ويسأل عن موضع استشهاده إذا استشهد، ويذهب إلى المكان فاحصاً سائلاً، وعن قبره إذا ماتَ موتاً طبيعياً فيزوره ويترحم عليه، لذلك جَمع من الأخبار ما لم يُتح لسواه من أساتذته وتلاميذه معاً؛ لأنه لم يقتصر على طلبِ العلم بالتاريخ من علمائه بل جعل المشاهدة مصدراً من مصادره، وَلَوْ عَاشَ بيننا اليوم لكان إلى علمه الغزير صَحافيّاً كبيراً يقوم بالاستطلاعات الوافية ذات الصّور والأسئلة والأجوبة والتعليقات.

وإذا كانَ الواقدي ينقل عن الأحياء ما يعرفونه عن أقاربهم الراحلين، فطبيعيٌّ أن ينقل فيما ينقل بعضَ المبالغات، أو ما يتوجّه إليه النقد، ومن هنا كانت حملة مَنْ تكلموا عنه، والواقع أنه ينقل كلّ قول بإسناده الصريح، وهو بذلك يلقي التبعة على من حدّثه من الأقربين، ولو تفرّغ لنقد كل رواية، والتعليق على كل نبأ، ما كتبَ معشار ما كتب، ولم

يكن هذا الجمع الحاشد ديدنه وحده، ولكنه كان ديدن أهل طبقته ففيم الملام؟!.

اشتهر الواقدي في خلافتي الرشيد والمأمون، فقد سمعَ من أفاضل علماء عصره، وفي مقدمتهم مالك بن أنس، وسفيان الثوري ومعمر بن راشد وثوْر بن يزيد، وابن جريج، وابن عجلان، وكل منهم عَلَمٌ في فنّه، ولمكانته في التاريخ بلَغ الحظوة عند الرشيد، فحادثَه، ولَمس ما لديه من المحصول الفقهي فوق اهتمامه بأنْباء الرجال فعيّنه قاضياً للجانب الشرقي من بغداد، وظلَّ قائماً بعملِه حتى قامت الفتنة بين الأمين والمأمون فاعتزل، وفي عَهد المأمون رَجعَ قاضياً بعسكر المهدي، وهي التي سُميت بالرصَّافة.

أمّا كيف عرف الرشيد مبلغه من العلم فتُنبئ عنه هذه الحادثة: فقد حجَّ الرشيد عام(١٧٠ هـ)وكان على شوْق لمعرفةِ ما بمدينة رسول الله ﷺ من آثار تاريخية تحملُ عبقَ صاحب الرسالة، فقالَ لوزيره يحيى بن خالد البرمكي: اخْتَرْ ليَ عالماً عارفاً بالمدينة، يحدّثني عن كل شيء يتصل برسول الله ﷺ فيعرف كيف كان نزولُ جبريل عليه السلام، ومِنْ أيّ وجه كان يأتيه، وفي أيّ مكان كثُر مجيئه، كما يعرف قبور الشهداء، ومنازلَ الصحابة على عهد النبوة، فجعلَ يحيى بن خالد يسأل الناس من أهل المدينة، فكلُّهم يُخبره عن الواقدي. فبعثَ إليه، وخلا به قبل أن يذهب به إلى الرشيد، فقال لَه: يا شيخ، إنَ أمير المؤمنين أعزّه الله يريد أن تُصلّي العشاء الأخيرة بمسجد رسول الله ﷺ، لتمضي معنا إلى مشاهد البلدة،

فتوقفنا عليها مشهداً مشهداً، وتحدّثنا عن كلّ مكان بخبره، فقال: نعم.

فلما جاءت السّاعة المرتقبة، سارَ مع الرشيد طيلةَ لَيْله، وجَعلَ يحدثه بما ملأ قلبه إعجاباً به، وطلب من يَحْيى أن يستدعي الواقدي إلى بغداد، ليكونَ أستاذاً للأمين والمأمون، بعد أن منحَه عطاءً فأجزل، وكأنّي بيحيى البرمكي وقد مَدَح الواقدي لأمير المؤمنين بما قرّبه إليه، فشدّ رحاله إلى بغداد، وولي القضاءَ بجانبها الشرقي؛ ثم حانتْ نكبة البرامكة فكانَ الواقدي كثير الترحم عليهم، وربما بكى متأثّراً لسابقة فضلهم عليه.

ولم يمنعْه مقامه في القضاء، وقيامهُ على تثقيف الأمين والمأمون أن يُواصل البحث عن مسائل التاريخ، وأنْ يقضي الليلَ الأطول في تدوين ما يبلغه من الأنْباء أثناء النهار، حتى أُتيح له أن يترك هذا الفيض الغزير من التأليف.

يقول الأستاذ الكبير محمد زاهد الكوثري في المقدمة الرائعة التي كتبها عن الواقدي وتلميذه ابن سعد في مقدمة كتاب (الطبقات)[1]، بعد أن أفاض في تعداد مآثره:

«ومع ذلك جُوزي الواقدي جزاء سنمار، ورماه أغلبُ الرواة عن وَترٍ واحد، حيث كانوا يرون كثرة الغرائب في رواياته، فاتّهمه كثيرٌ من

---

(١) مقدمة الطبقات، للإمام الكوثري، ص٩.

النقاد لكن فاتَهم أنّ من يكون بمنزلته في كثرة الرواية لا تُستغربُ كثرة الغريب في رواياته، ومع هذا يُوجد بين الأقدمين مَن يقّدره قدره العظيم، ويَعرف مقدار فضله، حتى كانَ إبراهيم الحربيّ يقول: الواقدي أمَنُّ أَهْل الإسلام، على أهل الإسلام، وأعلمُ الناس بأمر الإسلام؛ وقال يعقوب بن أبي شيبة: لما تحوّل الواقدي من الجانب الغربي حمل كتبه على عِشْرين ومئة وقر، وقيلَ كان له ستمئة قمطر، ومَن قال: إن مسائلَ مالك وابن أبي ذُؤيْب تُؤخذ من أوثق من الواقدي فلا يُصدَّق، فمنا ألف شكر للواقدي وأمثاله، حيثُ قاموا بشِق الأنفس بالقدر المتوارث، ولولاهم لبقينا في ليل دامس من جهة معرفة أحوال رجال الصدر الأول».

وإذا كان ما لدينا من سيرة ابن إسحاق قد وقف عند عصر النبوة، فإن ما سجّله الواقدي عن التابعين وتابعي التابعين، حتى انتهى إلى عصره، سواء في كتاب (الطبقات) أو في غيره من الكتب التي ضاعت من أيدينا اليوم، وبقيتْ منها شذور في كُتُبِ من قرأها قبل الضياع.

أقول: إن ما سجله الواقدي عن هؤلاء قد حفظ ثروة علمية من الضياع، لأنه لم يكتف بذكر الأحداث فقط، بل امتد بالحديث إلى آراء المتحدث عنه، واتجاهاته السياسية والعلمية، وسلوكه الإنساني، وهذا مغنم كبير.

لقد استحق الواقدي أن أجعله نموذجاً للباحث التاريخي في عهد الرشيد.

من مبتكرات الرشيد أنه أنشأ ما يسمّى (بيت الحكمة)، وجعل من يسمى (يوحنا بنِ ماسويه) أميناً للبيت، وقد كلّفه القيام بترجمات كثيرٍ من الكتب التي قَدمت لبغداد بعد حرْب أنقرة، وأكثرُ ما في هذه الكتب يتجه إلى الطب، وبعضها للفلسفة والتنجيم، ويذكرون منها مؤلفات (أرسطو) و(جالينوس) و(أبقراط)، وهي أسماءٌ ترددتْ في كتب التراث منذُ عهد الرشـيد، وكان ذلك تمهيداً لبعث حركـةٍ أكثر نشـاطاً في عهد المأمون، وفي كتاب (أخبار الحكماء) و(فهرست ابن النديم) ما يمدّ بعناصر جيدة لكتابة بحث علمي عن أثر الترجمة من كتب الهنود والفرس واليونان، وقد بَدأَتِ البذرةُ الأولى في عهد أبي جعفر المنصور، ثم نمتْ في عهد الرشيد، وأثمرتْ في عهد المأمون.

ونحن الآن نتحدث عن ترجمات كتب أرسطو للعربيّة عن اليونانية مباشرة، ومن الإنْصاف أن نذكر أن (حُنين بن إسحاق) قد قام بترجمة سابقة لكتب الفيلسوف اليوناني، ومنها أخذ (الجاحظ) نُقُولَه عنه، وقد لمع نجم حُنين حين اتصل بطبيب الرشيد (جبرائيل بن بختيشوع)، فقرّبه واجّتباه، وحبب إليـه أن يقوم بنشـاطِهِ العلمي بعد أن قدّمه للرشيد، ومِن حظّ حنين أنه نزل من نفس المأمون أكرم منزل، فأجزل له العطاء، حتى يُقال: إنّه كان يَزن الكتاب الذي يقوم بترجمته بالذهب، ليُعطيه أجْره وِفق ثِقَلِ الأوراق، وليس عطاء بعد هذا يمكن أن يوجد.

وإذا كان ابن بختيشوع هو صاحب الفضل في ظهورِ حنين في البلاط العباسي، فإن تكريمَ الرشيد له قد جعله صاحب القول المسموع، إذ كانَ طبيبه الخاص، لا يُفارقه في حلّ وترحال، وكانتْ حياة الرشيد الصحية ليستْ بالمستوى الجيد، حتى وهو في عنفوان الشباب، إذ طالما أُصيب بأزمات كبيرة بذلَ جبرائيل جهده في القضاء عليها، حتى نال منه كل تقدير، ولم يقف علاجه على الخَليفة، بل على خاصة خواصه من نسائه وجواريه، ويروون في هذا المجال قصصاً تدل على براعته النفسيّة إذ كانَ يعالج بالطب النفسي ما يتعذر علاجه بالطب التشريحي، ومن ذلك قصّة الجارية التي أُصيبت يدها بالشلل، وحار الطب في علاجها، فأتى الطبيب بحيلة نفسيّة أذهبت الشَللَ في لحظَات، وكان ذلك مَدعاة العجب العاجب.

يقول الدكتور محمد عبد الحميد في مقاله عن الطبيب الكبير[1]:

«ولقد ظلَّ جبرائيل بن بختيشوع طبيباً لدار الخلافة، أوطبيباً خاصاً لأمير المؤمنين هارون الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة، إلى أن توفي الرشيد، وقد جَمع خلالها ثروة عظيمة، ذلك لأن الرشيد كان يحبّه حباً شديداً، وهلْ أدلّ على ذلك مما يُروى عن الرشيد أنه قال له ذات مرّة وهو حاج بمكة: لقد دعوتُ لك واللهِ في الموقف دعاءً كثيراً، ثم التفت إلى بني هاشم وقال: عسى أن تكونوا قد أنكرتُم قولي، ولكن تعرفون أنّه

(١) عدد الهلال الخاص بالرشيد، ص١١٩٩.

يقوم على صلاح بدني، وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين».

ولم تقْتصر مهمة ابن بختيشوع على الطب وحده، بل تقدّمه إلى ضروب الحكمة الأخرى، لأن الطبيب في الزمن الغابر كان يُدعى حكيماً، إذ إن تعاطي الفلسفة لديه كان من أول شروط مهارته في الطب، وقد كانَ العامة في مصر لعهدٍ قريب جداً، أدركتُهُ في منتصف هذا القرن يُسمّون الطبيب حكيماً، فبدل أن يقولوا: إن فلاناً ذهب إلى عيادة الطبيب. يقولون: إنه ذهب إلى الحكيم، لذلك كان جبرائيل بن بختيشوع بقراءاته الفلْسفيّة في الكتب السريانية مُشجّعاً لحنين بن إسحاق، ودافعاً له على الإجادةِ فيما يزاول، وقد أدركَ حُنيْن عظم منزلته التي تبوأها لنبوغه في الترجمة، فلم يعد في حاجة إلى مشجّع بعد وفاة جبرائيل، بل صَار هو رئيساً لنفرٍ من التراجمة أَحْسنَ اختيارهم بعد دقة الامتحان، وجدّية الاختبار، فبلغ بهم ما بلغ من النهوض الفكري في هذا الميدان.

ولعلّي أكون قد أعطيت فكرة مجملة عن الحركة العلمية في عهد الرشيد بما قدمت في هذا الباب .. وأقول: فكرة مجملة؛ لأن التفصيل الشّافي قد تكفلت به كتب حافلة لذوي الاختصاص كما ذكرتُ من قبل.

* * *

الحركة الأدبية في عصر الرشيد وأعلامها

كان الرشيد واسعَ الثقافة العربيّة، فقد درس على فُحول علماء اللّغة والأدب والنحو في عصره، والذين دوّنوا مجالس الغناء واتّسعوا فيها اتساعاً كبيراً لم يَرْقَهم أن يجمعوا ما تناثر من آرائه في مجالس العلم، وإذا كان المفضّل الضبّي قد روَّاه الشعر، وشرح له غُرّ القصائد في الجاهلية والإسلام، فإن الكسائي قد أمتعه بدروس اللّغة والنحو، كما أنّ الأصمعي رَوَى له من نوادر الأدب وطرائف الأعراب ما جعله مشاركاً قوياً فيما يدور حوله من أفانين البحث العلمي في هذا المحيط؛ ـ محيط اللّغة والأدب والنحو ـ.

ولأمرٍ ما كان الرشيد ينفرُ من مباحث علم الكلام، ولم يكنْ يرحّب برجاله لأنه يَراهم يُعقّدون مسائل اليقين، مع أنّ واجب العلماء أن يُيسّروا كل عسير يتعلق بذات الله، وهذا موضع الفرق بينه وبين ولده المأمون، فقد أحاط المأمون نفسه برؤوس الاعتزال، فدفعوا به إلى مصادرة الرأي الآخر، ولاقى أهل السنة من هؤلاء شراً مستطيراً فمنهم مَن قُتل، ومنهم مَن سُجن وعُذّب على جلالة قدره في الناس كالإمام أحمد بن حنبل، وبمقارنة العهديْن نجد عهد الرشيد أهوى للحق، وأسلم للناس.

كان الرشيد عالماً ملء إهابه، وقد اشترك في مسائل علمية كثيرة، وجادلَ وجُودِل دون مهابة من المتجادلين، بلْ كان يحضر مجلس التعليمِ الخاص بولديْه: الأمين والمأمون، ويستمع للأحمر وللكسائي والمفضّل فيما يقولون لولديْه، وقد قالَ للمفضل ذات مرة: هات شيئاً مما عندك فأنشد المفضل قول الفرزدق:

أخذنا بأطراف السماء عليكمو لنا قمراها والنجوم الطوالع

وتطلّع إلى الرشيد، وكأنّه يريد أن يشرح المراد بالقمريْن فقالَ الرشيد للمفضّل: على رسلك، فقد أفادنا هذا الشيخ قبْلكَ - وأشار إلى الكسائي - حيث قال: إنه يَعْني بالقمريْن الشمس والقمر، كما قالوا سنّة العمرين يعنون سنّة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلك أنّه إذا اجتمعَ اسْمان من جنسٍ واحدٍ، وكان أحدهما أخفّ على أفواه السامعين غلَّبوه فسمُّوا الأخير باسمه، فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر، وفتوحه أكثر من فتوحه، غلَّبوهُ وسمُّوا أبا بكر باسمه، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] يريد المشرق والمغرب فهذا من التغليب[1].

يقول الدكتور أحمد أمين:

ولقد كان مُحبَّباً إلى الخليفة أن يُجالس النحاة، ويستمع إلى

---

(١) هارون الرشيد، ص٩٠

جدلهم، إذ كان يُقدّر سلامة اللغة حق قدرها، فقد سمع الأصمعي يقول: ما لا قتني بعدك أرضٌ، أي لم تُمسكني، فلم يرتح حتى استفسر عنها، وبقيّة القصة التي أشار إليها الدكتور أحمد أمين ولم يكملها، أنّ الرشيد بدا على وجهه ما يدلّ على السؤال، وتطلّع إلى الأصمعي دون أن ينطق، فلما آن انصراف القوم، أبقى الأصمعي ليسأله: ماذا تريد بقولك «ما لا قتني بعدك أرض»، فقال الأصمعي: أريد ما أمسكتْني، فقال له: لا تتكلّم في مجلسي بما لا أفهم، فتضطرني إلى السؤال؛ ولكن إذا خلوتَ بي فقل ما تشاء، لأسألك فأعلم، وعرف الأصمعي بذلك ما لم يكن يعرف من آداب المجالس في حضرة أمير المؤمنين.

وفي كتاب (المغني)[1] لابن هشام أنّ الرشيد أرِقَ ليلة، فكتب إلى القاضي أبي يوسف يسأله عن قول القائل:

فإن ترفقي ياهند فالرفقُ أيمنٌ ... وإن تخرقي ياهند فالخرقُ أشأمُ
فأنتِ طلاقٌ والطلاقُ عزيمةٌ ... ثلاثٌ، ومَن يخرق أعقُّ وأظلم

فقال: ماذا يلزمه إذا رفع الثلاث وإذا نصبها، فقال أبو يوسف، قلتُ: هذه مسألة نحويّة فقهية ولا آمن الخطأ فيها إذا قلتُ برأيي، فأتيتُ الكسائي وهو في فراشه، فسألته فقال: إن رفع ثلاثاً طُلّقتْ واحدة، لأنه قال، أنتَ طلاق، ثم أخبر أنّ الطلاق التام ثلاث، وإن نصَبَها طلقت ثلاثاً لأنّ معناه أنت طالقٌ ثلاثاً، وما بينهما جملة معترضة، فكتبتُ بذلك إلى

---

(١) المغني: ١/ ٥٣، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

الرشيد، وقد علّق ابن هشام على هذه المسألة بما يطول تسطيره.

وهناك مسائل بدهية لا يجبُ أن تذكر في باب المباهاة العلمية، إذ إنّها من المعلومات البدائية، ولكنّ الدكتور أحمد أمين نقلها عمن ذكرها مباهياً بعلم الرشيد، إذ قال[1]: وكان الرشيد دقيق الفهم للعربية حتى كان يستطيع أن يفرق بين ما إذا قلت: أنا قاتلُ غلامِكَ على سبيل الإضافة بمعنى قتلتُ غلامك، وبين ما إذا قلت أنا قاتلٌ غلامَك بالتنوين على معنى سأقتلُ غلامَك، وأظن المسألة من الوضوح بحيث لا تستدعي القول بدقّة الفهم، وكأن العبارة ذات غموض منطقي أو غوص فلسفي، وهي كما ترى واضحة صريحة.

فإذا تركنا مسائل اللغة والنحو إلى مجالس الشعر، فإن الرشيد كان الذوّاق الناقد حقّاً، فقد كان يستمع للشعراء، ويستجيدُ الجيد، ويسترذل الضعيف، وكتاب الأغاني حافلٌ بآرائه الشعرية، بحيثُ يستطيع الباحث أن يجعله وحده مصدراً لآرائه الأدبية، والأغاني في هذا الباب مصدرٌ جيد، لأنه يتحدث عن الشعر لا عن أحداث التاريخ التي يسوقها دون نقد أو تصويب، ففي ما كتبه أبو الفرج عن آراء الرشيد في محمد بن مناذر ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، ومنصور النميري ومروان بن أبي حفصة والعباس بن الأحنف والموصلي والعتابي وغيرهم ما يدلّ على تذوقه الفني، واستشفافه الأدبي، وقد ذكروا له عدة مقطوعات شعرية في الغزل

(١) هارون الرشيد، ص١٠٩.

والرثاء! ولا أستبعدُ أن يكون قد قالها، وإن كنتُ لا أجزم، لأن الروح التي تُنبئ عنها هذه المرويات ليستْ بروح خليفةٍ مطاع، وقد جاء في بعض الروايات أن الرشيد طلب من العباس بن الأحنف أنْ يقول شعراً في معنًى قاله نثراً، فصدع العباس بالأمر، أفلو كان الرشيد شاعراً وعنده المعنى الذي يختلج في نفسه، أفكان يطلب من غيره أن يقول؟.

ولعلّي ألمّ ببعض من سطعوا في مجلس الرشيد علماً وكتابةً وشعراً ونادرةً، ليكونوا دليلاً على النهضة الأدبية التي كان أمير المؤمنين باعثها، الحريص على ازدهارها، ومِن هؤلاء:

علي بن حمزة الكسائي

إذا كنّا نفهم الأدب بالمعنى العام، وهو الأخذُ من كل فنّ بطرف، فالكسائي أجدر من نختاره من علماء النحو واللغة والقراءات، فمكانه في هذا الفصل مطمئن مكين.

رُزق الكسائي حظوة عند البرامكة والرشيد، أما البرامكة فقد نصروه على سيبويْه في المناظرة الشهيرة، وهذه مما تُحسب على الكسائي لا له، وبسببها هاجمه كثيرٌ ممن كتبوا في الأدب وتاريخ النحو، وأذكر أنّ الأستاذ كامل كيلاني كتب بحثاً عن هذه المناظرة في كتابه (صور جديدة من الأدب العربي) فبلغ به أسفه لما نال سيبويه أن يهاجم الكسائي مهاجمةً كانتْ موضع تعليق الدكتور طه حسين، حيث قال في

مقدمة كتاب الأستاذ كامل[1]:

«وما أرى أنّ الكسائي يستحقّ منه ـ من المؤلِّف ـ هذه الشدّة المسرفة في القسوة، فمكانُ الكسائي من الرواية والقراءة والنحو يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله، ومهما يجمع المجمعون على أنّ القول ما قال سيبويه. فإني أحب ألاَّ ننسى أنّ مذهب سيبويه وأصحابه في النحو كان مذهب قياس وتعليل، ومذهبَ الكسائي وأصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب، وأنّ لكل من المذهبين خطره وقيمته».

يقول ياقوت[2]: كان الكسائي مؤدِّباً لولد الرشيد، وكان أثيراً عند الخليفة، حتى أخرجه من طبقة المؤدّبين إلى طبقة الجُلساء والمؤانسين، ولذلك كان يصحبه في رحلاته القريبة والبعيدة، وكان يجعله الحكم الفصل بين المتناظرين، فقد تنازع النظّام وضرارٌ[3] بين يدي الرشيد فتناظرا حتى دقت مناظرتُهما فلم يفهمهما، فقال لبعض خدمه، ومَن يرضى برأيه: اذهب بهذيْن إلى الكسائي حتى يتناظرا بين يديه، ثم يخبرك مَن المنتصر منهما!!.

وليت شعري كيف جاز لدى الرشيد أن يجعل الكسائي حكماً على

---

(١) صور جديدة من الأدب العربي، للأستاذ كامل كيلاني، ص١٥.
(٢) معجم الأدباء: ١٣/ ١٩٤.
(٣) هو ضرار بن عمرو الغطفاني المتوفى سنة (١٩٠هـ) من كبار المعتزلة، طمع برياستهم، فلم يدركها، فخالفهم، فكفّروه وطردوه (الأعلام).

النظّام في مسألةٍ من مسائل الكلام، وهو على جلالة قدره في علوم العربية يقعد فهمه عن مُرْتجلِ النّظّام البدهي، فكيف بما يقوله النظام في علم الكلام عن رويّة وتفكير! ! وإخالُ الرشيد كان يعتزمُ أن يصرفهما عن مجلسه بحيلةٍ لا تُظهِر ذلك، مراعاةً لمقامهما العلميّ فحسب، وما عليه أن ينتصر النظّام أو ضِرار، وكُتب النحو تسجّل مناظراتٍ خفيفة وقعت بين الكسائي وغيره من الكبار في مجلس الرشيد، مما يدلّ على أن مجلس الخليفة يغلب عليه الجد الصارم، لا اللهو العابث، كما يدلّ على أن مجالس الرشيد مجالس لغة وأدب ونحو، لا فلسفة ومنطق ولجاج.

قال الزجّاجي في (أماليه)[1]: كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد، وكانا ملازمين له، يقيمان بإقامته، ويظعنان بظعنه، فأنشد الكسائي أبياتاً منها:

أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به   رئمانُ أنف إذا ما ضُنّ باللبن

فقال الأصمعي: إنما هو رئمانَ أنف بالنصب، فقال الكسائي، ما أنتَ وذاك، يجوز الرفع والنصب والجر، أما الرفع فعلى البدليّة من ما، وأما النصبُ فعلى أنها مفعول لتعطي، وأما الجر فعلى أنها بدل من الضمير في قوله به، وإجابةُ الكسائي تدلّ على غوصٍ نحوي، والأصمعي رجلُ رواية وأدب وليس له من النحو ما يُسامي به الفحول.

---

(١) نشأة النحو، للأستاذ محمد الطنطاوي، ص٣٩، والمسألة بتمامها في معجم الأدباء: ١٣/ ١٨٣.

أما مناظرة الكسائي مع اليزيدي وهو قريعُه في النحو والرواية فقد أظهرت هوى الرشيد للكسائي دون صاحبه، إذ قيل: إنّ الكسائي اجتمع مع اليزيدي عند الرشيد، فجرت بينهما مسائل كثيرة، فقال له اليزيدي: أتجيز هذين البيتين؟

ما رأينا خَرِبَاً نقَّـ ... ـرَ عنه البيضَ صقرُ
لا يكون العير مهراً ... لا يكون؛ المهرُ مهرُ

فقال الكسائي: يجوزُ على الإقواء، إذ حقّ العبارة في رأيه أن تكون (لا يكون المهرُ مهراً) بالنصب لا بالرفع، فقال له اليزيدي: انظر جيّداً، فانقطع الكسائي، فقال اليزيدي: لا يكون المهر مُهراً محالٌ في الإعراب، وإنما ابتدأ فقال: المهرُ مهرٌ، وضربَ اليزيدي بقلنسوتِه الأرضَ، وصاح: أنا أبو محمد، فقال له يحيى بن خالد، خطأُ الكسائي مع حُسن أدبه، أحبُّ إلينا من صوابك مع سوء أدبك، أتكنّي في مجلس أمير المؤمنين، وتكشف رأسك، فقال: إن حلاوة الظَّفر وعزّ الغلبة أذهبا مني التحفّظ؛ ومما يضعف هذه الرواية في رأيي أنها تدور في شيء لا يغيب مثله عن الكسائي، ولهذين الموقفين أشباه لا نأتي عليها، ولكننا نذكر أن الكسائي قد توفي قبل اليزيدي فرثاهُ رثاءً يدلّ على الأسف، وقد مات الكسائي[1] مع محمد بن الحسن في يوم واحد فقال اليزيدي:

---

(١) معجم الأدباء: ١٣/ ٢٠٢.

أسيتُ على قاضي القضاةِ محمد فـأذريـتُ دمعـي والفـؤاد عميـدُ
وأوجعني مـوتُ الكسـائـي بعـده فكادت بي الأرض الفضاء تميدُ
وأذهلنـي عـن كـلّ عيـن ولـذّة وأرّق عينـي والعيـون هجـودُ

وهو رثـاءٌ نظمه عالمٌ لا شـاعر، وحسـبُ اليزيدي أن عبّـر عن إحساسه، وقد سمع الرشيد رثاء اليزيدي فقال له: أحسنت يابصري، لئن كنت تظلمُ الكسائي في حياته، لقد أنصفته بعد مماته، وهذا يدلّ على أنّ الـرشيـد كـان خبيـراً بمصـاولاتهمـا العلميّـة، ويعـرف الظـالـم والمظلوم! وأترك العالم إلى الكاتب لأتحدّث عن:

سهل بن هارون

جاء سـهلُ بن هارون بعد ابن المقفع وقبل الجاحظ، حيـثُ بلغ الذروة العليا في الكتابة خلَفاً للأول وسلَفاً للثاني، فأخذ عن الأول قوة المنطق، وجدّة التقسيم، ولـم يتسع في القول اتّساع الجاحظ، لأنّ روح الحكيم كانت لديه أقوى من روح الخطيب، وقد عرف له هارون الرشيد مكانته العليـا في البيان، فآمن روعـه، وأذهب خوفـه، إذ كان كاتب يحيى البرمكي، وصاحبَ توقيعاته.

فلما عصفت العاصفة بالقوم ومَن يلوذ بهم من الأشياع، خافَ سهل على نفسه، واستدعاه هارون الرشيد إليه، فقدم على أفزع ما يكونُ من الـوجل، فبدأه الرشـيد بسؤاله قائلاً: يا سـهل، ما حقُّ مَن غمط

نعمتي، وجانَبَ موافقتي؟ فجفّ الريق في حلقه ولم يُجب، ففطن الرشيد لما به، فعاجَلَه بقوله: ليفرخْ روعُك، وليسكنْ جأشُك: ولتطبْ نفسك، فإنّ الحاجة إليك قرّبت منك، وأبقتْ عليك بما يبسط مُنقبضك، ويطلق معقولك؛ قال سهل: فما عييتُ مرةً في حياتي بردّ الجواب كما عَييتُ حين سمعت عفو الرشيد، فلم أرَ إجابةً غير أن أهوي على قدمه مُقبّلاً، فقال الرشيد باسماً: اذهبْ فقد أحللتُكَ محلّ يحيى بن خالد.

ولعمري إنّ ذلك من كياسة الرشيد، وحُسن سياسته، لأنّ بعض الأغرار من الحاكمين ما ينقمون على إنسان إلا شتّتوا أولياءه، وحرموا الدولة من مواهبهم الجزيلة ومشوراتهم الجليلة، فيكونون هم الخاسرون كما فعل المنصور بابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وهما مَن هما!!.

ولكن الرشيد وجد سهلاً ذا عقل وأدب، ووجد مكان يحيى قد أصبح خالياً بعده، ولابدّ أن يُملأ برجلٍ في مثل حصافته وتجربته، فكان هو سهل بن هارون، وهي مرتبةٌ لم يكن سهلٌ يحلم بها أو بما دونها، بل كان أقصى مناه أن يهبَ الرشيدُ له حياته فحسب! لذلك يقولُ سهلٌ بعد أنْ خرج من لدن الرشيد، وقد ملك أزمّة الديوان العام: كنتُ كمن نُشِر عن كفنٍ، وأُخرج من حَبْسٍ، وممّا يدل على مبلغ سهل من الذيوع في ملئه، أنّ الجاحظ ـ وهو الجاحظ ـ قد قال في بعض ما قال[1]: إنّه كان يؤلّف الكتابَ الجيد فينسبه لنفسه، فلا يرى الأسماع تُصغي إليه ـ وذلك طبعاً

---

(١) أمراء البيان: ١/ ١٦٥.

في بدء حياته الأدبية ـ ثم يؤلّف ما هو أنقص منه مرتبةً، وأقلّ فائدة فينسبُه إلى عبد الله بن المقفع أو إلى سهل بن هارون فيذيعُ بين الناس، ويتهافت على شرائه القارئون! وواضحٌ أنّ ذلك لن يكون إلاّ عن شهرة أدبيّة مستفيضة تمتّع بها سهل بن هارون توازن شهرة عبد الله بن المقفع، وقد أحصى المؤرخون لسهل كتباً كثيرةً وقصصاً وحكايات جمّة، ولكنّها ضاعت في غمار الأحداث، ولم تَبْقَ إلا شذور مما كتب في رواية (تعلة وعفراء) وقد خطّها على نمط كتاب كليلة ودمنة، أما رسالته في البخل فقد حفظها الجاحظ حين سطرها في كتاب (البخلاء) وأحسبه قد تصرّف في أسلوبها لأن روح الجاحظ الكتابي يظهر واضحاً بين سطورها، وكأن المعاني معاني سهل والديباجة ديباجة الجاحظ.

أخذ الرشيد يرقي سهلاً، ويكثر من لقائه، وكان من سابق عهد معه أنه دخل على أمير المؤمنين وهو يضاحك ولده المأمون، فقال[1] على البديهة: اللهمّ زِدْهُ من الخيرات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرْبِياً عن أمْسه، مُقصّراً عن غده، فقال الرشيد: ياسهلُ مَنْ روى من الشعر أحسنه وأرْصنه، ومن الحديث أبْيَنه، لا يُعجزه مثل هذا القول، وظنّ سهل أن الرشيد يقول: إنّ هذا المعنى الذي ساقه في دعائه ليس له، وإنما أخذه من محفوظه الأدبيّ، فقال: ياأمير المؤمنين، ما ظننتُ أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى، فقال الرشيد: بل سبقك أعشى همدان حين قال:

---

(١) أمراء البيان: ١/ ١٦٧، طبعة لجنة التأليف.

رأيتُكَ أمسِ خيرَ بني لؤيٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضعْفاً كذاك تزيد سادة عبد شمسِ

فأطرق سهل إذ لم يشأ أن يعارض الرشيد، وأنا أرى أن المعنى فطري، ويجول في نفوس الكثيرين وليس غريباً على سهل أن يقع عليه، بدليل أنه وقع على أفضل منه في محاورات شتّى رُويت عنه، ومَن يقول لبعض أصدقائه حين شفي من مرض: «بلغني خبرُ الفترة في إلمامها وانحسارها، والشكاة في حلولها وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوّله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرّة في انتهائه، وكان تغيّري في الحالَيْن بقدرهما ارتياعاً في الأولى، وارتياحاً للأخرى»، أقول: مَن يقول ذلك من السهل عليه أن يدعو للمأمون بما سبق أن قاله دون أن يضطر إلى الاقتباس من أعشى همدان.

وحين انتقل الرشيد من الحياة سكن سهل، فلم يُعرف له عمل رسمي قامَ به في الدولة على عهد الأمين، ولعلّ أحد وزرائه خاف من منافسته، فأوحى للخليفة بإقصائه، وذكاء المرء محسوبٌ عليه كما يقال، ولكن المأمون قد عرف له فضله الكبير، كما عرف كيف يضعه موضعه الصحيح حين جعله أميناً على بيت الحكمة، وقد حوت نفائس الكتب التي تُرجمت من الهند والفرس واليونان.

يقول الأستاذ محمد كرد علي[1]:

---

(١) أمراء البيان: ١/ ١٧٢.

«ولا شكّ أن سهلاً تهيّأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة الذي أصبح ناظراً عليه، بما لم يتهيّأ لغيره الوصول إليه، خصوصاً وهمة الخليفة منصرفةٌ إلى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات، ولا يهنأ له بال حتى تمسي الخزانة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا على ما هي تامة في علوم الدين، وقد اتّسع الأفق أمام عقل سهل، ولم تقف به الهمّة عند الأخذ من كتب الفرس، بل تعدّتها إلى الأخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف، وكان اختلاطه برجال الخلافة، وهم من كل صنف ونِحلة وجنس معواناً له على الكمال، وقد يستفيد المرء بالعِشْرَةِ والتلقّي ما لا يستفيدُ من تصفّح دواوين العلم، ومصاحف الفضائل».

وقد أكثر من وصفه بالبخل، والبخل كما يقول صاحب (أمراء البيان) ـ غالبٌ على الفرس، غلبة الكرم على العرب، فاقتضى هذا التبذير من العرب أن يُدلي لقومه بآراء في الاقتصاد والإمساك، وقد حكى الجاحظ أنّ رجلاً لقي سهل بن هارون، فقال له: هبْ لي ما لا ضررَ به عليك، قال: وما هو يا أخي؟ فقال درهم! قال سهل: لقد هوّنت الدرهم وهو طائعُ الله في أرضه، لا يُعصى وهو عُشر العشرة، والعشرة عُشر المئة، والمئة عُشرُ الألف، والألفُ دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هَوَّنته، وهل بيوتُ الأموالِ إلا دِرهمٌ على دراهم؟ فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت سهل عن الاحتجاج للمنع.

وهنا أتركُ الكاتب إلى الرواية النديم، لأتحدّث عن:

الأصمعي

ولا مَعْدى من الحديث عنه في مجال الرواية الشعرية، والنادرة الأدبيّة، فلئنْ كان من الرواة من شاركوه حِفْظ الشعر على كثرةٍ وافرة، فقلّ مَن شاركه حلاوة لسانه، وملاحة نادرته، لذلك كان مجلسه من الرشيد مجلسَ أُنسٍ وأدب، وقد يجتمعُ مع أبي عبيدة وأبي زيْد وغيرهما من حَملة التراث العلمي فيفوق المجتمعين بحلاوة النادرة، وجمال الاختيار، وحسن الإلقاء، حتى قال عنه الشافعي: «إنه بلبلٌ في روض»، وقد نشأ بالبصرة، وارتحلَ إلى البادية، وشافه الأعراب والعلماء حتى امتلأ لغةً وشعراً وتاريخاً، وعرف أنه إنْ ظلّ بالبصرة بعيداً عن بغداد، فلن يبلغ ما يُؤمّل من الجاه، فشدّ الرحال إلى بلاط الرشيد، وظلّ يترقبُ على الأبواب أياماً ذوات عدد، ولكنّه لم ييأس، ولعلّه أخبرَ بعض المقرّبين برسالته الأدبية راجياً أن يتمّ على يديه ما يأمل، فساعفه الحظ في ليلة أرق بها الرشيد، ولم يجد سميراً روايةً فسأل عمّن بالباب، فجاء الطلب للأصمعي، فكانت الخطوة الأولى في سبيل سعادته، وقد تقدّم إلى أمير المؤمنين واثقاً من علمه وقُدرته، فسأله الرشيد: أشاعرٌ أم راويةٌ، فقال: روايةٌ لكلّ ذي جِدّ وهزل بعد أن أكون مُحسناً، فقال الرشيد: ما رأيتُ ادّعاءً أعظم من هذا.

ومجلس الأصمعي الأول في حضرة الرشيد مما يطولُ سرده، وقد جاء مفصّلاً في (خزانة الأدب) للبغدادي و(أمالي المرتضى)، وأحاول إيجازه فأقول:

إن الرشيد سأله عن المثل العربي «أنصف القارّة من رماها» فأجابَ بما لا مزيد عليه، ثم سأله أن يَروي بعض أراجيز رُؤبةٌ ووالده العجاج، وهي من الصعوبة بمكان، فروى مُشْبعاً ممتلئاً، وانتقل الرشيد من الرجز إلى الشعر، فسأل الأصمعي عن أشعار لعدي بن الرقاع وما دار بصدد أبياتهما من نقاشٍ بين الفرزدق وجرير، فأوفى، واطمأن الرشيد إلى صاحبه، فنفحهُ بجزيل العطاء، وأمره أن يكون قريباً من مجلسه.

ولم يقنع الأصمعي بتفوّقه في مجلس الاختبار الأول، بل آثر أن يجتمع مع كبار المختصين بمجلس الرشيد من خيار العلماء والرواة ليُناقشهم، وقد وثق بالغلب والنصرة، فأصبح زائراً مرهوباً بالنسبة لمن لا يملكون ما يملكُ من الإفصاح وحُسن التأتّي، وقد تحدّث الكسائي ذاتَ مجلس في بعض أحاديث اللغة، فعارَضهُ الأصمعي، فقال له الكسائي: ما لك واللغة؟، فقال الأصمعي: أختبِرُكَ أنا فيها لأعْلَمَ ما لديكَ! فسأل الكسائي ساخراً: وأي شيء عندك؟! فقال الأصمعي: ما يعني قول الراعي:

قتلوا ابنَ عفّان الخليفة مُحرماً ... ودعـا فلـم أرَ مثلـه مخـذولا

فقال الكسائي، وأي شيء هذا؟ كان مُحرماً بالحج، فاهتبلَ الأصمعي الفرصة وقال: وإذن ماذا كان معنى الإحرام في قول القائل:

قتلـوا كسـرى بليـلٍ مُحـرمـاً ... فتـولّـى لـم يُمتَّـع بكفـنْ

هل كان محرماً بالحج أيضاً؟ فتلجلج الكسائي، وانطلق الأصمعي

يقول: خذْها عنّي، قول الشاعر الأول عن عثمان رضي الله عنه إنه كان مُحرماً أيْ في حرم الإسلام، لأنّ الأيام لم تكن أيام حج، ومن ثم قيل: مُسلمٌ محرم أي لم يُحلّ من نفسه شيئاً يوجب القتل، وهكذا كان عثمان، أما قول الشاعر الثاني عن كسرى إنّه كان محرماً فمعناه أنه أخذ حُرمةَ العهد الذي كان له في عُنُق أصحابه، ولم يَرْعَ ذلك مَن قتلوه!! وسكت الكسائي مقدّراً مكانة الأصمعي في اللغة، وبهذه الطُّرَف وأمثالها عظمت مكانة الأصمعي لدى الرشيد!.

وإذا كان الأصمعي قد طاف في ربوع الصحراء، وشافَه الأعراب، ونقلَ عنهم، فإنّه كان يمتِّع الرشيد بنوادر يصوغها بأسلوبه الفريد فيهتزّ لها المجلس، ويتناقلها السامعون، فتصبح أثراً يُروى، وفي بعضها من الطول ما يصلح أن يكون نمطاً عالياً من أنماط البيان الرفيع، ومن ذلك ما حكاه الأصمعي عن أعرابية حزينـة معتزلة بمكان موحـش، وهو في رأيي من أنْفس ما حكاه هذا الراويةُ العجيب حين قال[1]:

دُفعتُ يوماً في تلمّس البادية إلى وادٍ خلاء، لا أنيس به إلا بيت منفرد، وفي فنائه أعْنز، وقد ظمئتُ، فيممته، وسلّمتُ فإذا عجوز قد برزتْ كأنها نعامةٌ تحتضنُ بيضها، فقلت: هل من ماء؟ فقالتْ: أوَ لبن؟ قلتُ: ما طلبتُ غير الماء، فإذا يسّر الله اللبن فإني إليه فقير، فقامت إلى قعب فأفرغتْ فيه ماءً، ونظّفتْ غَسْلَه، ثم خفّت إلى الأعنز، فجعلتْ تحلُب منهنّ حتى كاد يمتلئ، القعب، وطفتْ رغوته كأنها غمامةٌ بيضاء،

---

(١) الأمالي: ٢/٧.

ثم ناولتني إياه فشربتُ واطمأننتُ ثم قلت: إني أراكِ منفردةً في هذا الوادي الموحش، والحلّة منك قريب، فلو انضممت إلى الناس؟! فقالت: يابْنَ أخي: إني لآنس بالوحدة، وأستريح إلى الوحشة، ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر مَن عهدتُ، فكأنّي أخاطب أعيانهم، وأتراءى أشباحهم، وتتخيّل لي أنديةُ رجالهم، وملاعبُ وِلدانهم، ومَنْدى أموالهم، ثم قالت: لقد رأيتُ هذا الوادي بشِع اللدِيدين[1] بأهلِ أدواحٍ وقباب، ونعَم كالهضاب، وخَيْلٍ كالذئاب، وفتيانٍ كالرماح، يُبارون الرياح، ويمحون الصباح، فأحالَ عليهم الجلاء كنْساً بغرْفة، فأصبحتِ الآثار طامسة، والمحال دارسة، وكذلك الدهر فيمن وثق به، ارْمِ بعينكَ في هذا الفضاء، فنظرتُ فإذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين، فقالتْ: أترى تلك الأجداث؟. قلت: نعم، قالت: ما انطوتْ إلا على أخٍ أو ابن أخٍ أو ابن عم، فأصبحوا قد احتوتْ عليهم الأرض، وأنا أترقّب ما خالهم، فانصرفْ راشداً يرحمكَ الله.

لا جرمَ قد قالت العجوز هذه المعاني بعبارةٍ فصيحةٍ، ولكنّ الأصمعي لا يستطيع أن يتذكّر النص المقول، فرجع إلى ذهنه ليصور المعنى العام بما يعيده حاملاً بعض ألفاظه، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها.

وقد روى ابن خلكان في ترجمة الأصمعي بعض جداله مع أبي عبيدة في حضرة الرشيد، ثم نقل عنه أنه كان شديد الحرج في تفسير

(١) واسع الجانبين.

كتاب الله وسنّة الرسول ﷺ، لا يجرؤ أن يقولَ في معنى لفظٍ ما يفد على خاطره أوّل مرة، ويقول لسائله: إنّه القرآن! ولا أعلم المراد به عن يقين، وهذا ما يُعطي تصوّراً لنفسيّة الأصمعي المؤمنة المحترزة، فقد صنّف أبو عبيدة كتاباً سمّاه (مجاز القرآن) يشملُ تفسير ما استعصى من الغريب وغير الغريب، أما الأصمعي فكانت مؤلّفاته عن الشعر، وكأنه يرى الخطأ في أقوال الناس مما يُستدرَك ولا خطرَ فيه. أما الخطأ في تفسير كتاب الله وسنّة الرسول ﷺ فصاحبه مسؤول فمؤاخذ!.

كما نقل ابن خلكان هذه الطرفة[1]: «قال الأصمعي: ذكرتُ يوماً للرشيد نهم سليمانَ بن عبد الملك، وقلتُ: إنه كان يجلس، وتحضُر بين يدين الخِراف المشويَّة، شديدةَ الحرارة، وقد خرجتْ لساعتها من التنور، فيريد أخذها فتمنعه شدّة الحرارة، فيجعلُ يده على طَرْفِ حُلته، ويُدخلها في جوف الخروف ليأخذ ما بداخله، فقال الرشيد: قاتلَكَ الله، ما أعلمكَ بأخبارهم! لقد عُرضت عليّ ذخائر بني أمية، فنظرتُ إلى ثيابٍ مذهّبة يمنية، وأكْمامها مَصْبُوغةٌ بالدهن، ولم أدْرِ سبباً لذلك حتى سمعتُ منك هذا الحديث، ثم قال: عليّ بثياب سليمان، فأُتي بها وأشار إلى ما لا حظَه من الآثار، وأعطاني منها حلّة، فكنتُ أخرج بها أحياناً وأقول: هذه جبّة سليمان بن عبد الملك، كَسَاني بها الرشيد».

وحديث الأصمعي يطول، فلأنتقل إلى حديث الشاعر:

---

(١) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٤٧.

ربيعة الرقي

كان من المنتظر أن أختار شاعراً من المشهورين مثل مسلم بن الوليد أو أبي العتاهية أو العباس بن الأحنف أو غيرهم من المشاهير الذين وسعهم بلاط الرشيد، وأكثروا من الغدوات والروحات إليه، ولكنّي اخترتُ (ربيعة الرقي) لأنّ في صلته المبدئية بالرشيد، ما يدلّ أكبر دلالة على اهتمام الخليفة بالشعر، وتقديره إياه تقديراً فاق كلّ حد، وقد تُغْني الحادثة الواحدة في دلالتها الواضحة عن سرد كثير من الأخبار.

نقل أبو الفرج[1] أن ربيعة الرقي امتدحَ العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يُسبَق إليها يقول فيها:

لو قيل للعبّاس يا بنَ محمد ... قلْ: لا، وأنت مخلّد ما قالها
ما إن أعدُّ من المكارم خصلةً ... إلا وجدتُكَ عمّها أو خالها
وإذا الملوك تسايرتْ في بلدةٍ ... كانوا كواكبها وكنت هلالها
إن المكارمَ لم تزلْ معقولة ... حتى حللت براحتيْكَ عقالها

فبعثَ إليه العباس بدينارين، وكان يقدّر عنده ألفين، فلمّا نظر إلى الديناريْن كاد يُجنّ غضباً، وقال للرسول: خذ الدينارين فهما لك على أن تردّ إليَّ الرقعة التي كتب فيها مدحته من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذ ربيعة الرقعة وأمر مَن كتب في ظهرها:

---

(١) الأغاني: ١٥/ ٣٨، طبعة الساسي نقلاً عن قصص العرب: ٢/ ٣٠٥.

مدحتُكَ مدحةَ السيف المحلّى لتجري في الكرام كما جريتُ
فهبْها مدحةً ذهبتْ ضياعاً كذبتُ عليكَ فيها وافتريتُ

ثم دفعها إلى الرسول، وقال: ضعها في الوضع الذي أخذتها منه، ففعل.

فلما كان من الغد، أخذَها العبّاس فنظر فيها، فلما قرأ البيتين غضب، وقام من فوره، فركب إلى الرشيد، وكان أثيراً عنده يُجلّه ويقدّمه، وكان قد همّ أن يخطب إليه ابنته، فرأى الرشيد الكراهة في وجهه، فقال: ما شأنك؟ قال: هجاني ربيعة الرقي، فأحضرهُ الرشيد، وقال: أتهجو عمّي! وآثرَ خلق الله عندي، لقد هممتُ أن أضرب عنقك، فقال: ياأمير المؤمنين، والله لقد امتدحْتُه بقصيدة ما قال أحدٌ مثلها من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء، ولقد بالغتُ في الثناء، وأكثرتُ من الوصف، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فعل.

فلما سمع الرشيد ذلك، سكن غضبه، وأحبّ أن ينظر في القصيدة، فأمرَ العباسَ بإحضارها فتلكّأ عليه، فقال له الرشيد: سألتكَ بحقّ أمير المؤمنين إلاّ أمرْتَ بإحضارها، فأُحضرتْ، فإذا القصيدة بعينها، فقرأَها واستجادها، وأُعجب بها، وقال: والله ما قال أحدٌ من الشعراء في أحدٍ من الخلفاء مثلها، ولقد صدق ربيعة وبرّ.

ثم قال للعباس: كم أثَبْتَهُ عليها؟ فسكت العباس، وتغيّر لونه وغصّ بريقه! فقال ربيعة: أثابني عليها بدينارين ياأمير المؤمنين، فتوهّم الرشيد

أنه قال ذلك من الموْجدة عليه، فقال: بحياتي يارقّي كم أثابك؟ فقال: وحياتك ياأمير المؤمنين ما أثابني إلاّ بدينارين.

فغضب الرشيد غضباً شديداً، ونظرَ في وجه العباس، وقال: سوءةً لك، أيةُ حالٍ قعدتْ بك عن إثابته؟ أقلةُ مال؟ فوالله لقد موّلتك جهدي، أم انقطاعُ المادة عنك، فوالله ما انقطعتْ، أم أصلُكَ؟ وهو الأصل الذي لا يدانيه شيء؟ أم هي نفسك؟ لا ذنب لي، بل نفسك التي فعلتْ بك ذلك، حتى فضحتَ أجدادك وفضحْتني، وفضحتَ نفسك، فنكّس العباس رأسه ولم ينطق.

ثم قال الرشيد لغلامه: أعطِ ربيعة ثلاثين ألف درهم، وخلعة، واحملْه على بغلة، ثم قال له: وحياتي لا تذكره في شيء من شعرك تعريضاً ولا تصريحاً، وفتر الرشيد عما كان قد همّ به من أن يصهر إليه، وأظهر له بعد ذلك جفاءً واطّراحاً.

هذا الموقف وحده يدلّ على عناية الرشيد بالأدب بعامة والشعر بخاصة، وأنّه كان يراه لسانَ الدولة وتُرجمانها الناطق، فيجزل للشعراء عطاءهم كما يوفّوا الدولة حقّها من الوصف البارع قبل أن يصفوا الممدوح! وإنّ خليفةً ينظر هذه النظرة إلى الأدب والأدباء، والشعر والشعراء لجديرٌ أن تنشأ في عهده حركة أدبية كانت من أقوى النهضات الفنية في عالم الإبداع.

* * *

العصر المفترى عليه

لا يوجد عصرٌ من عصور الدهر سار أهله على وتيرة واحدة، إذ لا بدّ من أن تَختلف الأهواء، وتتعدد المشارب، فحين ترى المتحرّز عن الشبهات المتمسك بالقيم، ترى معه المتبذل المستخف بقوانين المجتمع وعادات العُرف، فلا يصح إذن أن يحكم إنسانٌ على عصر من العصور بطابع عام يشمل أفراده، لا سيما إذا كان هذا العصر من الاشتهار الذائع، بحيثُ سُجّلت أحداثه، وعُرف الكثير عن رجاله البارزين، وقامت التراجم التاريخية المتسفيضة بالحديث عن المئات من المشتهرين في فنون العلم والأدب والسياسة والحرب، مَن يجرؤ على ذلك إنما يتحدّى الواقع الملموس، فإذا أحْسَنَ التصوير الأدبي مستعيناً بخياله، فإن هذا الذي أحسنَه لا يُغني من الحق شيئاً، إذ إنّ التصوير التاريخي لا بدَّ أن يستند إلى دعامةٍ من الواقع المُتيقّن.

وقد يختلف المؤرخان في تفسير حادثٍ، أو الحكم على شخصية، ولكنّ هذا الاختلاف تضيقُ شقّته حين يأتي مؤرخٌ ثالث فيقارنُ بين الأدلّة المتعارضة، ويناقشُ التمحلات الواهية، وينجلي على يده الحق سافراً دون نقاب.

لقد حاول الدكتور طه حسين في مبدأ ظهوره الأدبيّ أن يفاجئ الناس بما لا يعهدون، والمفاجأةُ لا تكون إلاّ بذكرِ الأحكام الغريبة، والآراءِ اللافتة للأنظار بخطورتها، ومتى قصد الباحث أن يلفت نظر القارئ بضجة قارعة، فلا يهمّه أن يصل إلى الحق قدر ما يهمّه أن يثير الصخب، وهذا ما كان من أمر الدكتور طه في مبدأ ظهوره الأدّبي، فقد حَلاَ لَهُ أن يتحدّث عن أزهر عهـود التقدّم الحضاري في تـاريخ العرب حديثَ مَن يدمغ هذا العصر بالتحلّل والمجون، وقد سمّى الأشخاص تسميةَ من يُريد أن يشهّر بأقطاب الخلافة ورجالِ الحكم، ومِن ورائهم الرّعية والسواد من الناس، لأنّ الرأس إذا فسد فسد الجسم، وكانتْ وسيلته إلى ذلك قصائد المبتذلين من الشعراء كأبي نواس وبشار، ومن يلفّ لفَّهما من شعراء المجون، وإذا كانت دواوِيُن هؤلاء طافحةً بالْغِيّ وأفانين اللهو. . فهذا وحده هو الدليل على انحدار المجتمع بأجمعه في هوَّة الخلاعة والفحش، فلْيصل الكاتب مصالَه في هذا النطاق متخذاً من أقوال الماجنين وحدهم دليله الذي يمتدّ حكمه على الشرفاء! أما كيف يمتد الحكم دُون سـند قوي، وُدون حَيثيـةٍ دالة؛ فهذا ما لا يهتم بـه الدكتور طه حسين، وهذا ما آخَذَهُ به معارضوه، وهم مُحقّون.

يقول الدكتور طه في إيضاح دعواه[1]: ولكنْ إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورةً صادقة، تحكم بها عليه حكماً صادقاً فأنت مضطرٌ

(١) حديث الأربعاء: ٢/ ٣٥، الطبعة الثانية.

إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكُتّاب، أكثر مِن رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة، لأنّ الشعراء والكُتّاب يمثّلون الجماعة حقّاً، ويُعبّرون عن أهوائها وميولها، ويصفون ما تضطربُ فيه من ضروب الحياة.

أفتظن أن شاعراً كأبي نواس يبلغ ما يبلغُ من الشهرة حتى يُفتن به الناس في بغداد، وغيرها من مُدن العراق، بلْ في الشام ومصر، حين ذهبَ إلى الشام ومصر، فيحفظون شعرَه ويتَنَا شدونه، ثم يُضيفون إليه كلَّ ما أعجبهم من شعرٍ فيه هزلٌ ومجون، وليسَ له قائلٌ معروف، ثم لا يكتفون بذلك، بل يَرْوُون عنه الروايات، وينتحلونَ له القصص، ويتحدثون عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب.

أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالاً للّذة ونعيم الحياة، فيكلفونَ به هذا الكلف ـ إذا لم يكنْ أبو نواس لسانهم الصادق، ومرآتهم الصافية؟ كلاّ. لَيَس من شكّ في أن صلةً حقيقيةً قويةً كانت تصلُ بين هؤلاء الشعراء، وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعُلُ هؤلاء الشعراء تراجمةً صادقين لما يخطرُ لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطربُ في نفوسها من عواطف، في حين كان الفقهاء والمتكلمون رُواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه، وعلى الكلام يمحصونه، وعلى الحديث يرووْنه، وعلى الأخبار يلتقطونها ويذيعونها بين الناس، وكانوا في هذا لا يَنطقون بلسانِ أحد، ولا يعبّرون عن رأي أحد، ولا يمثّلونَ إلاّ العلم الذي يعنون به، ويعكفون عليه، بل ربّما وجب علينا أن نشك

بعض الشك، ونحتاط بعض الاحتياط حين نذكر وَرعَ هؤلاء العلماء، وإمعانَهم في البرّ والتقوى، فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً، ولكن كان منهم الذين يُحبون الحياة ويتذوَّقون لذَّاتها، ويظهرون للناس برَّاً وديناً، ومِن ورائهما شيء كثير.

ولعلَّك تذكر ما يُروى من أخبار يحيى بن أكثم الذي كان قاضي المأمون ونديمه، ولعلك تذكر ما يُروى من أخبار أبي عبيدة معمر بن المثنى، وما كان بينه وبين الشعراء، بل لعلّك تذكر ما يُروى من أخبار الخلفاء أنفسهم، وما كانوا يُمعنون فيه من لهو ولعب، دون أن يمنعهم ذلك أن يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء، ولقد آن لنا ألا نَخدع أنفسنا بما كانَ يُخدع بـه ابن خلدون نفسـه، في أمر الرشيد وأمثال الرشيد، لقد تحدّثوا أن الرشيد كان يُصلّي كلّ يوم مئة ركعة، وأنّه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظنّ ابن خلدون أن هذا وحدُه يكْفي لتبرئةِ الرشيد مما أُضيف إليه من أنّه كان يلهو ويسكر، وكذلك ذكروا عن المأمون خِلالاً نقية، وخصالاً طاهرة، ربّما صحت كلها، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر».

هذا لُباب ما قاله الدكتور طه حسين، ولا أدَّعي أنّني وحدي الذي أَقوم بتصحيحه، وردّ خطئه، فقد نهضَ لذلك نفرٌ من أفاضل الباحثين، كانتْ حجتهم مُلزمة، وأدلهتُم قاطعة. وقد التفت الأستاذ الدكتور محمد حسين عبد الحليم إلى تدوين خلاصاتٍ وافيةً لما قاله هؤلاء[1]، في

---

(١) بين التديّن والمجون، د. محمد حسين عبد الحليم، ط. أولى، ١٩٨٦م.

كتابه (بين التدين والمجون في شعر العصر العباسي)، وموضع القوةِ في هذه الخلاصات أنّه اختارَ لكلٍّ ناقدٍ وجهةَ نظرٍ صائبة تهدم ما امتدّ به الدكتور من القولِ، وبائتلاف هذه الآراء في نسق مطرد يظهر ما تورط فيه الدكتور من الخطأ، ولعلّ القارئ يُدرك أنّنا لا نتحيّز لغير الحق فيما نكتب، فما بنا أن نُشَهِّرَ بإنسان لَقى ربه، وأصبح عمله بين يديه، ولكنَّ كتابه يتردّد بين الأيدي، وله سيرورة شهيرة إذ تعددت طبعاته، فلَزِم أن يبيّن ما فيه من مجانبة للصواب، وذلك حق العلم على أهله، إذا كَتَب عليهم أن يظهروه ولا يخفوه.

وأوّلُ مَن نبدأ به من النّاقضين لهذه الآراء هو المؤرخ الكبير الأستاذ رفيق العظم، حيثُ كتب رداً على الدكتور نَشرتْه جريدةُ السياسة التّي كانت المسرحَ الأولَ لهذه الآراء، ونَقَله الدكتور طه بالجزء الثاني من كتابه يردّ عليه.

ولا أستطيعُ أن أنقلَ مقال الأستاذ العظم لضيق المجال، ولكنّي أُلخص أهمّ عناصِره حين أَنْقلُ من قوله: «إنّ الحقائق التاريخيّة تُشبه الدَّر المُلقى بين الأشواك. وهي تحتاجُ إلى أناةٍ وبُعد نظر ليسلمَ صائدُها من أذى الشوك، وقد عَانى رُواة الحديث كثيراً كثيراً حتّى وضعوا مِن القواعد ما يميِّز الحديث الصحيح من سواه، وإذا كان هذا شأنَ الحديث النبوي الذي يدفعُ روايه إلى وُجوب الصدق، فما ظنّك بأخبار الخلفاء ومَن دونهم من الناس.

لقد أَنتج التنازعُ السياسي بين الأمويين والعباسيين والفرق

الإسلامية المختلفة أباطيلَ دُوّنت لتصم أناساً بما هم منه برآء، وجاء القصّاصُون فاخترعُوا الحكايات والوقائع لخدمة فريق خاص، ونصرتـهِ على فريق آخر، فَـوجب أن نحتاط في تصديـق كل ما يُروى ويدوّن، ولو سلّمنا بصحة ما أذاعه المُغرضون لكان التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى أسوءَ ما يُكتب في تاريخ الإسلام. ولا يُصدّق ذلك أحد، كما أنّ ابن خلدون قد أصاب في إنكاره ما لُفّق حول الرشيد من قصصٍ شائنة، لما عُرف عن ابن خلدون من بُعد النظر، وصحة رأيه في طبائع الأمم، وأمور الاجتماع. وابنُ خلدون في رأي المُنصفين أوثقُ خبراً وأصدق كلاماً مما يرويه الماجنون عن كرام الناس»[1].

وقد كان الدكتور طه حسن قد تعرّض لأبيات قالها أبو نواس في الندم والاستغفار، في قصة تحكي مناسبتها، فأنكرها وحكم بوضعها، فقال الأستاذ رفيق العظم بصدد ذلك[2]:

«إنّ الذي سوغ للدكتور طه الشك في صحة هذه القصّة، يجوّز الشك في صحة أكثر الروايـات والقصص التي نُقلت عن أبي نـواس، وغيره من شعراء المجون، ويُثبت أنّها قصصٌ موضوعة، ليسَ لها قيمة تاريخيّة، فلا يصح أن تُتخذ مثالاً صادقاً لذلك العصر، وإذا قُرِئت فإنما تُقرأُ لأنّ فيها فُكاهة وتَرويحاً عن النفس، لا لأنها أمثلة من تاريخ أمّة كان

(١) حديث الأربعاء: ٢/ ٦١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق نفسه.

عصرُها عصرَ جدٍّ لا هزل، وعصرَ نهضةٍ علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمّة في عشرات السنين».

هذا الرد المنطقي الحاسم كان من المنتظر أن يجدَ من الدكتور طه اقتناعاً، أو مُعارضةً بالدليل، ولكنه في ردّه[1] مالَ إلى نهجٍ خطابي حيث ترك النقاط التاريخية الملزمة إلى معنى عام هُو أنّ الأستاذ رفيق العظم ممن يُسبغُون على التاريخ الإسلامي صفةً من الجلال والتقديس الديني تَحولُ بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على العقل والبحث العلمي الصحيح. فهم يُؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم، وتقديس مكانتهم، وهم يُضيفون إليهم كلّ خير. وينزّهونهم عن كل شر، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال، ويرفعونهم عن صغائرها، وهم يتّخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث، ومقياساً من مقاييس النقد، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً لا يكون هذا الشيء صحيحاً، إلاّ إذا كان في نفسه خليقاً بالرشيد، يليقُ بمكانته، وليست هذه المكانة هي مكانتهُ في نفسها، وإنما هيّ المكانة التي خلعها عليه القوم، وبُعدْ العهد، وجلال الخلافة، وكرامة الدين، وسطوةُ الأمة العربية.

أما النقدُ التاريخي من حيث هو نقدٌ تاريخي، وأما النظرُ إلى الناس من حيث أنهم ناس، ووصفهم بما يمكن أن يُوصف به الناس، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات، وما اكتنفها

---

(١) حديث الأربعاء: ٢/ ٦٢.

من الظروف والأحوال، فذلك شيء قلَّما يفكر فيه هؤلاء».

وهذا كلام لا يمتُّ إلى الواقع بسبب؛ لأنّ القدماء قد شرّعوا ما يسمّى بالجرح والتعديل تقيماً للرجال في كل فنّ من فنون العلم، وفي كل موقف من مواقف السياسة، والمُحَدِّثُونَ لهم اتجاههم النقدي الذي لا يَخلعُ القداسة على فرد، فهم يزنون الأعمال بميزان من الحيدة والإنصاف.

وأذكر أني أفضت في هذا الموضوع في مقال نشرتُه بـ(المجلة العربية) السعودية رددت فيه على هذا القول بما يضعُ الحق في نصابه، إذ قلت[1]: «إن ما قاله الدكتور عن الأستاذ رفيق العظم يُجانبُ الصواب، فليسَ لأحدٍ من الناس قداسة عند أحد، إلاّ بما تحقّق صُدوره عنه من جليل المواقف، وصادقِ الأعمال، وقد ألّفَ الأستاذ رفيق العظم كتابه الذائع (أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة) في أكثر من سبعمئة صفحة، تتحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان، وأبي عبيدة وخالد بن الوليد والمثنّى بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاصِ وغيرهم من أبطال الصحابة؛ وهم أقدمُ سَلفيةً من هارون الرشيد، وأعرقُ سابقةً في أمجاد الإسلام، فلم يكن الأستاذ العظم في حديثه التاريخي غافلاً عن إبداء الملاحظات النقدية لما تختلفُ فيه وجهة النظر من الحكم على الأعمال.

---

(١) (المجلة العربية) السعودية، جمادى الثانية، ص١١٤، سنة ١٣٩٩هـ.

فالقولُ بأن الأستاذ العظم ومَن يسيرون في اتجاهه، يخلعونَ قداسةً على تاريخ السلف قولٌ لا يؤيده الواقع المشاهد، ولكنّ هؤلاء المحققين يتّئدون في أحكامهم، ولا يلتفتون إلى القصص المكذوبة ليتّخذوا منها رواجاً صحفياً لدى طائفةٍ من الشباب تَرى فيما يُعرَض من شِعر العبث ريّا لظمئها المتعطش. ولو قال الدكتور طه حسين، إن طائفةً من شعراء العصر العباسي سلكتْ مسلك المجون. واستهوتْ بعض الناس ما خالَفه أحد، ولكنه قال: إن هذه الطائفة تمثّل روح العصر، وتمثّله أدق تصوير، وهذا شطُطٌ مسرف ينكره الواقع الصريح».

هذا عن الأستاذ العظم، أما الأستاذ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العُليا حينئذٍ، فقد كان أقسى لهجةً وأشدّ تقريعاً، وقد وَجد من يلومه على ارتفاع نبرته النقدية، وإذا جاز ذلك، فاللومُ أيضاً يتجه إلى الدكتور طه، لأنّ لهجته ضدّ السابقين قد تجاوّزت كل اعتدال.

وقد بدأ(١) الأستاذ سليمان ردَّه بذكرِ مُناقضات صارخة وقعتْ في كلام الدكتور طه، إذ حكم على شعراء العصر جميعاً بأنهم يمثّلون جميعَ الناس بطوائفهم المختلفة، ثم قال: إن بعض الطوائف يميلون للجد ولا يذهبون مذهب المجون! وَتساءل كيف يحكمُ الكاتب بأن خمسة شعراء يمثّلون وحدهم كلّ اتجاهات العصر وفي طليعتهم أبو نواس،

---

(١) نشـر الأستاذ سليمان مقالاته النـاقدة في جريدة المقطم، ونقلتها مجلة نور الإسلام بعددي محرم وصفر، سنة ١٣٥١هـ.

الذي يُمكن أن يكون المثل المنشود، لذلك كان الرشيد في منطق الدكتور ماجناً مازحاً لأنه لم يخرجْ عن عصره في شيء! يقول الدكتور:

«إن الرشيد كان يلهو ويسكر. وإن ابنه المأمون كان يلهو ويشرب الخمر. وما قاله ابن خلدون عن الرشيد لا يجب أن نلتفت إليه، لأني لا أُخدع بما خُدع به من أنه كان يصلي مئة ركعة»، وهذه معانٍ وَجدتْ من قلم الأستاذ محمد سليمان براعةً في تفنيدها، حيث تساءل: إنّ الدكتور لم يبيّن لنا لماذا يُصدّق عن الرشيد أنه كان يلهو ويسكر، ولا يُصدّق عنه أنه كان يصلي مئة ركعة، وأنه أمضى حياته في الحج والغزو، ألأنه قاس حياته بحياته، فرأى استحالة ذلك الصّلاح على الرشيد، أمْ عَلِم الدكتور عن القرون الأولى ما لم يْعلمه ابن خلدون، أم أنّ الكتب التي يسقط عيها أقومُ وأعدلُ من أمهات التاريخ، وكُتب الرواة المسلسلة المُعنعنة، فيعتمد على أمثال (أعلام الناس) وقصص أبي نواس، وحواديت ألف ليلة وليلة، تاركاً أقوال ابن خلدون وابنْ جرير وابن قتيبة وغيرهم من أركان التاريخ وناقليه، لقد أشفقتُ على القراء أن أنقل لهم من تلك الكتب المعتبرة ما قالته في الرشيد والمأمون تكذيباً للشيخ طه حسين، ونحسبُ أننا إن فعلنا ذلك لم نأتِ لهم بجديد، فقد رأينا تلك البراهين الخارجة من معمل (حديث الأربعاء).

وختم الأستاذ محمد سليمان مقاله بقوله: «لقد بصّرتُه بمزالق أقلامه، وتخابط أقدامه، وأردتهُ على وجهة الصلاح، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، وكان الظن في حياته أنه يأباه».

وهذا القول يشير إلى ناحية في سلوك الدكتور طه الأدبي، لأنّه وُوجه بكثيرٍ من الردود، فلمْ يردّ إلاّ على القليل منها، تاركاً ما هو أشد حجة وأبعد مصالاً، وإذا كان يُبدي الترفع على نقداتِ العلماء من أساتذة الأزهر كالشيخ محمد سليمان، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمد أحمد عرفة، والشيخ عبد المتعال الصعيدي، وكلّهم قد نقد فأصاب المحز، وطبق المفصل كما يقال؟ فلماذا لم يرد الدكتور على الناقد الشهير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني وقد نقد (حديث الأربعاء) بما ينسفه نسفاً! وكان مقال المازني (العمى والغريزة الجنسية) طعنةً قاتلة لاتجاه طه في تحليل قصائد الشذوذ والمجون بالذات! إنّ بعض ما كتبه المازني مسطور في كتابه (قبض الريح) وللقارئ أن يرجع إليه إذا شاء.

على أن هناك نقطةً هامة في حديث الأستاذ محمد سليمان لا ينبغي أن تُترك دون تنويه، فقد فرّق الأستاذ فرقاً واضحاً بين ما ترويه كتب الأدب والنوادر من مسامرات، وبين ما يرويه المؤرخون الأصلاء من أمثال الطبري وابن قتيبة، إذ إنْ الكتب الأولى ليست مصدراً تاريخياً معتمداً، وحسبك أن تعلم أن كتاب (الأغاني) على بُعد صيته، وسيرورة ذكره لا يصلح أن يكون مصدراً تاريخياً، ولكنه مصدر أدبي فحسب، وإذن فالرجوع إلى المصادر التاريخية المعتمدة هو أدّل ما كان ينبغي أن يتجه إليه الدكتور في حديثه عن الرشيد والمأمون، ولكن تصميمه على إدانة العصر العباسي جعله يهزأ بأقوالِ ابن خلدون، ويركن إلى روايات بعض العابثين من أخبار بشار ومطيع وأبي نواس!! وقد كتبتُ من قبلُ في فصل: (سلوك الرشيد بن كتب التاريخ وكتب الأدب) ما يشفي القارئ

بالدليل المقنع والبرهان الصحيح فلا أطيل بعد هذا السبح الطويل.

لقد قلت: إني أختار من كل ناقد ممّن ذكرت وجهة نظرٍ جديدة لم يسبق أنْ قالها غيره معرضاً عما اشتركوا فيه من الأحكام الناقدة ذاتِ البرهان الدقيق، وهأ نذا أرجعُ إلى ما قاله الباحث المحقق زميلي الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الباشا ـ رحمه الله ـ، وهو من ألمع الباحثين أصالةً، وأشدهم غيرةً على الحقائق العلمية، إذ كتب مقدمةً لبعض المجموعات الشعرية ذات الطابع الديني التي أشرف على إعدادها مع فريقٍ من نابغي طلبة كلية اللغة العربية بالرياض حين كان أستاذاً للنقد والأدب بها، فأبدعَ فيما قدّم به هذه المجموعات على تتاليها المستمر، ومن أصدق ما قاله بهذا الصدد ما كتبه في مقدمة مجموعة: (شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول) حيث قال[1]:

«إن ما ذكره الدكتور من أن هذا العصر يضمّ أعلامَ المجون من أمثال بشار وحماد عجرد ووالبة وأبي نواس وابن الضحاك لا يدّل على ما ذهب إليه، فبشارُ بن برد ظلَّ يُضرب بالسياط جزاءَ مجونه وزندقته حتى مات تحت الضرب، وحماد عجرد قُتل غيلةً بالأهواز، فلم يُقَدْ به أحد، والحسين بن الضحاك عاشَ شريداً، بعيداً عن بغداد خيفةً من بطش المأمون، لخلاعته، أما أبو نواس الذي جعله الدكتور طه حسين مثلاً

(١) مقدمة (شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول)، جمع وتحقيق الأستاذ عبد الله الجعيثن، بقلم الدكتور عبد الرحمن الباشا.

لأمّة الإسلام في عصره، فما كانَ يُخرج من سجن حتى يدخل في آخر، سَجَنَه الرشيد لمجونه أكثر من مرة، وجعل القيد في رجله وهو سجين، كما سجنه الأمين أكثر من مرة. . وقد سجنه الأمين ليحافظ على سُمعته ومظهره أمام المجتمع، فما كان المجتمع الإسلامي ليرضى عن خليفةٍ يقرّبُ شاعراً مثل أبي نواس، كما أنّ أنصار المأمون الذين يعرفون طبيعة مُجتمعهم أكثر مما يعرفها الدكتور طه حسين، ويدركون ما يُحب المجتمع وما يكره أكثر مما يُدرك، اتخذّوا من صِلة الأمين بأبي نواس سلاحاً يحاربونه به، فجعلوا يصعدون على المنابر في خراسان، وينشدون على الناس شعره في الخمر والمجون، ويقولون للناس: هذا شاعر الأمين! بغية تشويه صورته أمام المجتمع، تمهيداً للدعوة إلى نبذه وخلعه، فلو كان الناس على دين خليفتهم لما شهروا في وجه سلاحاً».

كما وُفّق الدكتور الباشا في تحليله التاريخي الدقيق حين قال ما معناه: «وما احتجّ به الدكتور طه حسين من أن القرن الثاني بُدئ بخلافة الوليد بن يزيد وخُتم بخلافة الأمين بن الرشيد، لا يُسندهُ في دعواه بل هو حجة عليه لا له، لأنّ المجتمع الإسلامي الذي وسمَهُ بالتحلل والمجون والانحراف والنفاق، رَفض هذين الخليفتين أشدّ الرفض، وأنكرهما أشدّ الإنكار. ولم يَقفْ منهما موقف المهادن الملاين. وإنّما وقف منهما موقف المعادي المجاهر، ونَاضَلهما بسيفه ولسانه.

أمّا الوليد بن يزيد فلم يَصبر المسلمون على خلافته أكثر من سنةٍ وثلاثة أشهر، حيث نقضوا بيعته، وأراقوا دمه، واحتزّوا رأسه، وحملوه

إلى دمشق فنُصِب في جامعها الكبير ، وأمّا حظّ الأمين فلم يكنْ بأحسن من حظّ الوليد الأموي فقد قُتل هو الآخر ، وحُمل رأسه ليُطاف به من مكان إلى مكان . ولـو كان المجتمع الإسـلامي مجتمع خلاعـة ومجـون ـ كما زعم الدكتور ـ لصفا الجو للخليفتين الأموي والعباسي ولعاشا ينعمان برضا الناس عما يصنعان» .

هذا فحوى ما قاله الدكتور الباشا عن الخليفتين، ولكنّي أعرض وجهةً أُخرى فأقول: إن أكثر ما نُسب إليهما قد يكون مختلقاً أو مكبّراً مجّوفاً، لأنّ من جاء بعدهما حاول أن يُذيع السوء عن سالفه، لتستقر مكانته لدى من يتوجعون لمصير الراحل القتيل، وهذا مُشاهدٌ في كل عصر وجيل، وإذنْ فأكثرُ ما رُوي عن الخلفتين مختلق مكذوب، وهذا الاختلاقُ يمنع أن يكون ما قيل مُعبّراً عن روح العصر ، فالنتيجة المقصودة لا شكّ في صحتها، ولي بهذا الصدد أن أستأنس بقولِ باحثٍ كبير عن الخليفة الأمين ، وهو الأستاذ عبد الله عفيفي حيثُ قال في الجزء الثاني[1] من كتابه (المرأة العربية) :

«أستغفر الله، ما كان الأمين خليعاً ولا مائعاً، ولا مارقاً ولا مسرفاً في دينه، بل كان شأنُه كشأن أبناء النابهات من العرب ، كفٌّ ندية ، وهمّـةٌ قصيّة، وفطنةٌ هاشـمية ، ولكنْ همُ المرجفـون من شـيعة المأمون، وقالةُ السـوء من شـعوبية الفُرس، أَلحقوا به ما ألحقـوا، ظلماً وزوراً، لأنّه

(١) المرأة العربية : ٢/ ١٩٤ ، تحت عنوان : (آخر صفحة من كتاب العظائم) .

اعتصم بالعرب، وجعلهم حزبه وشيعته، وتركَ ما سنّه آباؤه من استدناءِ الفُرس، وابتغاءِ الوسيلة عندهم، وتفويض الأمر لديهم، فنزعوا إلى المأمون ونزَع إليهم، لما بينهم وبينه من وشائج الرحم، وفرط الهوى، يقولون: إن الأمين أسرفَ في الشّراب، فاللّهم إنهم كذبوا، لقد علموا أنّ الرشيد حَدَّ ابنه المأمون، في الخمر وما هو شرٌّ منها، فأما الأمين فلم يكنْ يلي أمر المسلمين، حتى ارتهن أبا نواس في سجنه، وأطال فيه بلاءه وعناءه، لأنه لجّ في الخمر وأكثر من ذكرها».

هذه شذورٌ مما قال الدكتور الباشا، وأجدني في حلٍّ من أن أعرضَ بعضَ ما قلتُه في هذا الصدد، حين كتبتُ عن حديث الأربعاء، فقد همني أن تُنسى ردود الكاتبين، وقد فاضت بها أنهار الصحف والمجلات لوقتها. وقضى الجيلُ الذي قرأها، وجاء جيلٌ آخرُ يطالع كتاب حديث الأربعاء ولا يعلمُ عن هذه الردود شيئاً، فبسطتُ القول في مقالٍ متسع، يُلخص كلام الدكتور معقباً عليه بما ينقضه، وقد قلت فيما قلت، مما لم يعرض له ناقد آخر(١):

«إن افتتان العباسيين برواية أشعار أبي نواس وحديثهم عنه في حِلّه وترحاله، لا يدّل على أنّ المجتمع العباسي يسلكُ طريقه ويُتابعه في انحداره، ولنلْقِ نظرةً الآن إلى شهرة المطربات والمطربين في العصر الحاضرة، فنحن نجد الإذاعات المرئيّة والمسموعة، والمجلات

---

(١) قطرات المداد، ص٣٥٦، للدكتور محمد رجب البيومي.

الأسبوعية، والصحف اليومية تتحدثُ عنهم في أكثر ربوع الشرق، دُون أن يكونوا الصورة الحقيقة لأخلاق شعوبهم، بل إن الذين يُفردون عنهم المؤلفات الخاصّة، ويُصدرون الأعداد الدورية من المجلات حافلةً بأنبائهم ليعرفون بُعدهم عن المجتمع ومُثُله، ويعلمون أنّهم في أوسع أمورهم يكونون مصدر ترفيه وقتيّ لبعض الشبيبة، بما يأتون من مغريات لاتكون موضع الاقتداء، فهل يقول قائل: إن مُطرباً فناناً، أو مطربةً مغنية أو ممثّلة أو راقصة هي صورة سيدات المجتمع وربات الأُسر، وإذا جرؤ أحد أن يقول ذلك، فهل يصدق نفسه أوّلاً حتى يصدقه الناس؟!.

وعلماءُ اليوم صورةٌ من علماء الأمس، فهل انصرفَ مجتمع اليوم عن حسن البنا ومالك بن نبي ومحمد الغزالي ومحمد المتولي الشعراوي ومحمد أبي زهرة وأبي الحسن الندوي وأمثالهم في ربوع الإسلام؟ إن أحدَ هؤلاء لا يكاد يُعلن عن محاضرةٍ له في مكان ما حتى نجد الازدحام الحاشد، والجمع المتقاتل على السبق وتقدم الصفوف، وفي الحاضر صورةُ الماضي لأن الناس هم الناس.

لقد آن للباحثين اليوم أن يعدلوا عن خطة قوم يولعون بهذه الزيادات المفتراة على الأبرياء، وإذ إنّ هذه الزيادات وَجدت اليوم من يمتد بها إلى أرحب ما يتسع له شططه من امتدد، فكان من جراء ذلك، أن ظُلم قومٌ من الأبرياء دُون جريرة!، بل كان جرّاء ذلك أن يُقْبل الأغرار على دِراسة سِيَر الماجنين باعتبارهم مُمثّلي العصر، ومَثَله المُحتذى! وكم تتصورُ شَططَ هذا الاتجاه إذا أردتَ أن تدرس الحياة بأنواعها

المختلفة في العصر العباسي فلا تجدُ إلاّ ما كتبه أبو الفرج عن بشار ووالبة ومطيع، وأبي نواس والحسين بن الضحاك وحماد عجرد!! وكأنّ هؤلاء لم يُعاصروا أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وابن حنبل، وأبا يوسف وسفيان الثوري والأوزاعي، والكسائي وعبد الله بن المبارك ومحمد بن الحسن؛ ومن تَضِيق الصفحات عن تسطير أسمائهم فضلاً عن ذكر روائعهم الحافلة المثمرة، وهم وأمثالهم عُمُدُ الثقافة الإسلامية في هذا العصر الزاهر، وقد ألمحنا من قبل بحديث النهضة الأدبية والعلمية في عصر الرشيد لينجلي اللبس عن العقول فلا تستريب.

* * *

دستور الدولة في عهد الرشيد

يتحدث المؤلفون عن هارون الرشيد، فيتّسعون في مسائل كثيرة يحسُن فيها الإيجاز، وينقلون رواياتٍ متشابهة يُغني فيها بعضٌ عن بعض، ولعلّهم يتعمّدون ما يلذّ ويمتع، دون ما يفيد ويقنع، ولكنهم يتركون أعظم وثيقةٍ دُستورية أمرَ الرشيد قاضي قضاته، وعالِمَ عصره أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري بتدوينها على نحوٍ شافٍ ضافٍ، حيثُ أراد أمير المؤمنين أن يضع في أيدي الولاة قواعدَ واضحةً مفصّلة بالأمثلة التاريخية، والآثار الشرعية تدورُ عليها أمور السياسة، دون أن يحيد عنها شاذٌّ أو مارق، لأنها مؤيَّدة بنص كتاب الله، وحديث الرسول ﷺ، وأفعال السلف الصالح من صُدور هذه الأمة وخُلفائها الراشدين.

فصدع أبو يوسف بالأمر على أحسن وجوهه، وكتب رسالته المعروفة باسم (الخراج)، وهي لا تقفُ عند الخراج وحده، بل تتحدث عن رسالة الحاكم، وحدودِه الملزمة في شريعة الإسلام، وتُهدّد الطغاةَ بما يصمهم بالخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وهذه الرسالة ليست رسالةَ جيل واحد، ولكنها رسالةُ كل الأجيال على ممر الحياة، وقد فطن لمكانتها الخطيرة الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضري فخصّها

بفصل ضافٍ في كتابه عن الدولة العباسية حين تعرّض لتاريخ الرشيد، وقد مهّد لها بحديثٍ كاشف هادف، يحسن لمن يطالعُ سيرة الرشيد أن يقف عليه ليعرف أي خليفة كان هارون، وأيّ قاضٍ كان أبو يوسف[1]!.

قال الأستاذ الخضري رحمه الله ـ ببعض الإيجاز ـ: «كان خليفةُ المسلمين في هذا التاريخ خامسَ بني العباس هارون الرشيد وكان قاضي قُضاته أبا يوسف، وقد أحبّ أن يسودَ العدل بين أمته، وأن تنظَّم أمور الجباية على النمط المشروع الذي سنّه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، حتى لا يقع حيفٌ على الرعية، فيثقل الجورُ كاهلهم، ويخرّب عمرانهم، وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة، وحفظ ثغورها، وتأمين طرقها».

ثم قال الشيخ الكبير ـ وهو ما يجبُ أن يقف عنده القارئ طويلاً ـ:
لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجافّ الذي هو في خيال الكثير منّا، يكتبُ جوابه مبتوراً منقولاً عن مُسطّر سُبَق به، أو ذلك المفتي الضعيف، ينظر إلى غرضِ المستفتي، فيجتهد أن تكونَ فتواه طبق رغبته، بل كان ذلك العالم الناصح الذي سَبَر حالَ الأمة فعرفَ ما يصلحها، وأدرك سرّ الدين الذي أوحى الله به إلى رسوله ﷺ، لإصلاح الأمة، فجالَ في ميدانِه جولةَ الفارس العالم بثنيّات الطريق، وأحاط علماً بتاريخ

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص١٨٨، طبعة ثالثة.

المسائل التي يُفتي فيها، فبينا نراه واعظاً لا يخاف في الله لومة لائم، يصوغُ من كلمات النصح أشدّها وقْعاً وأقواها تأثيراً، إذا هو مؤرِّخ يسردُ تاريخ الأمور المالية وغيرها، وكيف وضعها السلف الصالح، وكيف كان غرضهم من ذلك، وبينما أنت تستخرج من لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنّاً بسنة أسلافه الطيبين والطاهرين، ثم تراه قد سَبَرَ ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يُرهقون بها الرعية، ويضرّون بها العمارة، فينبّه الإمام إلى مخازيهم، ويرفعُ صوته طالباً إجراء العدالة فيهم، ويشيرُ على إمامه بما يجبُ عليه من رعاية تنفيذ الحق؛ ليكون ناجياً بين يدي الله سبحانه وتعالى».

وقد كفانا الأستاذ بهذا التحديد الواضح اللامح ما يطلبه المقام من تمهيد لرسالة أبي يوسف، ولم يكن مبالغاً في حرف واحد مما كتب، بل لعلّه لو تُرك يفيض خاطره لجادَ بصفحاتٍ ساطعة، تكشف أسرار هذه الرسالة، ولكنّه لا يكتبُ كتاباً في الفقه الدستوري، بل يُلقي محاضراتٍ في التاريخ، وليس من شأنه أن يزيد عما فعل في هذا النطاق، أما تلميذه الباحث العميق الدكتور أحمد أمين فقد كشف عن البواعث التي دفعت الرشيد إلى طلب هذه المسائل من القاضي في صورةِ أسئلةٍ صريحةٍ لا لبْسَ فيها فقال في (ضحى الإسلام)[1]:

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ١٦٣، طبعة تاسعة.

«أراد العباسيون ألا يكونوا سياسيين فقط، بل سياسيين ودينيين معاً، وكان من أثر ذلك أن جماعة من أعلام الإسلام عذّبهم العباسيون لأنهم أبَوْا أن يخضعوا لوجهة نظرهم، كمالكٍ وأبي حنيفة وسفيان الثوري، على حين أنّا نرى الحسن البصري في العهد الأموي يجلس في المسجد الجامع ويتكلّم في السياسة، ويُستفتى في الخلفاء والأمراء فينتقدهم في شدّة، ثم لا يصيبه أذىً.

والذي يهمّنا هنا هو الناحية التشريعية، فقد كان لاتّجاه العباسيين هذا الاتجاه أثرٌ بيّنٌ في التشريع، وهو صَبْغ أعمال الدولة كلها صبغةً دينية، فنظام الريّ، ونظام الضرائب، وحفر الترع، وجباية الأموال، ونظام الدواوين، كلها مسائل دينية يؤلّف أبو يوسف فيها كتاب الخراج، ويستفتي فيها الفقهاء، ويجتهدون فيها اجتهاداً دينياً، وهكذا كلّ ما دقّ من الأمور وعظُمَ مرجعه كان فتوى المفتين وقضاءِ رجال الدين وهذا من غير شك يجعل مهمة الفقهاء شاقة واسعة النطاق».

وقبل أن أعرض إلى النقاط في رسالة الخراج، أقرر أن القاضي سُئل أسئلة، وكان المفروض أن يجيب عنها فحسب، ولكنّه مهّد لها بحديثٍ سياسي عن رسالة الحاكم، وضرورة تمسكه بالعدالة، وحذّره من غضب الله وعقابه، وأفاض في ذلك إفاضة من يحاول أن يدرأ الخطر قبل وقوعه، وهذا ما ألمح إليه أستاذنا الخضري حين قال عن أبي يوسف: «لم يكن

ذلك المفتي الضعيف الذي ينظر إلى غرضِ المستفتي فيجتهد أن تكون فتواه وفق رغبته، بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها».

بدأ القاضي رسالته مخاطباً أمير المؤمنين بقوله: «أقم الحق فيما ولاّك الله وقلَّدكَ ولو ساعةً من نهار، وإذا نظرتَ إلى أمريْن أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، واعلم أنه لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن ماله ما عمل فيه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. وهذا الحديث يقولُه الوعَّاظ جميعاً على المنابر للعامة، أما أن يكونَ في رأس التوجيهات الخاصة بأمير المؤمنين فهذا ما يدل على التزام بحق المنصوح على الناصح في الإسلام.

وبعد أن أفاض القاضي في حديث الجنة وما يدفع إليها من عمل الخير، وحديث النار وما يدفع إليها من عمل الشر، أرادَ أن يضرب له من أحاديث التاريخ مُثُلاً شاهدةً تدلّ على التزام العدل المطلق وكانت سِيَر الخلفاء الراشدين ـ وأظهرهم في ذلك عمر بن الخطاب ـ موضع استشهاده، وكأنّ القاضي لاحظَ البَون الشاسع بين سلوك الخلافة الراشدة، وما عليه خلفاءُ حاضره، من تجافٍ شديد عن الحق، فآثَر أن يرجع بالرشيد إلى عهود العدالة الصراحة والرحمة الحانية، والرشيدُ نفسه كان يُحسُّ بشدة البعد عن منهج الراشدين فيما فعله الخلفاء منذ معاوية.

فقد قـال له بعض المتملقين ذات يـوم[1]: «لقـد أعذْتَ سـيرةَ العُمريْن» يريدُ سـيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهمـا، وكـان يأكـل سـفرجلة، فرماها في وجهه وقال متعجباً: «العُمريـن! العمرين! يابن اللخنـاء، لقد احتملناها لعمر بـن عبد العزيز، أتحتملهـا لعمر بـن الخطاب».

فالرشـيدُ كان يعرف سـلوكَ الخلفاء، ولعلّـه حين كتـب إلى أبي يوسف كان يرجو أن تكون إجابته شافية في تحقيق منهج الإسلام كما نزل من عند الله، وكما طبّقه رسوله الكريم والراشدون من بعده! وهذا ما واصل الطَّرْق عليه أبو يوسف حين تحدث عن العمرين، فقال: «لما أدركت الوفاة أبا بكر استدعى عمر بن الخطاب فأجلسه إلى جواره، وقال له: إنما خفّتْ موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الباطل في الدنيـا وخفّته عليهم، وإنما ثقلت موازيـن مَن ثقلت موازينه يـوم القيامة، باتّباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا توضع فيه الحجّة ألاّ يكون ثقيلاً، وإنّ أول ما أحذّرك ياعمر نفسك، فإن لكل نفس شهوة فإذا أعطيتها تمادت فيها».

وأقول ردّاً على مَن زعم المبالغة في بعض هذه النقول، إن المرجع الأصوبَ في تحقيق هذه المبالغـة أو نفيها هو الرجـوع إلى سـيرة من يتحدّث ومن يستمع، فإذا كانت سيرة أبي بكر تعتبر تطبيقاً واعياً لما جاء

---

(١) تاريخ الطبري: ١٠/١١٧.

على لسانه، وإذا كان ابنُ الخطاب عند ظنّ من استخلفه تقىً وورعاً ونزاهةً، فأين المبالغة إذن؟ ولكنّ الذين وقعوا في الخطأ متجاوزين أيسرَهم أن يوصف الحق بالمبالغة ليجدوا لأنفسهم معذرة فيما يقترفون! وفي المؤرخين مَن يلتمس لأخطائهم المعذرة، وهم الوصوليون الذين وصمَهم الخضري بالضعف والاسترخاء حين يتلمّسون رغبات الرؤساء، فيكتبون ما يروق ويشوق، لا ما يحق الحق ويدفع الضلال.

وقد أفاض أبو يوسف فيما رواه عن عمر بن الخطاب بالنسبة لغيره من الخلفاء، وحُقّ له أن يفيض، لأنّ زمن الفاروق كان زمن الفتح الواسع الممتد، وعلى يده جرى للمسلمين خير الدنيا والآخرة، وقد تصدّر للإفتاء في الحوادث الكثيرة التي جدّت بعد اتّساع الفتح، وتقلّب المسلمين في أعمال الولاية والجباية والقيادة، والحكم والإفتاء وتقسيم الأموال، فكان يضعُ لكلّ حالة ما يناسبها، راجعاً الثقات من صحابة رسول الله ﷺ، حتى صدر عنه في حكمه المديد ما يصلح أن يكون تطبيقاً واعياً لأحكام الله، وقد وثق المسلمون في عدالة عمر وصلابته في الحق، فإذا رجع إليه أبو يوسف فيما يقرر من شؤون السياسة والمال، فقد أتى الأمر من بابه الصحيح.

وقد صدر حديثاً كتابٌ قيّمٌ تحت عنوان: (فقه عمر) رأيت بعد قراءته أنه أول فقيه عمليّ في الإسلام، على أن أبا يوسف كان يعلم قوة احتجاج القائل بمثاليّة عمر، وأنه مثلٌ يتطلّع الناسُ إلى أوْجِه، ولا يرتفعون إلى مستواه، فأراد أن يدحض هذا الرأي بذكر عمر من ذوي النزاهة الأمينة،

وليس أمامه غير عمر بن عبد العزيز، وهو أشبه الخلفاء برجال الخلافة الراشدة، فأخذ يعرض شذوراً مما يعرف عن نزاهة عمر بن عبد العزيز، وخلوصه للخير فقال في رسالته:

لما تولّى عمر بن عبد العزيز مكث شهرين مقبلاً على بثّه وحزنه، مشفقاً على نفسه من ثِقَل ما حُمّل، ولكنّه لم ينكلْ، فجعل ينظر في أمور الناس، ويردّ المظالم إلى من اغتُصبت منهم حقوقهم، حتى كان شغله بالناس شاغلاً له عن نفسه، وقد قالت زوجتُه بعد وفاته عنه: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا صياماً، ولكنّي ما رأيتُ رجلاً أشدّ خوفاً لله من عمر، فقد فرغ بدنه ونفسه للناس طيلة يومه، فإذا أمسى جعل يفكّر فيما لم يقضِه من أمورهم ليكون في مقدمة ما يعمل في الغد، وكان يجلس الليل الطويل يستصبح من ماله، ويفكّر في أمره، وقد سألتُه عن شدة قلقه، ورجوتُ منه أن يستريح، فقال: لقد وجدتني ولّيت هذا الأمر، فذكرتُ الغريبَ الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المقهور، فعلمت أن الله تعالى سائلي عنهم، وأنّ محمداً ﷺ حجيجي فيهم، ولا يقوم لي معه حجة، فخفتُ ألا يثبت لي عند الله عذر، وأشفقت على نفسي.

وفي اختيار الحديث النبوي الذي يقدّم به دائماً لما يريده من أمر، يلجأُ القاضي إلى أحاديث الوعيد، وكأنه يحذّر الرشيد شخصياً مما عساه، يقترفُ أو ما عسى أن يقترف ولاته، فيروي قول رسول الله: «إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم الحُلماء، وجعل أموالهم بأيدي السمحاء، وإذا أراد الله بقوم بلاءً استعمل عليهم السفهاء، وجعل

أموالهم في أيدي البخلاء»، ويكرّ على سيرة عمر بن الخطاب فيروي بعض أفعاله، ويسجّل قوله: «لكم عليّ أيها الناس خصالٌ فخذوني بها، لكم عليّ ألاّ أجتبي شيئاً من خراجكم، وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي، ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيدكم في أعطياتكم، وأرزاقكم إن شاء الله، وأسدّ ثغوركم، ولكم عليّ ألا أُلقيكم في المهالك».

هذا نمطٌ من الوعظ العاقل الذي لا يعتمد على الانفعال الخطابي، بل يأتي بالنص الملزم، والحكم المؤيّد، يرنّ في سمع الحاكم ليتبيّن على أيّ شفا جُرف مقيم، حتى إذا شفى القاضي صدره بما مهّد له من هذه التحذيرات القاسية، والأوامر الجازمة، اتّجه إلى المواد العملية في قانون الدولة، فتحدّث عن الموارد الشرعية للمال، وحصرها في خُمس الغنائم، وفي الخراج، وفي الصدقات، وتحدث عن مصرف الخُمس بما لا إيضاح بعده، وتعرّض إلى الأراضي التي استولى عليها الغانمون، فحدّد ما قيل في موضوعها، وما دار من خلافٍ بشأنها بين كبار الصحابة، منحازاً إلى رأي عمر بن الخطاب، وهو أسدُّ الآراء، ولذلك تفصيلٌ في كتب التشريع يرجع إليه من شاء.

ولكنه مع احترامه لرأي عمر أجاز للحاكم من بعده أن يناقش جميع أقوال الصحابة في مسألة المقاسمة في الزروع، ليختار ما يصلح للرعية، لأنّ حصاد الزرع مما تتغيّر قيمته بتغيّر الأثمان، وليس للحصاد قيمة ثابتة لا محيد عنها، وحينئذٍ ينظر الحاكم لصلاح الرعية فيختار من

الآراء ما به عمران البلاد وسعادة الناس، ولا يغفل عن حق المزارعين ممن فلحوا الأرض، إذ هم أولى بحقهم في ما كدّوا في زرعه وتثميره، وقد اشتدت حيطة القاضي حين قال ما موجزه:

«ولا يؤخَذ أهل الخراج برزق عامل، ولا أجر آلة، ولا حمولة طعام للسلطان، ولا يؤخَذ منهم ثمن القراطيس، ولا أجور الكيّالين، ولا مؤنة لأحدٍ عليهم في شيء، وكأنّ أبا يوسف وهو القاضي الذي تعرض عليه آلاف المظالم شاهد كثيراً من ظلم الجباة وإرهاقهم لزارعي الأرض إذ يُلقون عليهم ما ليس لهم يدٌ باحتماله، فأعلنها صريحةً مدوّيةً في قمع الظَّلَمة من الجباة، وله عنهم حديث شافٍ أمْلَته التجربة، وأكّدته المشاهدة، فأخذ يقرعهم بسياط التقريع والملامة، وأشار على الحاكم أن يختار الوالي فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم، ثم قال عن الولاة ـ وكأنه ينبّه الخليفة إلى دقة الاختيار ـ:

إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يُولّون الخراج، فإذا ألزم الرجل باب أحدهم أياماً، ولاّه رقاب المسلمين، وجباية خراجهم، ولعلّه لا يكون قد عرف شيئاً عن أخلاقه، فيولّيه على الخراج، ليكون صاحبَ الأمر في السلب والاغتصاب، ولذلك رأى القاضي أن يبعث أمير المؤمنين قوماً من أهل الصلاح والعفاف، ممن يوثق بدينهم وأمانتهم، يسألون عن سيرة العمال، وما عملوا به في الخراج، وكيف جبوه على ما أُمر به، فإذا ثبتَ أنهم أخذوا أكثر من المقرّر المعلوم، أُخذوا أشد

الأخذ، حتى يردّوا ماسلبوه بعد العقوبة الموجعة، والنكال الشديد، حتى لا يتعدّوا ما أُمروا به، وما عُهد إليهم فيه، وإذا حلّتْ بواحدٍ منهم العقوبة الموجعة كان عبرةً لغيره، وإذا صُفح عنه جرّأ غيره على الظلم والعسف، ثم قال للرشيد:

إذا صحّ عندك من العاقل أو الوالي تعدٍّ بظلم أو عسف أو خيانةٍ لك في رعيتك، فحرامٌ عليك استعماله والاستعانة به، وأن تقلّده شيئاً من أمور رعيتك، أو تشركه في شيء من أمرك . .

وكاد مما يفعله بعض الولاة أن يترك لأحدٍ من الناس تحصيلَ الخراج جملةً بأن يدفع هو قدراً معيّناً من المال يسلّم دفعةً واحدة، ويُترك له أن يجمع من الزارعين خراجَ الأرض كما يريد، وقد رأى القاضي في ذلك أبلغ الظلم، لأنّ المتضمن قد يقدّم من المال أكثر مما يجب، وهنا تنبسط يده في إرهاق العامة، فيحمّلهم ما لا يطيقون ليجمع أوّلاً ما قدّمه للدولة، وليأخذ ثانياً نصيبَ الأسد كسْباً مباحاً له، وقد يكون ما يأخذ أكثر وأكثر مما بذل، ولا شيء عليه، إنما الغُرم على المساكين ممن يقعون تحت بطشه، وفي ذلك خرابُ البلاد وهلاك الرعية، وهذا المستبدّ لا يُبالي بهلاك الناس إذا جمع من المال ما أراد. كما لا يمكنه أن يثري الثراء الفاحش إلاّ بالظلم الفادح، وفيهم من يضرب الرعية ضرباً شديداً، ويقيم الفلاّح المسكين في حرّ الشمس بعد العقاب، حتى يبيع ما يملك من الأثاث من منزله، فيسدّ الغرم الذي وقع عليه ظلماً وقد نهى الله عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها، وما يفعله الواحد من هؤلاء عين الفساد.

ولعلّ أبا يوسف رحمه الله كان ينظر بعين الغيب لما سيكون بعد عصره، كما نظر بعين الشهادة لما حدّث في زمنه، لأنّ البلاء قد طمّ بعد ذلك، وفي كتب التاريخ من أهوال هذه الفظائع ما يدمي القلب، وتفيض منه العين، فقد عُذّب أناسٌ وقُتلوا لأنهم لا يجدون ما يدفعونه بعد أن سلبهم الملتزم كل شيء، وفي هؤلاء مَن تركوا بلادهم ودوابّهم وأراضيهم المملوكة حين ضاقت نفوسهم بما يلقون، فهربوا من القرى خفية تحت ستار الليل، وهاجروا إلى حيث لا يعلمون مصيرهم المتوقع، يقول القاضي: «وليس يبقى مع الفساد شيء مع مَن ﴿ إِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وإنما هلك مَن هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يُشترى منهم، وإظهارهم الظلم حتى يُقتدى بهم، والحمل على أهلِ الخراج ما ليسَ بواجب عليهم، من الظلم الظاهر الذي لا يحلّ ولا يجوز».

ولأمرٍ ما سمّى أبو يوسف رسالته (الخراج) مع أنها تعرّضتْ لأمورٍ كثيرةٍ من أمور السياسة غير ما تعرّضت له من مسائل الاقتصاد، وجباية الأموال، فكأنه رأى أن حبّ المال مصدرُ كل طغيان، وأنّ أكثر الولاة يجعلون من مناصبهم السياسية باباً للارتزاق غير المشروع، ولن يكون ذلك إلا بما يقع من الظلم الفادح في جباية الخراج، فكأن عنوان الرسالة (الخراج) استفظاعاً لما يقع في تحصيله من الأهوال، وهذا عين الصواب.

وفي حديث القاضي عن الجزية، وهي إحدى الموارد المالية للدولة، حدّد شروطها بما لا بيان بعده، ثم شرح الامتيازات التي تُمنح

لأهل الذمـة في أمورهم الدينيـة فقال: إن شـروط الصلح بين الفريقين يجب أن تُلتزم، فيوفي بالعهود الخاصة باحترام الكنائس والبِيَع، وحقن دماء أهل الذمة، وقتال مَن عاداهم لأنهم صاروا في ذمّة الإسلام، ولهم أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم دون حرج، وقد أفاض فيما فعله السلفُ من الوفاء بالعهود لأهل الذمة، وذكر قول رسول الله ﷺ: «مَن ظلَمَ معاهداً أو كلّفه فوقَ طاقته فأنا حجيجه»، وقد أوصى عمر بن الخطاب عند وفاته بالوفاء لأهل الذمة، وألاّ يكلّفوا فوق طاقتهم، فليت الذين يلتقطون بعض الأحداث الشاذّة التي صدرت عن قوم لا يفهمون روح الإسـلام، ثم يصمون بها الإسـلام نفسه ظالمين، ليت هـؤلاء يقرؤون أحكـام أهل الذمّة في مصادرها المعتمدة، وينظرون التطبيـق العملي لأمثال عمر بن الخطاب ومن جاء بعده من الأخيار، ليميّزوا الطيب من الخبيث.

ثم توالى الحديث عن موارد الخراج، وعن مصاريف بيت المال، وعن أعطيات الجنود، وعن إصلاح الطرق ومجاري الأنهار، وكلُّه دقيقٌ وثيقٌ، يدل على خبرة رجلِ أعمالٍ، لا رجل فقهٍ فقط، وقد استشعر القاضي رحمةَ الإسلام فيما كتبه عن جواب الرشيد عن أجور المسجونين، إذ وجد القاضي أن يُصرف على السجين ما يكفل قوته وشرابه عن إمتاع. ذاكراً أن الأسير من المشركين على عهد الرسول ﷺ كان يُطعم ويُحسن إليه حتى يُحكم في أمره، فكيف برجل مسلم أخطأ وأذنب؟ وقد فعل عليّ بن أبي طالب ما سدّ حاجة المسجونين في عهده، وتبعه معاوية ومن خلّفه من الحكّام.

ومن ألطف ما ذهب إليه القاضي أن يُجرى راتبٌ شهريّ للمسجون، إذ إنّ الطعام من خُبز وغيره كثيراً ما يغتصبُ أكثره حارسو السجن، ويدّعون أنّه صُرف لمستحقه، فلابدّ إذن من تخصيص كاتبٍ ينهض بتدوين الأسماء، ويشرف على التوزيع في كلّ مرة، و قد لاحظ القاضي أنّ بعض المسجونين يخرجون في السلاسل، يسألون الناس، ورأى ذلك مهانةً للدولة لابدّ أن يتلافاها القائمون بالأمر، وما تكفّف هؤلاء، وطلبوا القوت من المارّة، إلا لأنهم حُرموه، وذلك جُرْمٌ كبيرٌ، وواصل القاضي حديثه عن المسجونين فقال مخاطباً هارون الرشيد: ومُرْ بالإجراء عليهم دون تأخير، ومن مات منهم ولم يكن له وليّ ولا قرابة، غُسّل وكُفّن من بيت مال المسلمين، وصُلّي عليه ودُفن، فإنه قد بلغني من الثقات أنه ربما مات الميت الغريب في السجن، فمكث به يومين حتى يُستأمر الوالي في دفنه، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدّقون ويكترون كي يُحمل إلى المقابر، فيُدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة، فما أعظم هذا في الإسلام وأهله!.

وإذا كانت مصارف الزكاة معروفة، فقد حدّدها القاضي، ومن رأيه أنّ المؤلَّفة قلوبهم لم يذهبوا تبعاً للمذهب الحنفي الذي يقول به، وهذا غيرُ ما عليه الجمهور، والذي أراه أن الحقّ مع أبي يوسف، لأن الإسلام يجد هذا الصنف في كل عصر، وإذا انقطعوا في عهد الفتح الأول أيامَ عمر بن الخطاب، فقد جدّت ظروف دعَتْ إلى وجودهم فيما بعد، ولستُ فقيهاً ولكني أعرض وجهة نظرٍ فحسب.

هذا وقد لمس أبو يوسف أخذ بعض الحكام بالظنة في إصدار العقوبة تشفّياً لحزازات شخصية، فعدّ ذلك خطأً كبيراً، واستشهد بالنص الذائع: (ادرؤوا الحدود بالشبهات)، وبالرأي القائل: (الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة)، كما أجاز القاضي الشفاعة في العقوبة إذا لم تبلغ الجريمة مسامع الحاكم، مستنداً إلى أن الزبير بن العوام رأى قوماً يمسكون بتلابيب سارقٍ، فشفعَ فيه، فقالوا له: أتشفع في حدٍّ من حدود الله، قال: نعم، ما لم يُؤْتَ به إلى الإمام، فإذا أُتي به للإمام فلا عفا الله عنه إن عفا عنه، كما ذكر حادثةً أخرى لامرأة اتُّهمت بالزنا، وتكالب عليها الناس صائحين، وجاء ابن الخطاب فساءه أن تحدث هذه الضجة مع امرأة مسلمة، فقال للقوم: ربما استكرهت، ثم أين الشهود الأربعة! وفي ذلك دَرْءٌ للحدود بالشبهات.

قال أبو يوسف: إن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يتمهّلون كثيراً في توقيع العقوبة، بل كانوا يساعدون المتهم على الرجوع عن إقراره بجريمته. ثم يروي وقائع تدل على ذلك، وهي معروفة في كتب الحدود.

وهكذا يمضي القاضي في سرد الأحكام الخاصة بصلاح المجتمع في المعاملات والحدود، والإدارة والقضاء، بما لا مزيد عليه من الإيضاح والتوجيه.

أقول: إذا كان الرشيد هو الذي قدّم الأسئلة للقاضي! وإذا كان القاضي هو الذي أجاب عن وثوق واطمئنان، فقد اشترك الاثنان معاً في إرساء قواعد الحكم في اتجاهاته المختلفة، على أساسٍ من هدي الله

وسنّة الرسول ﷺ، وإذا قيل للقاضي: قد أحسنت في أداء فريضة العلم على وجهها الصحيح، فإننا نقول للرشيد: قد أحسنت حين التبستْ عليك بعضُ الأحكام فرجعتَ فيها إلى أولي الاختصاص، فنتج من ذلك ما صار مفخرة المفاخر في تاريخ الحكام، ولا أدري لماذا لا يذكر أصحاب النصوص الأدبية الخاصة بآثار العصر الإسلامي أمثال هذه الرسائل العظيمة لتكون نمطاً من الأدب الإسلامي الرفيع؟ لماذا لا تُذكر رسالة علي ابن أبي طالب كرّم الله وجهه للأشتر النخعي؟ أو رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز؟ أو رسالة ابن المقفع عن الصحابة؟ أو رسالة أبي يوسف عن الخراج؟ وعشرات من أمثالها.. ؟ فتكون نبراساً هادياً للمتأملين، ونمطاً أدبياً لمن يلتمسون الفكر الدقيق في علوم الإنسانية الرفيعة!! ألا يستحق هذا التراث أن يكون نظيراً لرسائل التشوق أو كتب الاستجداء؟!!.

* * *

العلاقات الخارجية

١ ـ مع الروم

يستكثرُ بعض الناس قول المؤرخين: إن الرشيد كان يحج سنة ويغزو سنة، ويعدّون ذلك مبالغةً ذاعتْ وترددتْ دون تحقيق، ولكنَّ واقعَ المعارك التي دارت في عهد الرشيد، وتحدث عنها المؤرخون بالأسماء والأرقام والجهات تؤكّد ذلك دُون لبس، فقد شبّت ثورات داخلية بين من مَرَدُوا على الخلافة، وأعلنُوا الانفصال، كما الْتهبَتْ معارك خارجية متعدّدة بين الروم وأمير المؤمنين، وسارتْ جيوشٌ بقيادة الرشيد لتطفئ هذه النيران المشتعلة، فأين المبالغة إذن فيما تقرره الأحداث، وتثبته الوقائع؟!.

لكأنّ المهدي كان يعلم من وراء الغيب أن ولده هارون سيصْطلي بعداء الروم في القسطنطينية، وأنّه سيتعرّض لحروب دامية لا بدّ أن يأخذَ أهُبته لها منذ صغره، وفي عَهْد والده، ولذلك كان الأمير الشاب هو القائد لحملات المسلمين حين تتوجّه إلى بلاد الروم، فهو بهذه القيادة المتكرّرة صار ذا دُربة على المعارك. وخبرةٍ بما تتطلبه من عتاد ورجال!.

لقد كانت غـارات الروم في عهد المهدي ذاتَ مدٍّ متـواصل، فاضْطرّتِ الخليفةَ إلى أن يَذهب بنفسه، أو يرسل أقربَ الأقرباء إلى ذاته، ليكونَ العمل الحربي جدّياً لا سبيلَ إلى التهاون فيه، ثم رأى أن يبدأ بنفسه أولاً، فســارَ في مقدمة الجيش سنة (١٦٣هـ) حتى أتىَ البردان، ومعه ابنُه هارون، فبعثَ وجـودُ الخليفة والأمير حماسـةً ملتهبة في نفوس الجند، وكان في الجيش من الفقهاء من وَالوا النصح، وشـجّعوا على الجهاد، ولَبِسُوا دروع المعركة، ودامتِ الغزوة شهريْن، تمّ فيهما افتتاحُ معاقل حصينة، وغنيمةُ ما بها من الذخائر، بعد أن ضُربت بالمنجنيق، وقد بذَل أهلُها قوةً في الدفاع، وعُنْفاً في النزال، ولكن النصر تم للمسلمين، وكان المهديُّ رحيماً حين رَضي في شروط الصلح ألاّ يُقْتَل أحدٌ من الأعداء، وألاّ يرحلوا عن أماكنهم، وحين تمَ الصلّح وقّعهُ هارون نيابةً عن أبيه، فكان هذا أولَ عمل حربي تحقّق فيه النصر على يده، وكَرَّ الجيش إلى بغداد غانماً منصوراً.

ولكن الروم نقضُوا العهد، فأمر المهديُّ بتعبئةِ الجيش الزاحف بقيادة هارون، وتركَ له أن ينفذ الخطّة مع كبار الجنود دُون حاجةٍ إلى أن يْرحل معهمْ كالحقبة الأولى، وسار الجيش منتصراً في زحوفه حتى وصلَ إلى خليج البحر، الذي تقومُ القسطنطينية على شطه، وهو زحفٌ هدّد البلاد بالخطر الماحق. لأن العاصمة أصبحتْ على خطوات من مقدم الزاحفين، وكانت أم الملك (إيريني) تقومُ بأمر البلاد وصيّةً على ابنها القاصر، فرأتْ ألاّ مفرّ من الاستسلام، وعرضتِ الصلح والمهادنة

مع فِدْيَةٍ ماليّة يُقرّرها هارون، فمال الأميرُ إلى الصلح، واشترطَ على الملكة أن تُقيم الأدلاّءَ والأسواقَ في طريق الجيش عند رجوعه لأنّ خبرة المسلمين بالمسالك الرّومية لم تصلْ إلى حدّ السلامة؛ واستجابتِ الملكة، ودفعتِ الفدية.

ولكنّ المهدي لم يطمئنَ إلى الصلح، وعَلِم أنّه حلٌّ مؤقت رَأَتِ إيريني أن تقوم به حتى تتهيأَ لنقْضه متى أتيح لها أن تتمكن، فاجتمع بالقواد وعلى رأسهم ولده هارون، وأعلَمهُمْ أن المعركة لم تنتهِ بعد، وأنّ عليهم أن يرسموا الخرائط، ويعرفوا مواقع الزحف المنتظر، ويعدّوا العدة لليوم المقبل، ثم مات المهدي، وحديثُه يرنّ في مسمع ولده، وكأنّه أيقنَ أنه أصبحَ رجل الموقف في حرب الروم، وأنّ أخاه الهادي لا يجد بداً من الاستعانة به، وكان هذا أمراً محبّباً إلى نفسه حيثُ شمّ غبار المعارك، وعدَّها مجال الفوز دنيا وآخرة.

وقد كانَ الروم في أسفٍ لتوقيع المعاهدة، ودفع الدّية، وفيهمْ من كان يطمعُ في الاستيلاء على الحكم وهو (نقفور) فجعل يَصِمُ (إيريني) بالضّعف والجبن، وقِصر النظر، وأنها كأُنْثَى تفزعُ من حديث الدماء، وبذلك أعلنَ الثورةَ عليها، وجَمعَ حوله مَن وافقه على ذلك، وكانَ مُفتَتَح أمره أنْ أعلن نقض كلّ ما أبرَمتْه إيريني معَ هارون الرشيد، وقد ظنّ نقفور أنّه سيُحصّنُ نفسه من جهة شارلمان ملك الفرنجة، إذ كان يخشى هجومَه على بعض عواصمه، فيقع في حربْ مع جبهتين، فبعثَ إليه بالهدايا مُوادعاً، ومؤكّداً أنّه معه على أعدائه، وكان في شارلمان دهاءٌ،

فأظهر المهادنة لأجلٍ ما، وكانَ ذلك ممّا ثبّت أقدام نقفور في دوْلته، وزادَ من مكانته، وقد رأى أن يخطو الخطوة الثانية، فبدأ بكتابٍ خَشِنِ اللهجة إلى هارون يقولُ فيه: «إن الملكة التي كانتْ قبلي أقامتْك مقام الرّخ، وأقامتْ نفسها مكانَ البيْدق، فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ خليقاً بِحْملِ مثله إليها، لكنّ ذلك من ضعف النساء، فإذَا قرْأتَ كتابي فارْدُدْ ما حَصلَ قِبلكَ من أموالها، وافْتَدِ نفسك بما تقعُ به المصادرةُ لك، وإلاّ فالسيفُ بيننا وبينك» وهوَ خطابٌ يدل على هَوَج، إذ كانَ في مُكنةِ صاحِبه أن يُعلنَ نَقْضَ المعاهدة دُون حاجة إلى هذا التحدّي.

وقد أشعلتِ الرسالةُ غضبَ الرشيد فاحمّر وجهه حين تلاوتها، ولم يجرؤ أحد من خاصّته على محادثته حتى يهدأ بعضَ الشيء، وتفرّق جلساؤه رهبةً وهيبة من كلمةٍ يقولها أحدٌ فلا تحظىَ بقبول أمير المؤمنين، فلما سكَن عنه الغضب، أمرَ بدواةٍ وكتب على ظهرِ الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نَقْفور كلبِ الروم، قرأتُ كتابَك، والجوابُ ما تراه دون ما تسمعه».

ثم شخصَ من فَوْره حاشداً أقْوى عدّته، وقد كانَ ذا بَصَرٍ بأمرِ هذه البلاد، فأخذ لكلِّ شيء أُهْبته، واختارَ من القواد مَن عهدهم معه يجُودون بأرواحهم قبل آرائهم، ثم جدَّ في السير حتى كانَ في رحاب (هرقلة) وهي أمنعُ معقلٍ من المعاقل المتاخمة لبلاد المسلمين، فأوقدَ الحرب ونَصبَ المنجنيق، وأشعلَ النار بما لم يتهيأ مثله من قبل، ولم يستطع نقفور غيرَ الاستسلام الظاهريّ لأمرٍ دبّره في نفسه إذ كانَ البردُ شديداً، والثلجُ

يتساقط، فحسبَ أنّ إعلان الهدنة، والموافقة على ردِّ ما كانتْ تدفعهُ الملكة السابقة، سيُوقع في روع الرشيد أنّه صادق، وسيرحُل، فإذا تمّ ذلك فلا يستطيعَ العودة حتى تنتهي أيام الشتاء ويتبدّد البرد، وذلكَ لن يكون إلاّ بعد شهور يأخذ فيها أهبته، ويستطيعُ دفع الغازي الذّي فاجأه بأسرع مما كان يتوقع؛ وقد اطمأنَّ الرشيد إلى ما كان من المُهادنة، ولم يكنْ يلمّ بحاضرة خلافته حتّى جاءه من يُعلن نقض المعاهدة.

ويقولُ المؤرخون: إنّ وزير الرشيد قد ارتاع لمّا فُوجئ به، ولم يستطعْ أن يُخْبر الخليفة بما كانَ، إذ كانَ يَدْري سرعة انفعاله إذا عَلِم بهذه الخديعة، ثم رأى الوزير أن يحْتال أحدُ الشعراء فيبلغ الرشيد في عبارةٍ تُرفّه عن خاطره، وتبشّره بالنصر القريب، فقام أبو محمد عبد الله بن يوسف، وألْقَى قصيدةً أُعدت لهذا الموقف المتأزّم، بدأها بقوله:

نقضَ الذي أعطيتَه نقفورُ ... فعليه دائرةُ البوار تدورُ
أَبْشر أميرَ المؤمنين فإنّه ... فتحٌ أتاكَ به الإلٰه كبيرُ
فلقدْ تباشرتِ الرعيةُ أنْ أتى ... بالنّقضِ منهُ وافدٌ وبشيرُ
أعطاكَ جِزيته وطأطأ خدّه ... حذَر الصّوارم والرّدى محذورُ
فأجرته من هولها، وكأنّها ... بأكفّنا شُعلُ الضرام تطيرُ

إلى أبياتٍ هجا فيها نقفور، ومَدحَ الرشيد بالشجاعة والجرأة، فلما فرغَ من إنشاده قال الخليفة مُغْضباً: أوَ قدْ فَعَل، ثم أمَر بإعادة الكرّة مهما اشتد كَلَبُ الشتاء، ودُوهم نقفور بما لم يتوقّع، إذ كان يظنّ الأمر سيُرجَأ إلى شهور الصيف، فدارتْ حرب طاحنة عادتْ عليه بالوبال،

ورجَع ظافراً، ولكنّ المسألة تكرّرتْ فلم يَستهن الرشيد، وكانتْ به وعكة تعوقه عن الذهاب على رأس الجيش كعادته، فاختار عقبة بن جعفر قائداً للجيش، فكان عند حسن ظنه، ويئس نقفور من مواصلة الحرب دون جدوى، فبعث إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارِقته بما سجلّه المؤرخون.

والذين يتحدثون عن وقائع الرشيد مع نقفور من مؤرخي الغرب يأخذونَ على الرشيد أنه لم يحسم الأمر منذُ الغزوة الأولى، إذ كان عليه أن يخلع نقفور، فلا يرضى به حاكماً يُنذره بالشّر بين الآونة والأخرى، والحقّ أن الرشيدَ لا يدْري من سيكون خَلْفَه من رؤساء ملّته، فقد يأتي مَنْ هو شرّ منه وأضرى، والغدْر معهودٌ بين المتحاربين، إذ هو في منطقِ الروم ليسَ غدراً، ولكنّه محاولةٌ للانفكاك من القيد، وقد غابَ عن نقفور أن الرشيد مُسالمٌ بطبعه، وأن كتابَه الاستفزازي حماقةٌ طائشة، والملكةُ التي كانت قبلهُ وعدَّها طائشةً رعناءَ كانت أكثرَ صواباً منه، لأنهَا عصمتْ أرواحَ ذويها أن تسيل، وهي تُدرك مقدار قوتها إذا وُوزنت بقوة الرشيد الهائلة؛ وليست الشجاعة في إشعال الحرب، بل في إطفائها بأيسر الجهود؛ ولو كان مكان الرشيد خليفةٌ قاسٍ عنيدٌ لدمّر الحصون، وحصد الأرواح، وهو على ذلك قدير؛ ولكنّه لم ينس قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦١ ـ ٦٢].

وكنّـا نرجو من الذين يتهيؤون لكتابـة تاريخ المسلمين من غير أتباعهم، أن يفهموا روح الإسلام قبل أن يتوجّهوا بالنقد، وأن يستوعبوا الموقفَ جميعه في ضوء هذه الروح العالية، فالرشيدُ حين تهيّأ للرجوع في أشد مواسم البرد، وقد تَساقَط الثلج في هذا العام تساقطاً لم يُعهد من قبلُ، حتى سدّ أفـواه الدروب، واحتـاجَ إلى جيـش آخر يقوم بالتمهيد للزحف، مكتسـحاً هذه الصخور المتراكمـة، هذا المقدامُ الجـريء لا يُمكن أن يكونَ هيّاباً يخاف الحرب، وينتهز الفرصة لعقد المعاهدة والرجوع بأسرع ما ينتظر، ولكنه مع انتصارِه السّاحق، يَرى الحرب شرّاً لا بد منه، فإذا أطفأَها الله بما تمّ من الملابسـات، فذلـك ما يجب أن يحمد الله عليه صونـاً لدماء الفريقيْن معاً، لأنّ الجنـود مسـلمين وغير مسلمين ذَوُوُ أهل وقُربى، وليس من الحكمة أن تُراق الدماء دون ضرورة ما، وإذنْ فالملامُ في هذا الموقف لا يوجّه لِمنْ قبل العهد والتزم به، إنما يوجه لمن عاهد فغدر، وحلف فكذب.

* * *

٢ ـ بين الرشيد وشارلمان

يقول الدكتور أحمد أمين[1] :

«كان الخلفاء من عهد معاوية، ومن بعده، قد تَعدَّوا الإسلامَ وأوامره إلى رغباتهم وميولهم، ولم يشذّ عن هذا إلا عمر بن عبد العزيز، حيثُ أحاط نفسه بعشرة من كبار التابعين. والفقهاء العالمين بأصول الإسلام، حتى لا يفعل فعلاً إلا استشارَهم وعمَل برأيهم، أمّا مَن عَداه مِن عهد معاوية فكانوا يعملون برأيْهم هم، وافَقَ روح الإسلام أو خالفه، فليس الرشيد بدعاً من الخلفاء، وإنما هو نتاجُ كلّ من قبْله، يَسير سيرتهم، ويتّبع ما تمليه عليه بيئته».

ذكر الأستاذ أحمد أمين هذا القول في مقدمة حديثه عن علاقة الرشيد بشارلمان الكبير إمبراطور الغرب، الذي يقف ممثّلاً للغرب النصراني أمام الشرق المسلم، فجعلني أتساءل من هو شارلمان هذا؟ وما تاريخه بالنسبة إلى الإسلام قبل كل شيء، وبالقراءة الفاحصة عرفت أنه العدوّ الألد للمسلمين في الأندلس، وأنّه قام بحملات متواصلة

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام للأستاذ محمد عبد الله عنان، ص١٣٦، ط٢.

كلفت المسلمين أكبر جهد، إذ كان من أكبر أهدافه بتعضيدٍ من بابا روما أن يَطرد المسلمين من أسبانيا.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام)، بعد أن عرض بَعض مكايد الرجل في حملاته الدامية على برشلونة وسبتمانيا، وإرساله ولديْه (شارل) و(لويس) على رأس جيش مسلح مكتسح:

يقول الأستاذ ما نصه[1]: كانَ التربص بأسبانيا المسلمة عنصراً جوهرياً في سياسة شارلمان، وكان قاعدةً من قواعد السياسة الفرنجية العامّة، ولكنّ مصادقة شارلمان للرشيد لم تكن بعيدة عن توجيهها. كذلك نلمسُ أثر الكنيسة واضحاً في هذه السياسة، فإن سيْل الإسلام الذي جرف أسبانيا في أعوام قلائل، ثم انسابَ إلى فرنسا بعنف حتى كادَ يحمل ولاياتها الجنوبية كان في نظر الكنيسة خطراً داهماً على النصرانية، ونحن نعرف تحالف شارلمان مع الكنيسة، واستغلاله نفوذها في تمهيد فتوحاته، وظفره بتاج الدولة الرومانية المقدسة، واستغلالها هي إياه في محاربة أعدائها، وقد كانت الخلافة تسيطر على أرواح ملايين كثيرة من النّصارى، أَفَلَمْ يكن ظفراً للكنيسة أن تحمل شارلمان على مصادقة الخليفة العباسي، فتؤكد بذلك تسامحه نحو الملايين من أبنائها، ورعاية القبر المقدّس والحاجّ إليه، هذا ما يلوح لنا أنه الثمن الذي بذلتْه الخلافة

---

(١) هارون الرشيد، لأحمد أمين، ص١٩٧.

العباسية من جانبها في مُحالَفةٍ عَقَدَتْها مع ملك الفرنجة وإمبراطور الدولة الرومانية المقدّسة!.

يقول الأستاذ عنان: إن صداقة الرشيد لشارلمان هي الثمن الذي بذلته الخلافة العباسية في محالفتها لشارلمان، وتفسير ذلك لا يتضح من العبارات السابقة قدر ما يتضح من قول الأستاذ عنان قبل ذلك[1].

كان بنو العباس ينظرون إلى قيام الدولة الأموية الناهضة (بالأندلس) بعين الريب والجزع، ويخشون بحق أن تكون في المستقبل خطراً على سيادتهم في الأقطار الغربيّة، ولم تكن فكرة سحقها في المهد بعيدةً عن الأوائل من خلفائهم، فقد بذل المنصور على الأقل جهداً لسحقها، فبعث ابن مغيث اليْحصبي عامل إفريقية لغزوِ الأندلس، ولكنّ عبد الرحمن مزّق جيش الخليفة العباسي وقتل عامله، وبعث برأسه ورأس جماعةٍ من أصحابه إلى مكة، ومعها كتاب المنصور لابن مغيث، فارتاع المنصور لذلك، وقال: ما هذا إلا شيطانٌ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، والظاهر أن السياسة العباسية لبثت بعد المنصور حيناً تشغل بأمر هذه الدولة الخَصيمة.

وإذنْ فشارلمان يصادقُ هارون ليتركَ يده مطلقةً في حرب خصومه المسلمين بالأندلس، دون أن يهيج ذلك صُدور بعض المتحمسين في المشرق. فيدعو إلى التئام الودّ بيْن الأندلس والعراق، ويذعن الرشيد

---

(١) مواقف حاسمة، ص١٣٣.

للرأي العام، وذلك دهاء ماكر قام به العاهل الإفرنجي، فهل كان الرشيد سعيداً بما كان، ولماذا؟.

إن بعض الكاتبين ينظر من جهةٍ مُقابِلة، هي أن المصالح مشتركةٌ، لأن شارلمان يناصب الإمبراطورية البيزنطية العداء، وهي في حُروب دائمة مع المسلمين، وقد خفّ الرشيد لقيادة بعض هذه الحروب غير مقصّرٍ في إعداد العدة، حتى كسب النصر بعد معارك طاحنة، فإذا تمّ لشارلمان أن يضمن سلام الرشيد، فقد احتَمى به من خصمه المتربّص، على حين سيرتاحُ الرشيد لما سيقوم به من مناوءة المسلمين في الأندلس؛ وقد عدّ كثيرٌ من الباحثين هذه المسألة حنكة سياسية من العاهليْن معاً، لأنّ كلّ واحد منهما نظر إلى كِيانِه الذاتيّ، قبل أن ينظر إلى عقيدته الدينيّة، وما عدّه الباحثون حنكةً سياسية أراه نقطةَ ضعْفٍ بارزة في مسلك الرشيد، ولا عليَّ أن أحكم على شارلمان فهو حرٌّ في سلوكه الشخصي، ولكنّ الخليفة المؤمن يعلمُ أن المؤمنين إخوة، وأنّ مداهمة المسلمين بأوروبّا مما يجب أن تُزعج شعوره الديني، إذ يسقطُ الخلاف حينئذٍ بين الدولتين الأموية والعباسية، ويبقى الإسلام هدفاً مرموقاً يحرص الجميع على قوته وامتداد نفوذه؛ وهذا خطأ واضح ارتكبه الرشيد، ولعل الأستاذ أحمد أمين قد عناه حين كتب هذه الكلمات التي افتتحتُ بها هذا الفصل.

وقد أزعجني من كتّابٍ مسلمين يخوضون في كتابة التاريخ، أن يحبّذوا اتجاه الرشيد، ويروْه دليلاً على حصافته وبُعد نظره، وكأنّ الرجل

في رأيهم سياسيٌّ أوروبيٌّ، يتبع السياسة (الميكافيلية) التي تسعى إلى بلـوغ الغايـة مهما كانت الوسـيلة آثمة مجرمة، وقد نَسـي هؤلاء أنهم مُلزَمون بأن يؤاخِذوا خليفة الإسلام بقوانين الإسلام، وإن ادّعاءَ بُعْدِ النظر، وكياسة التفكير، وإحكام الخطة لا يكون صحيحاً إلاّ إذا كان متمشياً مع شريعة الله، دون نظر إلى مأرب عاجل أو نفع سياسي.

ولعل الذين أنكروا من المؤرخين كلّ اتصالٍ بين شارلمان والرشيد، وهم نفرٌ من كبار الباحثين لم يصدّقوا أن يندفع الرشيد إلى سلوك هذا المركب الجامح، وقد زاد من قوة منحاهم أن الكتبَ التاريخية التي سطّرها مؤرخو العرب، لم تُشرْ إلى علاقة الرشيد بشارلمان ولو بسطر واحد، وحَدَثٌ كهذا إذا تمّ على النحو الذي فصّلتْه كتُب الغرب لا بدّ أن يذاع وأن يشتهر، وأن يتحدث عنه مؤرخو المسلمين في المشرق، كما تحدث مؤرخو المسلمين في المغرب عن علاقةٍ مماثلة بين عبد الرحمن الناصر، والدولة البيزنطية، حيث اعتمد إمبراطور القسطنطينية ما اعتمده شارلمان تماماً، حين رأى أن يُوثّق علاقته بخليفة الأندلس، ليكون درعاً له إذا هاجمه شارلمان؛ وكأن العقيدة الدينيّة لَدى أولئك وهؤلاء ليستْ بذات شأن يُذكر!! وإذا كانت الكتب الأوروبية قد فصّلت هذه الصلات المتبادلة بين عاهليْ الشرق والغرب، فسألخص في ما يلي بعض ما قيل، لتكتمل الصورة كما سجّلها المؤرخون.

يذكر المؤرخون الأوروبيون ثلاث سفارات تُبودلتْ بين الرجلين الكبيرين، حيث بدأ بالسفارة الأولى شارلمان، حين جهّز رسله إلى

بغداد فقطعوا الرحلة في ثلاثة أعوام بدءاً وعوداً، لصعوبةِ الانتقال حينئذٍ بين الشرق والغرب، إذ أرسلَ شارلمان في أواخر سنة (١٩٧هـ) وفداً مكوّناً من سفيرَيْن هما (سنجسمند) و(لنشفرد)، ومعهما مترجم يهودي يعرف العربيّة، وكانت رسالة شارلمان المكتوبة مع السفيرَيْن تتضمن ما يلي:

١ ـ أن يعهد الرشيد إلى شارلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شارلمان من أرض الأندلس، كما على شارلمان أن يشد أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية في البلاد التي اقتطعها الأمويون من ملك بني العباس.

٢ ـ أن ينعقد بين العاهلين حلفُ تعاونٍ من شأنه أن يُطلق يد شارلمان في ملك بني أمية بالأندلس، ويطلق يد الرشيد في ملك الدولة البيزنطية بالمشرق.

٣ ـ أن يسهّل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجّاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه، وأن يُعفيَهم من القيود والتكاليف التي وضعَها الرشيد إذ ذاك على أهل الذمة، وأن يحمي أولئك الزوار من عدوان الكنيسة البيزنطية.

والناظر إلى هذه الشروط، وقد تَرجمها الأستاذ الكبير عبد الحميد العبادي[1] عن الوثائق الإفرنجية المعتمدة لدى القوم، يدلّ على أن

---

(١) مجلة الهلال، العدد الخاص بالرشيد، ص١١٠٥.

المغانم كلها لشارلمان لا للرشيد، حيث نص الشرط الأول على أن يَعهد الرشيد إلى شارلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شارلمان من أرض الأندلس، كما عليه أن يشدّ أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية في تلك البلاد، وهو شرط خادعٌ بُني على وَهْمٍ لا حقيقة له، تسرّب إلى نفوس القائمين على الدولة العباسية منذ عهد المنصور حين أخفقت كلّ مشروعاته في إيثار القلاقل السياسية والحربية في وجه الخلافة الأموية بالأندلس، ولأنّه وهم خياليّ لم يذكر التاريخ أن جهداً ما قامت به الدولة العباسية منذ هزيمة الجيش العباسي بقيادة ابن مغيث اليحصبي ومقتله على يد عبد الرحمن الداخل، وقد أقر المنصور بعجزه عن العودة، وأَخَذَ بعض جلسائه يتملّقه بسبٍّ عبد الرحمن، فصَرخ في وجهه المنصُور، وقالَ وصْفُه المشهور: هذا صقر قريش، وهو اعترافٌ من سياسي كبير ببراعة خصمه، وتقديره لذكائه وموهبته السياسية، حيث نجح في ظروف كانتْ كلها بمجرد النظرة الأولى تدعو إلى اليأس والإخفاق، فأين هي إذْن مصالحُ الدولة العباسية في نواحي الأندلس التي يقول شارلمان إنّه سيرعاها! أكبرُ الظن أنّ الداهية الإفرنجي حَاوَلَ أن يبعث أملاً ما في نفسْ الرشيد، وهو يعلمُ تمام العلم أنه أملٌ موهوم تقوم المصاعب الشديدة أمام تحقيقه، ولكنه مما يتفق مع رغبة العاهل العباسي!.

أمّا إطلاق يد شارلمان في حرب الخلافة الأمويّة فهو ما يؤكّد عليه شارلمان ويسعى جاهداً إلى تحقيقه؛ وقد جعل بإزائه إطلاقه يد الرشيد في حرب البيزنطيين، وليسَ الرشيد بحاجة إلى مَن يطلق يده،

فقد بدأ بالحرب في عهد والده حين كثر التحرّش بالمسلمين هناك، وأعاد الكرة مرات، فصارت المسألة مسألة شدّ وجذبٍ بين الطرفين حتى انتهيا إلى صلح حَذِر، أخذ كلٌّ من الفريقيْن يعمل جهده في سبيل تأكيده، كيلا تندلع الحرب من جديد، فتعود على الطرفيْن معاً بالخسارة، مهما كان الكسب راجحاً في كفَّةٍ معينة، وإذنْ فشارلمان لنْ يطلق يد الرشيد في شيءٍ، لأنّ الحزب العباسي الذي أشار إليه بالأندلس حزبٌ موهوم؛ ولو قام هذا الحزب، وتأثّلتْ عواملُ تكوينه، لكان شوكة في حلق شارلمان قبل أن يكونَ شوكةً في حلق عبد الرحمن الداخل وخلفائه.

بقي الحديث عن حُجاج بيت المقدس، وقد اعترف شارلمان أنّهم كانوا يقابلون الاعتداء من إخوانهم المسيحيّين الذين ينتمون إلى الكنيسة البيزنطية ولم يتعرضْ لهم المسلمون في شيء، وما وَقَعَ أو يقع من بعض الخارجين على القانون من المسلمين يقعُ بين المسلمين أنفسهم، بعضهم من بعض، حين تعترض القوافلَ الحاجةَ إلى بيت الله بمكة عصاباتُ الأشرار من قطّاع الطريق، فيقتلون وينهبون، وما هو من الظالمين ببعيد! .

هذا ما أراه في أمر السفارة الأولى، وقد تكررت مرّتين دون أن يزيد الأمر شيئاً على ما كان في المرة الأولى، إذ إن السفارة الثانية كانت مبادلةً للهدايا الثمينة التي نصَّ عليها المؤرخون، أما الثالثة فقد حدثتْ بعد وفاة الرشيد إذ انتقلَ إلى ساحةِ البقاء، والركبُ في طريقه إلى بغداد وقد انتهىَ عهدُ الأمين بعد عهد أبيه، فقابلَ المأمون رجال السّفارة بما هو

معهود من الكياسة الدبلوماسية دون أن يسفر الأمر عن جديد.

وآفةُ كتّاب التاريخ لدينا أنهم يرجِعُون إلى الروايات القصصيّة في تسجيل ما لا يقفون عليه من الروايات التاريخيّة، ويحسبون ما جاء بهذه الروايات المتخيلة حَقّاً واقعاً، فقد تحدث الأستاذ عمر أبو النصر في كتابه (الهوى والشباب في عهد الرشيد) عن السفارة الأولى فقال بشأنها[1]:

«ذهبتْ رسل شارلمان إلى عاصمة الرشيد، فحَجبَهم الرشيد مدّةً طويلة، يقدّرها بعضهم بشهر كامل، فلمّا دعاهم إليه ودَخلوا إلى القصر، أبْصروا الرشيد جالساً على سريرٍ من الذهب الإبريز، مرصّع بالجواهر، فوقَ سُدّةٍ في صدر المجلس منصوبةٍ بين أسطوانتين مُجلّلتيْن بالوشي المنسوج بالذهب، وقد وقفَ عند كلّ منهما وُصفاءُ في أيديهم المناديل، ووراء السّدة من الجانبين حارسانِ، بيد كلّ منهما سيف مسلول، والسدّةُ عبارة عن مظلّةٍ قائمة على عُمد من الأبنوس المنزّل في العاج، وسقفُها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم جميلة، وفي حاشيته من الأمام أهلةٌ من الذهب مدلاّة، في كل هلالٍ منها أترجة ذهب مسبك، ويتدلّى من كلّ أترجة دُرَرٌ كبار بينها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام بديع من البصر، والرشيد جالسٌ على السرير في السّدَة تحت الظّلّةَ، وعليه ثياب رائعة لبسها في ذلك اليوم، وفوق رأسه قلنسوةٌ

---

(١) الهوى والشباب في عهد الرشيد، ص١٠٦، للأستاذ عمر أبو النصر.

حولها عمامةٌ سوداء من الخزّ الموشح، وبين ثناياها عقود من الجواهر بشكل سبحات بين تعاريج العمامة، وفي مقدّمتها فوق الجبهة شبهُ طرّة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من خلال الذهب، وقد نظمت بينها ثلاث لؤلؤات كبيض الحمام عند قاعدة العرف».

هذا الوصف الخيالي إذا دلّ على رخاء الدولة وسعة ثروتها الهائلة في عهد الرشيد، فإنه بعيدٌ عن الواقع، لأن الرشيد لو وضع هذه الأثقال من الذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت على رأسه وفوق جُبّته لمنعته من الحركة لثقلها الباهظ، ولأرْهقتْه إرهاقاً ما كان له أن يُهيِّئ أسبابه مهما دلّ على البذخ العريض.

وأظن القارئ يرى أني آخذتُ الرشيد مؤاخذةً شديدة. وهذا ما يجبُ أن أقرّره، لأننا نكتِبُ التاريخ لنستفيدَ في الحاضر على هُدىً من نتائج الأحداث الماضية، ولا نريدُ أن ندّعي أن الحُنكة السياسية هي التي توجب مصانعة الأعداء، واستمالتهم إلى صفوف المحايدين، ـ ولم أقلْ إلى صفوف الأصدقاء، لأنّ ذلك لن يكون ـ لأن هذه المصانعة ذات وقع مُريح، ونفعٍ منتظر، إذا لم تكنْ على حسابِ إخواننا في العقيدة واللغة والآلام والآمال.

وقد رأينا في العصر الحاضر من أَدعياء الدبلوماسية المصطنعة من أيّدوا قبارصة اليونان على إخوانهم المسلمين، واحتفلوا بزياراتهم الخادعة لبلاد الإسلام، ليعلنُوا أنّ المسلمين في قُبرص لا يجدون التأييد

من إخوانهم في الدين والعقيدة، كما رأينا من زعماء المسلمين من يؤيّد الهند في مسألة كشمير، ولا يقف مع الباكستان في استرداد حقها المشروع؛ هذه الأشياء وأمثالها تذكّرنا بالخداع الدبلوماسي القديم الذي يَرعى المصلحة الخاصة بعيدةً عن المستوى العام الذي يصير فيه المسلمون جميعاً جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى.

وقد حاضَرتُ ذات ليلة في هذه المعاني، فرماني بعض الماركسيّين بضيق الأفق، مع أنّ الشيوعيين كانوا حَرْباً أيّةَ حرب على كلّ من خالفهم في رأي، ولا يتورعون عن الاغتيال المبيد في سبيل تأييد نزوات شخصية لا تخدم الإنسانية في شيء، ولا يقال لهم: إنهم ضيقوا الأفق بل يقال: إنهم تقدميُّون!!.

* * *

٣ ـ نضال العلويين

كان النّضال المتّصل بين العلويّين والعباسيين مأساةً للجانبين معاً، وقد آثر الخلفاء أن يتحاشوه، وبذلوا وسعهم في مجانبته، ولكنّ العلويّين يرون أنفسهم أصحاب حق مشروع، ويعزّ عليهم أن يُغتصب حقهم الواضح، لأنّ الدعوة إلى آل محمد التي أعلنها الغاضبون على الأمويين كانت تَعْني لدى الناس آل عليّ.

فقد رَوَى صاحبُ الفخري[1]: «أن بني هاشم من طالبيّين وعلويّين قد اجتمعوا في ذَيْل دولة بني أميّة، وتذاكروا حالهم، وما هم عليه من اضطهاد، واتفقوا على أن يدعُوا الناس سراً، وقالُوا: لا بدَّ لنا من رئيس نُبايعه، واتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً، وقد حضر هذا المجلس من أعيان الطالبيّين جعفر الصادق، وعبد الله بن الحسن، وابْناه محمد النفس الزكية وإبراهيم، ومن أعيان العباسيين السفاح وأبو جعفر وغيرهما، واتفقوا على مبايعة النفس الزكية».

---

(١) الفخري، ص١٤٦.

ثم تطورت الأحداث وقامت الدولة العباسية فامتنع محمدٌ عن مبايعة السفاح، وحين مضى إلى سبيله، وتولّى المنصور امتنعَ عن بيعته هو وأخوه إبراهيم. . ولم يستطعْ أبو جعفر أن يسكت عنهما، وهو يَعرف أنهما يطلبان تنفيذ ما تمّ عليه الاتفاق من قبل، ولهما شيعةٌ تؤيدهما، وتراهما أصحاب الحق، وإذا كانَ مقامُهما الرسمي بالمدينة، فقد عيّن عليها أبو جعفر رباح بن عثمان، وهو والٍ شديدُ الكيد للعلوية، وفيه شراسةٌ حامية زادتِ النار التهاباً، فقد أقدم على حَبْس عبد الله بن الحسن مستطيلاً عليه، سابّاً إياه، وما كانَ له أن يلجأ إلى السباب، بلْ عليه أن ينفّذ أمر المنصور في اتّزان، كما جعَل يسبّ ابني الرجل، وهما محمد النفس الزكية وإبراهيم، وثار الناس عليه حين تحدّث عنهما فَوق المنبر بما يعلمون تجنّيه وبهتانه، وهم أهل المدينة الذين يعرفون تاريخ البيت العلوي، وكفاحه الدائب.

فلم يكن بدٌّ من أن يثور الأَخوَان، وهما يريان الناس يجمعون على حقهما، وقد ظنّ محمد أنّ الظاهر هو الباطن، وأنّه إذا جدّ الجد كان هؤلاء الذين يهتفون بمناصرتهم طوع أمره في ساحة القتال، فأعلن الخروج، وواجه جيش المنصور مُستبسلاً. وقد ساعَده عالم المدينة الإمام مالك حين أفْتَى بنقض بيعة المنصور، وأنّه لا بيعةَ لمكره، وليسَ على مكره يمين، كما لم يكنْ من الرأي أن يَذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة ليعلن الحرب، إذ اعتقدَ أن رسُلَه من القوم قد صدّقوه حين أبلغوه أن البصرة جميعها من رأيه، وأنها تبذل أرواحَها فداءَه وفداءَ أخيه؛ وكانت النتيجة

أن أخفق محمد في المدينة إذ خرجَ على المنصور دُون استعدادٍ حربي متكافئ وغرّهُ بالناس الغرور، كما أخفق أخوه بالبصرة، واستُشهدا معاً في موقعتيْن داميتين نشير إليهما فحسب، لأن تاريخهما المفصل له مكانه فما يكتب في سِفر يتحدث عن المنصور.

ولم تكد تلتئم جراحُ العلويّين بعد مصرع الزعيمين الكبيرين، حتى تطلّع الحسين بن علي بن الحسن إلى الخلافة، ودعَا لنفسه بالمدينة، ويقولُ المؤرخون إن: عاملَ (الهادي) عليها كان ذا نزقٍ خطير، إذ أكثرَ من الانتقاصِ للعلويين، وأساءَ معاملة أهل المدينة جميعاً، معتمداً على قوة الدولة، وكان الحسينُ هادئاً حين ذهب إليه يرجوهُ ألاّ يسب أحداً من أهل البيت، فلم يجدْ غير الزّراية والهوان، وسمعَ الناس ما قيل، وفيهم من يتحمّس ساعةَ الغضب، فيدعُو للثورة دون أن يقدّرَ رهبة الموقف، ويرى المسألةَ من السهولة بحيث يكْفي أن يَصْعد الحُسينْ منبر المدينة، وأن يسمعه الناس فيهتفون به، وينقضي الأمر، وقد كثُر الضجيج حولَ الحُسين، وجاءَه من يطلب أن يَسير إلى سِجن المدينة ليُخرج المعتقلين من آل بيته وشيعته مع مَن مَعهُ من الأنصار ففعلَ، وغرَّه أن يتم الأمر في سهولةٍ، فذهبَ إلى المسجد، وبايعَ الناس دُون أن يتذكّر مأساة الأمس، ويأخذ منها عبرة تدعُوه إلى الحذر من الهجوم قبلَ الاستعداد، وكانَ ما لا بد أن يكون، فقد زحفت جنود الخلافة، وتفرّق الشيعة حين جدَّ الجد، وسقطَ الحسين شهيداً.

ولنا أن نتحدث عن شعور الهادي حين جاءَه من يحملُ رأس الحسين

مستبشراً فرحاً، فقد بلَغ الحزنُ به مبلغاً كبيراً ـ وهوَ من هو صرامةً وشدة ـ وقال في النـاس، ما هذا؟ أتيتُم مسْتبشـرين برأس الحسـين، وكأنكم تأتُون برأس رجلٍ من الخارجين عليّ من بني التّرك والديلم، إنّكم تأتون برأسِ رجلٍ من عترة رسول الله ﷺ، وإن أَقلَّ جزائكم عندي ألاّ أثيبكم شيئاً[1].

هذا ما روَاه المؤرخون، وأنا لا أستبعده في شيء، لأنّ الهادي كان يعتقد في أعماقه أنه يخوضُ الحرب مع بني عمّه مضطراً مرغماً، وأنهمْ هم الذين يُثيرون الثوائر من حوله، ولو ركنوا للهدوء لوجَدوا السلام المطمئِن، فهو إذنْ يحاربهم على كُره مما كان يودّ، وقد نطق بما نطق ساعةَ أن شاهدَ ذَنَباً من الأذناب يحملُ رأس الحسين، وكأنّه يستهزئ بآل البيت جميعـاً، فأراد أن يعلم القـومُ أن الشـهيد الراحل فـوقَ مَن جاء مستبشراً، وأنّ المسألة كما قال البحتري من بعد:

شــواجــرُ أرمــاح تُقطــع بينهــم　　　شــواجـرُ أرحــامٍ ملـومٍ قطـوعهـا
إذا احْتربت يـوماً ففاضت دمـاؤها　　　تـذكرت القُربى ففاضتْ دموعها

ومضى الهادي، وجاءَ الرشـيد، وهو أرقُ منه عاطفةً، وأسلسُ مقاداً، وقد بدأ عهده باستمالة العلويّين، فرفع الحجر عنهم، وأطلقَهم من سجون بغداد، وأجزلَ لهم العطاء في سماحة لم تُعرَفْ لدى سابقيه، ولم يبق ببغداد غيرُ شابٍّ يعرفُ عنه حماسةً مشتعلة، وحميّة غاضبة هو

---

(١) المسعودي، مروج الذهب: ٢/ ٢٥٧.

العباس بن الحسن بن عبد الله فأبقاهُ ليغدق عليه الرزق بعيداً عن مهابّ العواصف.

وقد ظنّ هارون أنّه كتبَ صفحةً جديدة مع العلويّين، ولكنّ مصرع الحسين السالف قد تركَ ندوباً في نفوس القوْم، بل قُلْ: إنّ الآمال قد تولّدت من جديد، لأنّ المأرب خطير، وهو الخلافة وإمارة المؤمنين، فمهما بذلَ الرشيد من العطاء فهو في نظر القوم مغتصبٌ سلبهم الحق الواضح حين صارَ صاحب الأمر والنهي، والماضي لا يمكن أن يُتَجاهل بالعطاء الغامر، والعيشة الرافهة، ومن حول العلويين أناسٌ لا يَصْدُقون النصيحة، فيذكرون للقوم أن الدنيا لمن غلب، وأنّ الخلافة الأموية لم تسقطْ في يد آل البيت إلاّ حين قُوبلت بجيش أكبر منها قوةً وأغزر سلاحاً، وأن الوقائع المشهودة بين الجانبيْن كانت القوةُ الحديدية صاحبةَ الكلمة النهائية في حسمها، وجيوش عبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، وأبي العباس السفاح حين انطلقتْ في شتّى الأمكنة لم تكن تضمّ رجالاً يُواصلون الهتاف، بل كانت تضمّ أبطالاً يحملون السيوف، ويرفعون الرماح؛ وبهذه السيوف المصلتة، والرماح الطاغية كسبت المعارك وتم النصر.

أجلْ لم يكن في شيعة القوم من يتدبّر ويتأمل، فيقيس الحاضر على الماضي، ولكنّهم شباب يتحمّس ويثور، ولا يُحكم خطةً، ولا يدبّر أمراً.

وكأنّ توالي الأحداث الأليمة منذ عهد المنصور إلى عهد الرشيد

قد أيقظ يحيى وإدريس ابنيْ عبد الله بن الحسن، فأخذَا يتدبّران الموقف بعد معركة الحُسين الفاجعة في (فخ) بالمدينة، وقد رأيَا بعد التأمل الوئيد أنّ المدينة والبصرة والكوفة ليست ممّا يصلحُ لكسبِ الانتصار، فجيوشُ الدولة قريبةٌ متأهبة، وسرعانَ ما تعجل إلى الميدان حينما يدق ناقوس الخطر، وقد سقطتِ الدولة الأموية من قبل بجيوشٍ أُعدّت مبدئياً بخراسان بعيداً عن أرض الشام، وتم النّصر في خطواتٍ متزنة أُحكمت إحكاماً دقيقاً بعيداً عن الأرصاد، وإذن فلا بدّ من الهجرة إلى المكان البعيد شرْقاً أو غرباً، لتلتقطَ الأنفاس أوَّلاً، وليتسع الوقت للتدبير ثانياً، هذا ما رآهُ يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس، رأياه في خِفيةٍ وحذر، كيْلا ينكشف الكيد، فتُعجّل الدولة بحبسهما دُون فرار، وقد دَرسَا وجوه الأرض الواسعة من حولهما، ليختارَ كلٌّ منهما مكاناً يحتمي به.

وطبيعيٌّ أنْ يتمهل الرجلان كثيراً في الاختيار، وأن يَعرض الأخ على أخيه ما يرتئيه، طالباً رأيه، وأن يستقرّ العزم على شيء لا محيد عنه، وكان ما استقر عليه الأَخَوانَ أن يتركا المدينة خفيةً دون أن يحدثَا أدنى ضجيج، وأن يشرّق يحيى إلى بلاد الديلم، وأن يغرّب إدريس إلى المغرب، ولهما في المكانيّن النازحيْن فرصة قوية للعمل، لأنّ الناس في كل مكان يعرفونَ أن الحق حق آل عليّ بن أبي طالب، وأن بني عمومتهم من العباسية قد اغتصبُوا أمراً جليلاً لم يكن لهم في شيء، ولَوْ دَعَوْا لأنفسهم أيامَ الدولة الأمويّة ما استمع إليهم أحد، ولكنّ ثارات الشهداء من آل علي قد أرقت المضاجع، وأسالتِ المدامع، بل إن ذكرىَ الحسين بكربلاء قد نسجت ملاحم تُروى وتستعاد، حتى أصبح الحسيْن رمزاً لكلّ

حرّ يطلب العزة عن طريق الشهادة؛ فإذا ذَهب الأَخَوان ومع كل منهما هذا الرصيدُ الضخم من المجد الحافل والشرفِ الآهل، فلا بد أن تستجيب النفوس في شوق، لا سيما أنّ رجال الدولة العباسيّة ببغداد على بُعد شاسع، وإذا قدمت جيوشهم فسينهكها الأمد الطويل ضرباً في فدافد الأرض، فيقابلها من استعد وتأهب على ثقة ورجاء.

ولم يكن عفواً أن يتجه يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديْلم، وأن يتّجه إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب، حيثُ سافر الأخوان مُستتريْن في ليلٍ واحد، هذا إلى الشرق، وهذا إلى الغرب، وكانَ حظّ يحيى في بادئ النظر أوْفر من أخيه، لأن بلادَ الديلم مهد التشيّع، وقد غَرس فيها الخراسانيون حنيناً ذائباً لأولادِ فاطمة بنت محمد ﷺ، وزوجِ عليٍّ وأم الحسن والحسيْن، فهو ينزلُ على قوم يفهمونَ غاية مسعاه، ويعلمونَ أنّه ذِيْدَ عن حق كان له دون سواه، وما انتشرتْ دعوة أبي مسلم في هذه الربوع إلاّ تأثراً ببلايا الحسين وكوارث من تلاه من أبْناء فاطمة، وكم خَطب الخطباء في تعداد هذه الفجائع حتى صارت زَبُوراً يُتلى، لذلكَ ما كاد يَحيى يفد إلى هذه البلاد حتى تجاوبت الأصداء بدعوته، فاشتدتْ شوكته إذ حاطَه الأنصار من كل جانب.

وجاءَ النبأ إلى هارون ببغداد فأظهرَ الضيق المتبرّم، وعرفَ أنـه لنْ ينتصر على الرجل في معقله إلاّ ببذل ما لا طاقة له به من الأرواح والعتاد، وقد هَمّ بأن يكون على رأس الجيش الزاحف تشجيعاً لمن يتبعه من القواد، وهوَ متمرس بقيادة الجيوش من عهد أبيه، ولكنّ يحيى بن

خالد البرمكي قال له: كنْ أنت في مقرّ الخلافة تدبر الأمر، وتُصدر الرأي وسيكونُ الفضل ابني على رأس الجيش قائداً لا شك في إخلاصه، وذلكَ ما يُشعر الناس في بغداد وغير بغداد أن المسألة ليْست من الهول المفزع بحيث يَنهض لها الخليفة بشخصه، بلْ إنّ أحد قواده ليستطيع بتزكية منه أن يخمد اللهيب المشتعل ويرجعَ ظافراً بإذن الله.

وللرشيد ثقةٌ في يحيى وفي ولده الفضل، فسلّمهُ اللواء ليقود جيشاً يضم خمسين ألفاً من الجنود، وكانَ في الفضل بن يحيى ذكاءً وحصافة فقد رأى أن إراقة الدماء خسارةٌ فادحة للمسلمين وإن جلبتِ النصر لفريقٍ دون فريق، فإذا استطاعَ أن يصل إلى الصلح بوُعود مغرية يعمل على تحقيقها ففي ذلك نصرٌ أي نصر، أما إذا تعذّرَ وَجهُ الوفاق، فلا بدّ من أن يصطلي بنار الحرب!! لقد اقتنع بأن الرأي قبلَ شجاعة الشجعان، ومِن حِيلَ الرأي أن يكتبَ ليحيى مُستميلاً مذكّراً إياه كرم الرشيد وحُسن نيته، وأنّ العلويين ينزلون من نفسه منزلة الأشقّاء.

كما أرسل لصاحب الديلم وقد انضمّ إلى يحيى مَن يُغريه بالآمال الواسعة إذا حازَ رضا هارون، ووقفَ في صف الخلافة، وقدّم لَه ألف ألف درهم ليسهّل الأمر المستعصي، حين يخلو بيحيى، فيُريه أنّ الحربَ مهلكة مبيدة، وأنّه لا يضمن النصر، وقد أَخذتْ عليه بغداد بجنودها أقطارَ السماوات والأرض، ومن النّاس من يُظهر الحماسة الملتهبة قبل أن تشتعل المعركة، حتّى إذا جدَّ الجدُّ تفرّق الأنصار، وابتلعتْهم طيات الأرض، هكذا كان الشأن في معاركِ الحسين وزيد بن علي ومحمد وإبراهيم

والحسين، فهل سيكونُ الأمر مع هؤلاء غيرَ ما كان من قبل، والخليفة يعدُهم بالأماني الفسيحة. ويضمنُ لهم رخاء العيش إذ انحازُوا إلى جانبه وفي طوقه أنْ يفعل، ومازال صاحبُ الديلم يفتل ليحيى في الذّروة والغارب حتّى استسلم وطلبَ الصلح على أن يَكتب له الرشيد أماناً بخطّه.

وكانَ ذلك نصراً حاسماً للفضل، حيث ضمنَ النصر دون إراقة للدماء، فعجّلَ برسول إلى الرشيد يُبلّغه ما تمّ، ولم يُصدّق الرشيد بادئ ذي بدء لهولِ ما كان يتوقع، ولكنّ الرسول صادق، والفضل يطلب الأمان دُون مهلة، فبادَر الخليفة باستدعاءِ الأُمراء من بني هاشم والجِلّة من الفقهاء والقضاة وذَوي الرأي في الدولة، وكَتبَ الأمان المرتجى بأسلوبٍ صريح جليّ يحملُ كل معنى الاطمئنان، ووجّهه إلى الفضل بن يحيى، وسُرعان ما تقدّم به إلى يحيى مبشراً مهنئاً، فآثرَ السلامة، ورجَع مَعَ القائد إلى بغداد، فلقيه الرشيد أجمل لقاء، وأظهر ودّه الخالص، وأمرَ له بهبات وافرة من المال، وأجْرى عليه الأرزاق السنيّة، وجعل منزلَه في دار وزيره الأكبر يحيى بن خالد، وأخذ يتعمد زيارته بين الحين والحين سائلاً مسلّماً، وتمّ الأمر على ذلك ولكن إلى حين...

أمّا إدريسُ فقد نجحَ مسعاه في المغرب الأقصى والتفّ عليه الملأ من البربر والعرب والبدو، وكانَ في إدريس خلابةٌ أدبيّة، فخطبَ في القوم كثيراً، وبشّرهم برخاء الزمن ورضا الله، وإشراقِ المستقبل، وذكرَ ما لَقي العلويون من الخطوب الدهم، حتى قدّر له أن يأمنَ على نفسه بالمغرب، وأعلن نفسه والياً، فاتخذ مقرّ حكمه بمدينة (وليلى) وكثرت

جنودُه، فتقدّم بهم إلى ما حوله من البلاد، وفتح تلمسان، وأظهرَ النيّة على مواصلة الغزو، حتى يحرّر إفريقية جميعها من سلطان الرشيد، وفي كل يوم يزداد نفوذه، ويلتف حوله الأنصار من كلّ صوب.

وجاءت الأنباء إلى الرشيد ببغداد، فجمَع مجلس شوراه لينظر في خطب هذا الثائر المستقل، وقد بلَغ أمرُه من النجاح ما لم يكن يتوقع في أمدٍ قريب، وكانَ من رأيه أن يهيِّئ جيشاً لقتاله، ولكنّ مناقشة هذا الرأي أبدتْ صعوبات متوقعة فالبعدُ شاسع، والبلاد مجهولة لجيوش الخلافة، وهو في رأي المغاربة معتدٍ ظالم هَضمَ حقوق العلويّين، واعتلى الخلافة كآبائه بقوة السيف، لا بمنطق الشرع، وإذا كان أهل المشرق يعرفون للعباسيين مكانتهم، وجليل هممهم، فإن المغربيّين لا يعرفون عنهم إلا أنّهم معتدون ينازعون الحقّ أصحابه، وسيُقاتلون عمّا يعتقدون أنه الحق، وإنْ سالت أرواحهم في سُوح القتال لأنها حينئذٍ تكون رخيصة في ذات الله، وسيَنال الصريع شرف الاستشهاد، وهو ما هو عند الله! تحدّث القوم عن كل ذلك في محضر الرشيد، وانتَهى الرأي إلى أن مجازفةً كبرى تقوم بها الدولة حين ترسل جيشها إلى أماكن سحيقة ذات وعورة ومشاق، وهي لا تضمن النصر بعد أن يكون الطريق الممتد قد نال من القادمين فأورثهم نَصَباً يحتاج إلى الراحة لا إلى الجلاد في معمعة القتال.

لذلك آثر الرشيد ومن معه من خاصته أن يلجؤوا إلى المكيدة، ما دامتِ الحرب غير متاحة في هذه الربوع، فاختارَ رَجُلاً داهية من

خاصّته هو (سليمان بن جرير) ويُعرف بين الناس بالشماخ، وكانَ من قبلُ على صلة بإدريس ويحيى وشيعتهما، فَهُمْ منه في مأمن، اختارَه ليذهب إلى المغرب، ويعلن انضمامه إلى إدريس، إذ ضاقَ بمظالم بني العباس، ويتقن حيلَته حتى يصبح مقرّباً إليه، فيحوز ثقته، وقد خطب الناس في (وليلى) ليعلنَ مظالم بني العباس، وأحقيّة إدريس وشيعته بالأمر، لأنهم أبناء فاطمة، وعترة الحسن والحسين، وحاز بذلك ثقـةً كبيرة عند إدريس فأدْناه، وأصبح صاحبَ سره ونجواه، حتّى إذا أمكنتْه الفرصة، وجلسَ كما يجلس دائماً على مائدة إدريس، وضع في شرابِه سُمّاً قاتلاً لا ينجو شـارب من حتفه، وبـادر بالفرار حيثُ لا يعلمُ أحد أين سار.

وكأن من الحتم أن يموتَ إدريس فجأةً، وليس له من يخلفه إلا جنينٌ في بطن أم ترتقب ساعة الوضع، وما عَسى أن يفعلَ وليده، ولكن أتباع إدريس قد هالَهم أن يُغتال سيدهم على هذا النحو الماكر، فأصروا على أن يكون الطفلُ القادم خليفةَ أبيه، وأن يقوم بالوصاية عليه أكبر أتباعه شأناً، وهي حميّة معروفة في البدو والبربر، حيث لا يَصبرون على ضيْم، ودارت الأيام فكبر الطفل وبُويع بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب على رغم الرشيد؛ وقد جَلسَ في حاشيته يأسى على ضياع بلاد المغرب الأقصى من يده، ويعدّ ذلك فألاً غير سعيد، ولكنّ ذوي الدهاء من حاشيته أخذوا يهونون عليه الأمر إذ قالُوا: إن أبا جعفر المنصور وهو من هو في صرامته وبأسه، قد تم ضياع الأندلس في عهده، وبذل جهده الجاهد في استـردادها دون جدوى، ومعَ ذلـك لم يكن اقتطاع الأندلـس من يده

مصدَر سبّة تلحقه، لأن الأقدار هي الأقدار، ولنْ يتحكم في مجراها بشرٌ مهما عز واستطال، وسمع الرشيد ما قيل، فتجرّع الكأس على ألم، وعذرُه بينه وبين نفسه أنه لن يأتي بالخوارق، فيطوي شقة الأرض المترامية دون عناء!.

ظل يحيى بن عبد الله معتقلاً ـ أو كالمعتقل ـ في منزل يحيى بن خالد، حتى جدَّ من أمره ما سأذكره في الحديث عن مأساة البرامكة. أما الرشيد فقد أخَذ الحذر من كلّ طالبيّ يسكن العراق، وبثّ العيون والأرصاد على العلويين في كل منزل، وكل حيٍّ، وجعلَ يُهدّد من يلوذ بهم بأقصى العقوبات، ويُبادر بالتنفيذ دون نكوص، فتخوّف الناس، وأخذوا يبتعدون عنهم، وكأنّهم نُذُر الموت، وكانَ لموسى الكاظم صدًى طيب بين الناس، وهو مسالم لا يميل إلى الشّر، ولم يظهر الخلاف في وقت ما، ولكنّ الرشيد قد اعتقله وضيق عليه الخناق حتى مات سجيناً، ومَن كان في مثل حرج الرشيد يسهل عليه أن يَحبس ويعتقل، وإن سواه ليقتل ويستأصل، والحكم بلاءٌ لا هناء.

* * *

٤ ـ مع الثائرين

لم تقف معارك الرشيد عند الروم أو العلويّين كما أسلفنا من قبل، بل انتقلت إلى ثورات عنيفة أرّقته، وشغلتْه شُغلاً متصلاً، والذين يتحدثون عن مجالس الغناء المتصلة التي لا تكاد تنقطع صباح مساء في قصر الرشيد، في مجلسٍ بيْن ندمائه وجواريه، نسائلهم في وضوح: كيف قاد الخليفة هذه المعارك المتصلة في الشرق والغرب؟ وكيف سهر الليالي الطّوال في إعداد الخطط لقادته إن لم يكن على رأس الجيش في آفاقه البعيدة؟ أيكون مجلس الغناء متّصلاً، وهو مشغول البال بإعداد الذخائر، وإحكام الخطط؟!. وإذا كان التاريخ قد سجّل هذه الوقائع المتكررة بما لا يحتمل الشك، فإن ما دونها من مجالس اللهو لم يكن متّصلاً كما أريد له أن يكون.

لقد عادت حرب الخوارج جذعة بعد أن أُطفئت نارها أمداً طويلاً على يد الوليد بن طريف الشاري الشيباني. إذ خرج بنصيبين على طاعة الدولة العباسية سنة ١٧٨ هـ، وبادر ففتك بإبراهيم بن خازم عامل الرشيد على المدينة، وضمّها إلى حيازته، ولم يسترح مكتفياً بما صنع، بل سار إلى أرمينية، وبويع بالإمارة أكثر من عشر سنوات، وله أعوان يبعثون

الرعب لدى من لا يستجيب لطاعتهم، وكلهم بُسلاء قرؤوا تاريخ أسلافهم في عهد الدولة الأمويّة، فاحتذوا حذوهم في الاستهانة بالحياة، وقد جاء إلى الرشيد من يحدّثه أن الوليد بجيشه الكثيف سيهجم على بغداد نفسها، ومعه من بايعوه على التضحية والاستشهاد، لا يرجون نفعاً دنيويّاً، ولا تستخفهم أطماع الجاه والسلطان.

ونظر الرشيد فوجد أن جيوشه لقيت الهزائم المنكرة على يد الوليد، وأن الأمر سيزداد خطورة إذا قدم بغداد وجمع حوله خصوم الدولة ممن يظهرون الطاعة الآن، ويستعدون إلى النشوز عند أول بارقة تلوح؛ لقد عزم على أن ينازل الوليد في الجزيرة قبل أن يهجم على العاصمة، واستمع إلى مشورة يحيى البرمكي، فأشار عليه أن يظلّ في عاصمة الخلافة فلا يخرج إلى لقاء الوليد وجهاً لوجه، ولكن يبعث بمن يثق فيه، ووقع الاختيار على يزيد بن فريد الشيباني، وهو بطلٌ مشهود المواقف، مُتَعالم البسالة والجرأة بين القوّاد، وهو بعد شيبانيّ من قبيلة الوليد، فمن الجائز أن ينضمّ إليه بعضُ أتباع الوليد من بني شيبان، إذ يعتقدون أنّهم في ظلّ قائدٍ من دمهم لا يعرّضهم معرض الهلاك إذا استسلموا طائعين.

ونظر يَزيد فوجد المعركة ستكون أشدّ لهيباً، لأن القوم قد باعوا أرواحهم، وأحبّوا الاستشهاد على البقاء، ومَن معه لا يحملونَ روح التضحية التي لدى هؤلاء، فآثر التريّث حتى يجد منفذاً للالتحام تدورُ فيه الدائرة على الوليد، وطال الانتظار بعض الشيء، فسَمح لأعداء يزيد

وفيهم بعض البرامكة أن يُوغروا الصدرَ على يزيد. إذ يزعمون أنه تباطأ عن خوض المعركة رعايةً لبني شيبان ممّن هُم لائذون بجيش الوليد، وأن هذه الروح التي سيطرت عليه ستفقده النّصر عن يقين، وغلى الدم في وجه الرشيد، فبعث إلى يزيد مهدّداً متوعداً، وقابلَ يزيد الأمر بروّية، ثم لجأ إلى الحيلة، فكتبَ إلى الوليد يقوله له: ما ذنبُ الجنود التي تقودها إن كنتَ خالصَ النيّة صادق اليقين؟ وكيف يكون الحال أمامَ الله لو ذهبت آلاف الأرواح من لدُنـك ومن لدني دُون أن نحْصل على نصـر حاسم، إنّ الرأي أن تتأهب لمبارزتي وَحدي وأتأهّب لمبارزتك، فإذا انتصرَ أحدنا، فقد انتصر جيشه، وطُويت الحرب وصِينت الأرواح.

وكان في الوليد اعتدادٌ بنفسه، فأسرعَ في الاستجابة، وانجلى الميدان الرهيب عن بطلَيْن كبيريْن من شيبان يتصارعان، فتطارَدا ساعةً لا يبلغ أحدٌ من غريمه مبلغاً، ثم أمكنت يزيد الفرصة فضرب رجلَ الوليد بالسيف، فسقطَ من فوق جواده، فهَجم عليه، وصاح بحاشيته فأدركُوه واحتزوا رأسـه، ورأىَ الخـوارج مصـرعَ الوليـد فنزل الارتبـاك في صفوفهم، ولكنّ الفارعـة أخت الـوليد، ركبت جوادهـا، ووضعتْ لثامها، وحملتْ سيفها، ونادت يزيد للمبارزة، وسمع القائد صوت الفارعة فارتاب، وكانتْ تبلغه الأنباء عن شجاعة الفارعة، وتَصَدُّرها للقتال، فأدركَ أنّها صاحبةُ اللثام، وأخذتْه الشفقة عليها، بل عزّ عليه أن يُقال إنه صَرَعَ حرّةً من بني شيبان، فأخذ يُطاردها في رفق، حتى سنحتْ لـه فرصةٌ فضرب حصانها بسـيفه، فوقعت على الأرض، وخـرّت من فوقه فانكشفَ لثامها، فصاح بها: اذهبي يا فارعة، ولا تفضحيني في

بني شيبان فأنا لا أنازل النساء؛ ورأتِ الأختُ أنّ القائد كان يداورُها فقط دون أن يهجم عليها بشراسة المحارب الغضوب، فعلمتْ أنه بطلٌ لا يُغلب. وكانت الفارعة شاعرة مجيدة، فنظمت قصيدة في رثاء أخيها اشتهرت في الأدب العربي، وجاء فيها:

فيا شجرَ الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزعْ على ابن طريف
فتًى لا يحب الزاد إلاّ من التقى ولا المال إلا من قناً وسيوف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدوّ أو نجاً لضعيف
عليك سلام الله وقفاً فإنني أرى الموت وقّاعاً بكل شريف

ولم تستطع في هذه القصيدة أن تهجو قاتله يزيد بن مزيد، بل كان قصارى ما قالته عنه:

فإن يكُ أوداه يزيد بن يزيد فرب زحوف لفّها بزحوف

ومع ما يغمر قلبها من الحسرة على أخيها، فقد وجدت من ينقد شِعرها، ويقول إنها سالمت قاتله ولم تَهجُه، وهو نقدٌ تافه لا يصدر عن إنسان عَرفَ أنّ يزيد قد أنقذ روح الفارعة بعد أن كانت في قبضة يده، وقد أدركتْ ذلك عن يقين، فرأتْ من الكرامة ألا تناله بهجاء، وذلكَ ما يُقدّر لها دون أن يكون مدعاةَ انتقاص.

وجاءت أنباء النصر إلى الرشيد، ففرح بالنصر فرحاً شديداً، وخرج على رأس فريق من كبار أعيان الدولة لاستقبال القائد المنتصر.

وأغدق عليه الهبات الوافرة، وقال له: لم تخب فراستي فيك منذ عرفتُك في حرب الروم أيام المهدي رحمه الله، وكنتُ على يقين من إخلاصك، ولكنّي استبطأت النصر فحسب، وسأجيز من مدحك من الشعراء لأنك أهل للمديح، فشكر يزيد مولاه، وعاهده على الطاعة والولاء.

فإذا تركنا أمر الوليد بن طريف، إلى ثورات المشرق بخراسان، فسنجدُ أن الرشيد قد كان يعاني من جرّائها ما لم يسترح لَه معها بال، لأنّ استسلام يحيى بن عبد الله، لم يكن معناه في رأي الرشيد أنّ أتباعه من الخراسانيين قد آثروا الانقياد، بل معناه أنّهم فقَدوا رئيساً كانوا يلتفون حوله، ومتَى ظهر سواه سارَعوا إلى الانضمام إليه، فلا بدّ إذن أن يلي خراسان قائد مستبصر يجمعُ إلى المهارة الحربيّة خبرةً وافية بالنفوس، ومعرفة تامةً بما تضمره النيّات من أسرار قبل أن ينكشف عنها الستار.

وقد استشار الرشيد وزيره يحيى فيمن يسدّ هذا المسدّ، فأشار بتولية يزيد بن فريد الشيباني، وكانَ الخير في ذلك لو استجاب الرشيد إلى مشورة يحيى، ولكنّه توقف عن يزيد وسأل يحيى عن رأيه في علي بن عيسى بن هامان، فأشارَ عليه ألاّ يكون لعليّ شيء من الأمر في أي مكان من أمكنة الدولة لما يعرفه من شرَهه في جمع المال، وظُلم الرعية، وخراسان في حاجة إلى من يرأب الصدع، ويجمع الشمل، ومِن سوء الحظ أنّ الرشيد لم يكن يرى في علي بن عيسى ما يراه يحيى بن خالد. وقد ظنّ أن منافسةً شخصية بين عيسى وأحد أبناء يحيى هي التّي دفعت به إلى المشورة بإقصائه، فبادر الرشيد بتعيين علي بن عيسى، وسكت

يحيى دُون إلحاحٍ في الاعتراض، إذ عَرف بخبرته السياسية أنّ الرشيد يحاول أن يُبدي علمه الصحيح بما لا يصل إليه يحيى.

ولم يَمضِ وقتٌ حتى جاءت هدايا عليّ المالية على نحوٍ غير منتظر، فقد أرهق الناس في جمع الضرائب واستصْفاء الأموال إرهاقاً جاوز كل حد، حتى جَمع في وقت قريب ما تتعذّر جبايته في سنوات، وظنّ الرشيد أن ذلك دليلٌ على صواب رأيه في الرجل، وخطأ يحيى فيما أشار، فقعدَ الرشيد بمكان مرتفع وأجْلسَ معه يحيى ليعرض ما قدّمه من الكنوز الهائلة؛ ثم قال ليحيى: هذا الذي أشرتَ بعدم توليته خراسان، فسكت يحيى، فطلب منه الرشيد أن يتكلم فقال في هدوء: إني لأحبّ أن يكون رأيُ أمير المؤمنين أصح الآراء، وفراسته موضع الصواب، وذلكَ ما أعهده وأعتزّ به، ولكني أقول: إني أستطيع جمعَ هذا المال في ساعات من (الكرخ) لو سلكت مسلكَ عليّ، فأجبرتُ الناس على تقديم ما يملكون، وظلمتُ كل شريف حتى ألحقتُه بالمساكين من الناس، فقال الرشيد متعجباً: كيف تجمع مثل هذا المال من الكرخ في ساعات، فقال يحيى: يعلم أمير المؤمنين أنه قد تقدم لي (عونٌ) التاجر بسفط مُلئ بالجوهر قوّمته بسبعة آلاف ألف، ولو كنتُ على مذهب علي بن عيسى لأخذتُ السفط، وأنكرت تسلّمه، وحبستُ الرجل، وفي الكرخ مثل عون كثيرون، فأفعلُ بهم ما أفعل بعون، وتمتلئ ساحتي بالجوهر والدر والياقوت، فأجمعُ أكثرَ مما جمعَ عليٌّ في أقل من ثلاث ساعات، فسكتَ الرشيد ولمْ يعقب.

ثم جاءت الشّكايات الصارخة إلى الرشيد تتحدّث عن طغيان علي بن عيسى وتقول: إنّه صادر الأموال فأفقر الناس جميعاً، وتَساوى الأغنياء بالبائسين في العوز والإملاق، وإنّ الأمر لوْ دام كذلك دون تدخل الرشيد لاضطرّ الجياع إلى الثورة، ثم جاءتْ أنباءَ أخرى تقول: إنّ علي بن عيسى قد أجمعَ على خلاف الرشيد، وقد التفّ حوله من الجند من يتابعونه حين أغراهم ببعض ما غَصب من الأموال، فلم يجد الرشيد بداً من أن يذهبَ بنفسه على رأس جيشٍ كثيف إلى (قرماسين) وعلمَ علي بن عيسى بما جعل الرشيد يخف إليه، وتيقّن أنه لن يثبتَ لجنودِ الخلافة، فحمل أكثر ما لديه من المال، وقابلَ هارون متذلّلاً، وأتْحف قواده ورجال حاشيته بما بَهر عيونهم من الذهب، فقالوا للرشيد: قد جاء الرجل مُستكيناً، ولو أضمرَ الغْدر لاعتصم في معاقل خراسان. وما زالُوا يُوهمون الرشيد أن الرجلَ صار نهباً للوشايات الكاذبة. فرضى عنه، وردّه إلى عمله، ولم يكنْ ذلك صائباً سديداً، ولعلّ الرشيد لم يعرفَ ما قدّم من الرّشى لحاشيته فمالَ إلى تصديقهم.

وقد ظنّ علي بن عيسى أنه انتصرَ على مَنْ شكوه، فما كادَ يستقر في إمارته حتّى عاوَده الشّره الطامع، فبادَر باستصفاء كلّ ما تقع يده عليه من أموال الناس، ليعوّضَ ما قدم إلى الرشيد وحاشيته، وقد خَرجَ على الدولة حينئذٍ رافع بن لَيث بن نصر بن سيّار إذ ارتكبَ جُرماً خلقياً وصَل خبره إلى الرشيد، فأمرَ عليَّ بن عيسى بمعاقبته. فلم يستطع علي أن يفعل شيئاً ذا بال مَع من يلتفّون برافع، فعظم شأنه، وجاءه الثائرون على ظُلم عليّ، فكانُوا

قوّة مؤازرةً، ولم يَدْرِ الرشيد ما يصنع حينَ علم أنّ علي بن عيسى يعتصمُ بالجبال مع نفر كثير من أتباعه في حين أن رافع بن ليْث يحشد جيشاً آخر، وكلاهما سيُنازل الرشيد.

وهنا ظهرت حيلة أمير المؤمنين البارعة فقد اختارَ قائداً باسلاً من قواده هو البطل الشهير (هرثمة بن أعين) وخَلا به وحدَه، دون أن يشرك في الأمر أحداً من وزرائه، وقال له يا هرثمة: أنتَ موضعُ ثقتي، وبي ممّا صنع علي بن عيسى أكثر مما بي من ثورة رافع بن ليث، وكلاهما فاسقٌ خارج، وإذا بدأتُ بعزل عليّ انضمّ إلى رافع، واتسع الخرق، لذلكَ سأكتب إليه أنّي أثق به، وأنّي سأمدّه بالسلاح والعتاد والرجال. وتسيرُ على أنك مَدَدٌ له، فلا يعلمُ أحدٌ من جندك شيئاً، فإذا التقيتَ به فأظهرْ له المودةَ، وقابِلْه بالبشاشة حتى يأمنَ ويتركَ من حوله من أنصاره، وحِينئذٍ تهجم عليه وتكبّله بالقيود، وتقرأ على الناس كتابي هذا الناطق بعزله، ثم تعلنُ أن أمير المؤمنين قد عرف خياناته المتكررة في سلب الأموال، وإزهاقِ الأرواح، وأنه بعث بك لاستقصائه.

وفي أسرع مما يتوقع سار الجيش من بغداد إلى خراسان وكان في هرثمة مهارة وكياسة، فكتب رسالة في الطريق إلى علي بن عيسى ينبئُه بالمدد السائر نحوه تأييداً لسلطانه حتّى يتفرّغا معاً إلى حرب رافع، ومن قبلُ جاءَه كتاب الرشيد بما يدل على ذلك. فزَالَ من نفسه كل ريب، وتقدّم هرثمة بن أعين بجيشه، فقابلَه علي بن عيسى مرحّباً، ثم مضيا إلى دارة الحكم، وجعل هرثمة يحادثه في شأن رافع، ويُبدي ارتياح

الرشيد لشخصه، وأنّه خاضعٌ لمشورته، وما مرَّ وقتٌ يسيرٌ حتى صفق هرثمة بيده، فَدَخلتْ جنودُه ومعَها الأغلال الحديديّة لتُوضَع في يد عليٍّ ورجله، ثم حَمله إلى المسجد الجامع. وارتقى المنبر ليُعلن للناس أن أميرَ المؤمنين قد ساءَه ما انتهى إليه من سيرة هذا الفاسق، وما جرَّه من الخراب المدمّر على الناس، فأمرَ بعزله، ومصادرةِ كلّ ما يملك، وإرسالِه مخفوراً إلى بغداد ليلْقى أشد النّكال، وقد عيّنه أميرُ المؤمنين والياً على خراسان، فضجّ الناس بالتهليل والتكبير، وعَلتْ أصواتهم بالدعاء للرشيد، وانفسحت آمالهم.

وهنا تقدّم هرثمةُ وقد وثِق من القوم، فاقتحمَ منازل علي ومنازل أولادِه وجمعَ ما بها من الذخائر وساقها إلى الرشيد محمولةً على ألف وخمسمائة بعير! ولم يشأ هرثمة أن يبدأ الحرب مع رافع خضوعاً لأمر الرشيد حتى يقوم أمير المؤمنين بنفسه فيباشر القيادة العليا باعثاً نار الحمية في النفوس، وهذا ما أكّده أمير المؤمنين؛ وما كان لهرثمة أن يحيد عنه، وقد كان الرشيد عند وعده، فبادر بالذهاب إلى خراسان في ربيع سنة ١٩٣هـ، وفي عزمهِ أن يُلاقي العدو بشخصه، ولكن أجلَ الله وافاه في طوس ـ كما سيجيء بعد ـ وظل هرثمة والياً شرعياً على خراسان، وعمل رافعٌ على عدم التحرّش به ما دامَ هرثمة لم يبدأ القتال، ثم جرتْ أهوالٌ يعرفها الناس بين الأمين والمأمون، انتهتْ بانتصار المأمون فتقدم إليه رافع يعلن الطاعة والاستسلام، فارتاح المأمون لما طلب، وأصدرَ عفْوه عنه، تجنّباً لإراقة الدماء.

والشامُ. . هل استكانَ مَن بالشام إلى الدولة العباسية بعدَ سقوط الدولة الأموية؟! لقد كانت دمشقْ حاضرةَ الإسلام، تتّجه إليها الأنظار في إكبار، وكان لرجالها الحُظوة في الدولة الأموية رياسةً وقيادةً وولايةً، هذا إلى الهبات الوافرة، والمحاباة السافرة، أفتُصبحُ بغدادُ وارثة هذا المجد! والموروثُ حيٌّ يرى ويسمع، لقد فطن العباسيّون إلى ما قد يثورُ في نفوس القوم من شجون، فكان عبد الله بن علي عم الخليفة الأول حاكمَ الشام، وهو مَن هو قسْوةً وصلابةً، فأطفأ الثائرة بالسيف، وحينَ وُوجه بحرب المنصور، وزَحفتْ جيوشُ أبي مسلم لحربه، كانتْ جنود الشام أول المنصرفين عنه، لا حبّاً في المنصور، ولكن ترقّباً للدائرة المتوقعة على أحد المتحاربيْن، وكلاهما خصم.

ثم تعاقبَ الوُلاة من لدن الخلفاء، فكانُوا يقدّرون الموقف المتأزم ويُحاولون أن يبتعدوا بالزيت عن النار، وفيهمْ من بلغ من الحنكة مبلغاً كبيراً. فكانَ كمن يطأ الشوك حافي القدمين، ذلكم هو إبراهيم بن محمد المهدي، إذ عَرف أن الحزبيْن المتصارعين بالشام كانا مثار القلق من قبل، فالقيسيّة لا تترُك عداءها لليمنيَّة، وتلك تُبادلُها ما تشعر به، فإذا قدَّم إبراهيم طائفةً على طائفة، فلن تسكت الثائرة، وهنا هداه تفكيره إلى عملٍ أشبه بالتأليف المسرحي هذه الأيام، إذ كانَ يأمر حاجبه إذا قدمَ أعيانَ الفريقيْن أن يجعلَ القيسيّين عن يمينه واليمنيّين عن شماله في زورة، ويعكس الوضع في زورة ثانية كيلا يتميز فريق عن فريق، فإذا جاءَ أوان الطعام أمرَ حاجبه ألا يلتقي اثنان من جانب واحد متجاوريْن؛ إذ يجعلُ

من دون اليماني قيسياً ومن دون القيسي يمانياً.

وقد خطب فيهم خطبة ذات يوم على الطعام فقال ما فحواه: «إن الله عز وجل جعلَ قريشاً موازين العرب وجعلَ مُضر عمومتها، وجعلَ اليمن خؤولتها، وافترضَ عليها حبّ العمومة والخؤولة، فليس يتعصب أحد إلا لجهلٍ، وأفاض في ذلك إفاضة ختمها بقوله: يا معشر مضر إن الجانب الأيمن أعلى من الجانب الأيسر، وقد جلسَ فيه فريقٌ منكم، وسيكون هذا الفريق في الجانب الأيسر في اليوم التالي، فلا تحسبُوا أني أميلُ لأحد على أحد».

وبهذه الحساسيّة رجع الوفاق إلى الشام ستّ سنين، وانطفأت العصبية الجاهلية حيناً من الدهر. ولكنها اشتعلت فجأة في عهد الرشيد، فقد جاءته الأنباء أن العصبية قد هاج هائجها بالشام. وتفاقم أمرها إلى حدٍّ يؤذن بالخطر، وكانَ موسى بن يحيى بن خالد البرمكي أمير القوم حينئذٍ. وبذلَ جهوداً جبارة ليُبقي على الوئام، ولكنّ بذور الفتنة قد نمت وأينعت وحان وقتُ اقتطافها، فأخذَ موسى يزورُ منازل القوم مَنزلاً منزلاً، ويَعِدُ ويمنّي، حتى خمدت الفتنة رَدْحاً من الزمن لم يتجاوز العامَيْن.

ثم شبت النار ثانية، وكانت العاصفة شديدة دفعت بالنار إلى حيث امتدت فلم يستطع لها موسى بن يحيى إخماداً، وتأزّم الموقف في قصر الخلافة، فاجتمعَ الرشيد بوزيره جعفر بن يحيى، وقال له: لقد عظم

الخطب، فإمّا أن تخرج، وإما أن أخرج، فقال جعفر على الفور: بل أقيك بنفسي، ونهضَ من فوره على رأس جُندٍ مختار مدرّب، فعرفَ رؤوس الفتنة وحصدهم حصداً، ثم جمع المسالمين على المعروف وبذل العطاء الكثير، ووعد برعاية الخليفة وعطفه حتّى ضمن الهدوء ورجع إلى بغداد، فاستُقبل استقبال القائد الفاتح، ومدحه الشعراء في مجلس أدبيّ كبير، وكان مما قاله منصور النميري:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنةٍ فهذا أوان الشام تخمد نارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلافى صدعُها وانجبارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه وصَعْدَته والحربُ تدمي شفارها
ومن تُطوَ أسرارُ الخليفة دونه فعندكَ مأواها وأنت قرارها
لقد نشأتْ بالشام منك غمامةٌ يُؤمَّل جدواها ويُخشى دمارها
فإن سالموا كانت غمامةَ نائل وغيثٍ وإلاّ فالدمار قطارها

وتقدمت وُفود الشام في ركب جعفر، فشكرت أمير المؤمنين على همته وبرّه، وأثنت على مجهود جعفر بما هو أهل له.

هذه قلاقل مزعجة عاناها الرشيد وكَابَدها، وهي دليلُ يقظته وحذره، وآية استعداده ومضائه، أفيكون معها ما نقرأ عنه من اللهو الجامح، والطرب الممتد، ومجلس الجواري المتّصل؟! أو أنّ هذه خيالات مغرضين؟!.

* * *

مأســاة البــرامكة

جعلت العنـوان خاصاً بمأساة البرامكـة، لا بتاريخهم، لأني لو قصدتُ أن أكتب تاريخهم لخرج الأمر على القلم في هذه الصفحات المحدودة، فتاريخ القوم لا يفيه مجلد يستقل بأخبارهم الفسيحة ومآثرهم الرائعة، ومع ذلك لا بد في حديث المأساة من الإلمام ببعض هذا التاريخ على إيجاز يجمل ولا يفصّل، لأن في ذلك ما يبيّن حقيقة المأساة كما تلوح لي، وأقول كما تلوح لي إذ ليسَ لي أن أجزم في أمرٍ اختلطت فيه الأقوال اختلاطاً يدعُو إلى التردد قبل الحسم، ولا أكتم القارئ أني أحسّ في نفسي بعطف شديد على البرامكة، فقد شقُّوا طُرقاً للكرم، وسبلاً للمجد اعترف بها أعداؤهم، ولمْ يستطيعوا مع نيرانهم المشتعلة أن ينكروا ضوء الشمس في مشرق الصباح.

على أني أحسّ بعد قراءاتي المتتابعة في تاريخ الرشيد، أنّه في ذات نفسه لم يكنْ سعيداً كلّ السعادة بنكبة البرامكة، فقد اضْطُرّ إلى أمرٍ لم يكن ليرضاه لَوْ صفَا الجوّ قليلاً من دسائس المغرضين، وإخِاله وقَفَ بيْن أمريْن أحلاهما مرّ، فأقدَم على أشدِّهما مرارة، وهو يسلم سفينته للريح العاصفـة في يومٍ ممطر هائج؛ لم يكن الرشيد سعيداً في ذات

نفسه، وقد فَقَدَ أعز مَن كانوا غُرّة عهده، ومصدرَ مجده، ولكنّ المُلكَ له مخاطره وأهوالُه، وقد أقدَم مَن قبله ومَن بعده مِن الملوك على قتْلِ آبائهم وأولادهم حين تخوّفوا على الملكِ من أناسٍ تجري دماؤهم في عروقهم، لقد قَتلَ أحمد بن طولون ولَده العباس مضطرّاً، وكان حينَ تهيج لوعته عليه، يخرجُ متنكراً بالليل ليزور قبرهُ باكياً، ويخشىَ أن يراه الناس في حُزنه الكظيم، فيجعل الليل ستاراً بينه وبين عيون الناظرين، كيْ لا يعجبوا لِقاتلٍ يبكي على القتيلِ في غير معركة الحب، ولعلَّ من إعجاز القرآن أن تُطالع قول الله عز وجل: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ـ٢٣].

نرجعُ إلى حديث البرامكة فلا نجدُ في وصفهم أبلغ مما قاله ابن طباطبا في تاريخه المعروف بـ(الفخري)، إذ بدأ حديثه عنهم بقوله:

«كانتْ دولتُهم غرّةً في جبهة الدهر. وتاجاً على مفرق العصر، ضُرِبت بمكارمها الأمثال، وشُدّت إليها الرحال، ونِيطت بها الآمال، وبَذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتْها أوفر إسعادها، فكانَ يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرة، والسيول دافقة، والغيوث ماطرة، أسواقُ الآداب عندهم نافقة، ومراتِب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبّهة الملك ظاهرة، فهم ملجأ اللهيف، ومعتصم الطريد. ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمُ ... بني برمك من رائحين وغادِ»

ولعمري هل كان الشاعر الملهم يَحسّ العاقبة المنتظرة لهؤلاء الكرام حينَ قال هذا البيت في بعض مدائحهم، لأنّ جو المدح لا يُوحي بهذا التشاؤم إلا إذا كانت هناك بروقٌ تلمع في الظلام لتشي بشيء منتظر الحدوث؛ أوإذا علم ذلك أبو نواس، فيحيى البرمكي في خبرته الطويلة، ودهائه العميق كانْ أدْرى وأوْجَع، وكم أرسلَ الزفرات حسرةً على ما يُنتظر، وكم دقّ الأجراس في أذن جعفرٍ ولده مُنبّهاً محذراً، ولكنّ الأمور جرتْ في سننها المعهود فوصَلتْ إلى نُقطة الاصطدام.

كانَ خالد بن برمك والد يحيَى وزيراً للسفاح، وقد كرهَ لقَب الوزير لما يحوطـهُ من العداء المُشْبع بالدسائس، وقد سَاعدَ المنصورَ مِن بعدِ السفاح مُساعدةً كانت من عوامل تأسيسِ مُلكه وهلاكِ أعدائه، ثم خصّ المهدي ولَده يحيى بن خالد بشؤونٍ كثيرة، أهمّها القيامة على رعاية ولدِه هارون، فاختلط به اختلاطَ الأب بابْنه، بل أكثرَ من اختلاطِ الأب بابنه، لأنَّ المهدي في سُلطانه المبسوط لم يكن يستطيع التفرّغ لأسرته على ما ينبغي أن تكونَ رعاية الوالد الشفيق لأبنائه، فاختار يحيى لهارون كما اختارَ للهادي ولياً آخر.

وقد عَرفنا مِن قبلُ في فصل الحديث عن البيعة جهد يحيى في الدفاع عن حقّ هارون في ولاية العهدَ أمامَ جبّار عنيد كالهادي، حيثْ لم يوافقْه على سلب الرشيد حقّه المقرّر في بيعة المهدي، وفي الوقت نفسه لم يكن فظّاً في الخلاف، بل سلك سبيلاً دقيقاً، كان به يمشي على متْن السيف القاطع، والعجيبُ أن قدَمَه قد نَجتْ من حدّ السيف، فلم تسلْ منها

قطرة دم، وفي هذا من الذكاء النادر، والحصافةِ الداهيـة، ما يجعلُ الرجل المحنّك فوقَ وزراء عصره حنكـةً ومداراةً ومواجهـةً، إذْ جازَ أن تكـون المواجهـة في إتّقـان المكيدة، وبراعـةِ الاحتيال.

ثم جلسَ الرشيد على سريرِ الملك، فاستوزرَ يحيى بن خالد، وقد كان كأبيهِ ونائبهِ ووزيره من قبل، فنهضَ الرجلُ ـ كما يقولُ ابن طباطبا ـ بأعباءِ الخلافة أتمّ نهوض، إذ سدّ الثغور، وتداركَ الخلل، وجبى الأموال، وعمّر الأطراف وأظهر رونق الخلافة، وبهاءَ المملكة، وكانَ أولادُه من حوله يشُدّون من أزْره، ويأْخُذون الأبصار بما يهبون من العطاء، وقد ساروا للحجّ في ركب الرشيد، فكانُوا أعظمَ موقعاً في النفوسِ من أمير المؤمنين، وفي هذه الرحلة المقدّسة قال أحد الشعراء:

إذا نـزلـوا بطحـاء مكـة أشـرقـت ... بيَحْيى وبالفضلِ بن يحيى وجعفر
فمـا خلقـت إلا لجـودِ أكفّهـم ... وأرجلهـم إلاّ لأعـواد منبـر

وقد سمعَ الرشيد بأذنه من يقول: إن العامَ عامُ البرامكة، وكانَ قد أعطى كثيراً، وبالغَ في العطاء، ولكنّ صداه قد ضَاعَ في مهرجان بني يحيى، وأحسَّ الفضل بن الربيع بما في نفس الخليفة من الألم فانتهزَها فرصة للوقيعة، ودفعَ بَعض الشعراء إلى أن ينظمَ أبياتاً تهيج نفس الرشيد، وترمضه وتضنيه، لا سيّما إذا كانتْ بذرة الغيرة قد نمتْ في قلبه، ولن تجدَ أسرعَ من الوصوليّين يتبعون كل ناعق، فيقولون ما لا يعتقدون طمعاً في اصطياد المال، وما أسرعَ ما وَجد الفضلُ شاعراً يقول:

قــل لأميــنِ الله فــي أرضــه	ومَــن إليــه الحــلُّ والعقــد
هذا ابن يحيى قد غدَا مالكاً	مثلــكَ مــا بينكمــا حــدّ
أمــركَ مــردودٌ إلــى أمــره	وأمــرُه ليــس لــه ردّ
وقد بنىَ الدار التي ما بنى الفُرْ	سُ لهــا مِثــلاً ولا الهنــد
الــدرّ واليـاقـوت حصبـاؤهـا	وتُــربهــا العنبــر والنّــدّ
ونحــن نخشــى أنــه وارثٌ	ملكــك إن غيّبــك اللحــد

ومن المنتظر أن يثورَ الرشيد، حين يقرأ الأبيات، وأن يَسأل عن قائلها فلا يهتدي، لأنّ الأبيات كتبت في رُقعة، ودُسّت له في حُجرته وتحت طياتِ حاشيته، وقد استبدّ به القلق، فقرأَها لخاصّته، وكلّهم - وعلى الأخصّ زوجتُه زبيدة بنت جعفر - لا يُرضيهم أن يكون للبرامكة سلطانُ من يأمر وينهي، ويُعطي ويمنع، وما رجعَ الرشيد من مكّة حتى كانَ الضيق يأخذُ عليه نفسه، حتى لا يجدَ مفرّاً من شدته، وحتّى فكر في أنْ يعتزم أمراً يجب أن يدبّر له الحيلَ الماكرة، وقد جمعَ حوله مَن كاشفهم بسرّه، ففرحُوا واستبشروا، إذ هُم في واقع الأمر الذين ساقوا الخليفة إلى سوء الظنّ، أما وَقد تحقق ذلك، فليواصلوا الطّرْق على الحديد الساخن.

لقد ذهب الكاتبون في تعليل هذه المأساة مذاهبَ شتى أستطيعُ أن أجملها فيما يلي:

١ - أن العباسة أخت الرشيد، كانتْ تحضر مجالسَ الرشيد مع جعفر باعتبارها زوجاً لجعفر، كَتَبَ الرشيد عَقْده عليها، لتحلّ له رؤيتها واشترطَ عليه ألا يتّصل بها اتصال المرء بزوجه، ثم تبيّن له أنها حملت

وولدتْ منه، فانتقمَ لما يزعمه من الغدْر به وبأخته.

٢ ـ أنّ بني برمك لم يُسلمُوا في الظاهر وإنما كانوا يكيدون للإسلام بإظهارهم الإسلام وحين تحقق الرشيدُ ذلك عزم على استئصالهم.

٣ ـ أن الدسائس كثرتْ من حول الرشيد، وقامَ الجواسيس بإعدادِ بطاقات تحمل شعراً يدلّ على تمكن البرامكة من السلطة، وانفراد الرشيد بالقصرْ ليلهو لا ليحكم.

٤ ـ أن جعفر بن يحيى ـ كأسرته جميعها ـ كان متشيعاً، وقد أطلق يحيى العلوي مُخالفاً أمر الرشيد، فانتهزت الدسائس هذه الواقعة لتطلع الرشيد على فسادِ ولاءِ البرامكة نحوه!.

هذه أهمّ ما يقال عن أسباب النكبة التي دَعت إلى استئصال القوم، ولنْ أناقش الآن السبب الخاص بالعبّاسة، فهو مُفْتعل مختلَق، وله مكانُه في فصلٍ آخر عند الحديث عن أسرة الرشيد، أمّا أنّ البرامكة لم يسلمُوا إلا في الظاهر، فأمرٌ ظاهرُ الفساد، لأنّهم خَدمُوا الدولة منذ قيامها بدءاً من عهد السفاح، وعاشَرُوا المنصور في عمره الأطول، وحَسُنت علاقتهم بالمهدي حتى كانَ يعهد إليهمْ أدَق الأمور، وأشدّها حَرجاً من معضلات الدولة، فيقومون بها خير قيام وفي السّنوات الأولى من عهد الرشيد كان الخليفة يدعو يحيى أباه، ويأمرُ أن يقوم الناس له بما يقومونَ به نحوه من أسبابِ التَجلّة والتوقير، كما كانَ لا يَصْبر عن بُعد جعفر بن يحيى ساعةً من نهار، بلْ إن النهار لا يكفي، فكان يرسل إليه ليْلاً ليكتمل به أُنس مجلسه، ومِن المحال كلّ المحال عَلى داهية أريب مثل أبي جعفر

المنصور أن يُعاشر خالد البرمكي ووَلَده هذا الأمد الطويل في حُكمه المتقلّب عليه سعداً ونحْساً، ثم لا يدرك أنّ البرامكة يضمرونَ الكراهية للإسلام، وعينُه من ورائهم ترصدُ كل حركة، وأذُنه تتسمَّع كل نأمْة، حتى إنّه حين أراد أن يهدم إيوان كسرى واستشارَ خالد البرمكي وقال له إن الإيوان مصدرُ فخرٍ لك يا أمير المؤمنين، فَهو يشهد أنك استوليتَ على أصحابه بمجدك وعزّك، نظرَ إليه المنصور وقال: لا تزال فيك الأعجميّة يا خالد، فأخذَ يتنصّل ما استطاع، وحين هَدم المنصُور بعضَ أجزاء الإيوان، ورأى أن نفقات الحمل إلى بغداد أكثر ممّا يؤدي البناء نكَصَ عن رأيه، فقال له خالد لا تفْعل كيلا يظنّ الناس عجزك!! ولكنّه كان رَجلاً عملياً لا يعبأ بآراء العامة، ورأى المسألة من الناحية الماديّة مُرهقة فعَدل عن هدم الباقي!.

هذا الخليفةُ الداهية المحنّك لا يصلُ من الغَفْلة إلى درجة أنّه لا يعلم بوَاطن مستشاريه، وقد آكلهم وشارَبهم، ووقفَ على أمور السّر والجهر لديْهم، ثم وضعَ فيهم ثقته الكاملة.

وكذلك كان المهدي من بعده، بل إنه لم ير رَاعياً أميناً يخصّه بعناية ولده هارون غير يحيى بن خالد، فكيفَ ينشأُ هارون معه حتى يبلغ الأربعين. وهو لا يعلم في هذا المدى الأطول شيئاً عن خُبث نيّته نحو الإسلام، وما كانَ الرشيد متّهماً في دينه حتى يسكتَ عن أمرٍ أعز عليه من نفسه! وقد خاصَمَ الهادي يَحْيى وسجنه بالنسبة لموقفه من ولاية العهد، وانتزاعِها من هارون! ألا يَكونُ من مصلحته لدى العامة أن يُعلِنَ أنّه

سَجنَ يحيى لشكِّه في عقيدته الدينية، فيَلقى التأييدَ من المجتمع الإسلامي، لو تَوهّم بعض التوهم أنّ الرجل منافقٌ يُظهر ما لا يبطن! وإذنْ فالقولُ بأن القوم كانوا يُبطنون السوء للإسلام اختلاقٌ كاذب، لا تدلّ عليه أدْنى شبهة يُمكن أن تُحاك، وعلى الذين يختلقُون الفرية أن يَجْعلوا لها أصْلاً معقولاً ليمكن أن تسير على قدميْن!.

فإذا انتقلنا إلى الدسائس التي حِيكت للقوم، فالحقُ أنها أدّت دورها تمام الأداء، وقد كانَ الفضل بن الربيع داهيةً ماكراً، وهو يعرفُ أن الرشيد لن يُصغي إليه إذا افترىَ الفريات الكاذبة على يحيى وجعفر والفضل؛ لأنّه متّهم أمامَه بمعاداتهم، فلجأَ إلى زبيدة بنت جعفر زوجة أمير المؤمنين، وأوْغرَ صدرها من ناحيةٍ عاطفية لا تملكُ لها ردّاً، فقد زَعَم أن هوى القومِ مع المأمون لأنّ أمه فارسيّة، وإذا ثَبَتتْ أقدامهم بعدَ ذهاب الرشيد، فسينتقَلون بالأمر إلى المأمون، ويجدُون تأييداً من أتباعهم الكثيرين، وهمْ ملءُ المكان ببغداد، والعالم الإسلامي.

هذا الطّرْق المُلِحُّ على قلبِ زبيدة جعلَها تخافُ على مصير الأمين، فأخذتْ تتسمَّعُ إلى الأراجيف، ولا يفتأ المغْرضون يأتُونها كلّ يوم بما يثير شُجونها من أكاذيب عن تمكّنهم الساحق. واستعدادهم لقلبْ نظام الحكم إذا وَجدوا الفرصة المناسبة. فإذا رأتِ الرشيد وكانت منه بمنزلةٍ كُبْرى أخَذتْ تحرّضه وتُقدّمُ له الأدلة مما تسمع، وكانَ في الرشيد ميْلٌ شديد لها، فجعل يَصغي، والأدلةُ الموهومة تَتقاطرُ على سمعه كل ليلة، حتى لم يجدْ راحة لنفسه سوى أن يُعلن لها، أنّه سيأخذُ للأمر أهبته، وهو

الآنَ بصدد تَهْيئة المناسبة الطارئة. وقد دلّته على من يشايعونها في بغض البرامكة، فجعلَ يستمع إليهم، ويقرّبهم من مجالسه، وهذا ما استَشعرَهُ يحيى قبل الكارثة، فأخذَ يتوسّلُ إلى الرشيد قَدْر ما استطاع، وجعل يُنبه الفضل وجعفر إلى أنّهم أمامَ مأساةٍ منتظرة، وهكذا كانت الدسائس عاملاً حاسماً دون نزاع!.

أما التشيّع الذي نُسب للبرامكة، فَلَنا مَعه وقفةٌ يسيرة، لأنّ ظاهر الأمر يُوحي بهذا التشيّع، أما المدقّق الفاحص فلَنْ يَغْتَرَّ بالظاهر لوجود ما يَعصف به من التأويل، فنحنُ نعلم أن البرامكة من لَدن خالد البرمكي قد عاصَروا الفِتن العلوية التي هبّت أعاصيرها في عهود السفاح والمنصور والهادي والرشيد، ولم يَثبتْ ما يدلّ على أيّ تعاطف بالقول أو الفعل، ولو بدتْ شبهةٌ في مسلكهم لأبي جعفر المنصور ما سكت عنها، وهو الذي لم يسكُت عن عمّه الذي وطّد دعائم الحكم للدولة العباسية بسيطرته الباطشة، وكذلكَ كانَ الأمرُ مع المهدي والهادي! فهل انقلب البرامكة متشيّعين في عهد الرشيد بالذات! وإذا كان كل سياسيّ يبغي الصلاح لنفسه وأسرته فيما يضعه من سلوكٍ خاص به، فما الذي يَبغيه يحيى البرمكي وولداه الفضل وجعفر من تقويض ملك الرشيد، وإقامة صرح العلويّين، أكانُوا ينتظرونَ منهم جاهاً وسلطاناً أكثر مما هم فيه في عهد الرشيد، لقد كانتْ أمور الدولة قبلَ مأساتهم في قبضةِ أيديهم.

وكان الرشيد يرتاح لما يأتون إذ كفوهْ مؤونة التدبير بله التفكير، وليسَ مثل يحيى بن خالد في حُنكته وتجربته ودهائه بالذي يجهل أنّه نال

مع أولاده ما لا مطمعَ وراءَه لوزير، إلا أن تكونَ إمارة المؤمنين، فهل يقدمُ عاقل على هَدم مجدٍ قائم راسخ الأركان في انتظارِ أملٍ قد يجيء أو لا يجيء، إنّه بالنظر إلى شخصه وحده وبالنظر إلى مستقبلِ أسرته، مضطرٌ إلى أن يكون مع الرشيد إذا هاجمه العلويّون، فهمْ سَيْفُه الباتر، ويدُه الباطشة، وإذا تمّ للعلويين الغلَبة فلن يتركوهم سادة يسيطرون بَل لا بدّ من الاستئصال أو ما دُونه؛ فالقولُ بتشيّع البرامكة نكتةٌ مضحكة لا يلتفت إليها إلا مَن يُريد أن يسطِّر الأقوال المسموعة دُون تمحيص، أما ما استند إليه الدّساسون في تأكيد هذه الفرية، نواهي الأساس، ولو كان الرشيد في هدوئه المتّزن لعصف بما قيل. ولكن الأمر كما قال القائل:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توّهم

والرشيد لم يُسئ الفعل إلاّ بما يُقذف في سمعه من وساوس، ولنتعرض لموقفي الفضل وجعفر وَلَديْ يحيى من العلويّين. وهما اللذان حيكت حولهما الدسائس، بحيثُ لم يستطع الدساسون أن يقولوا شيئاً عن والدهم يحيى، ولا عَن أخيهم موسى، والأربعةُ رؤوسُ البرامكة، وأصحابُ الرأي والتنفيذ.

أما الفضل، فقد اتجه إلى منازلة يحيى بن عبد الله العلويّ حين خرجَ على الرشيد بطبرستان، والديلم والتف حوله من الأنصار جَمعٌ لم يُسمع به من قبل، وجاءَ النبأ إلى الرشيد فأرّق مضجعه، وندبَ الفضل بن يحيى لقتال يحيى في جَيْش قيل إن عدده ثمانون ألفاً؛ وفيهم أكبر قواد

الدولـة، وخيرةُ أبطالها، وكـان في الفضل حنكـة وكياسـة فقد رأى أن الحرب ستأكل الفريقيْن معاً، وقد لا تُفضي إلى نتيجة حاسمة، ومن الخير أن يراسلَ يحيى فيعلمه بقوة جيْش بغداد وأنه منتصر لا محالة؛ ولكنّ دماء المسلمين يجب ألاّ تضيع هباءً إذا أمكنَ صونُها استماعاً لداعي السلم، وجعلَ يخوّف يحيى ويمنّيه، ويُوعده ويعده، ويرسلُ له الوسطاء يشرَحون له فوائد السلم ومنزلته عند الله والناس، لأنّ المتحاربين مسلمون؛ وليْسوا في معاركهم يأمَلون الشهادة التي لا تُتاح إلاّ لمن قاتَل الأعداء، وقد دَعا الله إلى إصلاح ذات البيْن حين قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ [الحجرات: ٩]، وما زالت الرُّسل بيحيى حتى استجاب، واشترطَ أن يكتب إليه الرشـيد أماناً بخطه يطمئنه على مستقبله، وجاءَ الخبر للرشـيد، فسرّ أعظم السرور، وأسرع بكتابة الأمان، وأشهد على نفسه القضاةَ والفقهاء وجِلّة بني هاشم، ومشايخهم، ووجّه به إلى يحيى مع جوائز سنيّة وهدايا فاخرة، فانْصَاع يحيى، وقَدِمَ مع الفضل إلى بغداد، فلقيه الرشيد في مهرجان حافل، وقدّم له المال الذي لا حصر لعدّه، وأنزلَه منزلاً سرياً، وأمر الناس بزيارته والتسليم عليه، وكانَت فرحةُ بغداد بنصر الفضل دون حرب أكبر من أن توصف، فجلس يستقبل المادحين ومما قاله في هذا الشأن أبو ثمامة الخطيب:

سدّ الثغـور وردّ أُلفـة هـاشـم ... بعـد الشتـات فشعبهـا مُتَـدَانِ
عصمتْ حكومته جماعة هاشم ... مـن أن يجـرّد بينهـا سيفـان
تلك الحكومة لا التي في أمرها ... عظم الأسى وتفرق الحكمان

وظلّ يحيى منعماً بعطف الرشـيد، وقد خرجَ حاجّاً إلى بيت الله بإذن الرشيد، ورجع سالماً موفور السعادة حتّى نشطت السعاية من جديد تُفْرغُ في أذن الرشيد بواعث القلق والخوف، ولكنّه تذكر الأمان الذي منحه إياه ممهوراً بشهادات العلية من الفقهاء والرؤساء وأعيان الدولة وفي مقدمتهم الرشيد نفسه؛ فأراد أن يتحلّل منه، فوافَقه بعضُ الوصوليّين، وعارضـه محمد بن الحسن في موقف أثبت رجولـة العلماء.

وكأني بالرشيد وقد أراد أن يكونَ يحيى تحت سمعه وبصره، فوكل به جعفر بن يحيى البرمكي، ليكون معتقلاً في قبضته، فظلَّ في القصر ممتعاً بكل شيء إلاّ أن يخرج ويُقابل شيعته، وفي جعفرٍ تسرّع وتعجّل، فقد بلغتْ ثقتُه بالرشيد حدّاً كبيراً، وكثيراً ما عارضَ رغبته بحكم دالّته عليه، وكانَ الرشيد يأنس به أكثرَ من أُنْسه بأخيه الفضل، لأنّ الفضلَ كان رجلَ إدارة وحزم، ولَه مروءةٌ تمنعه اللهوَ والعُكُوف على مجالس الأنس، بل إنه حذّر أباه من سلوك جعفر أكثر من مرّة، وأفهمهُ أن تبسّط الرشيد معه لا يعني أنّه رفع كلّ حدٍّ للكلفة، فعَليْه أن يرعى مقامه، بل عليه أن يظهر بمظهر العازف عن اللهو إذا دُعي إليه، كما عَزف الفضل عنه في شمم أبيٍّ.

وإذنْ فقد كان الرشيد لا يُرحّب بمجلس الفضل، ويفضّل أن يرمي به أقصى البلاد والياً دون أن يشهده رجلَ جدّ وتوقر، وقد فهم جعفر أن الرشيد أصبحَ لا يُعارض مذهباً انتحاه، فحينَ أمر الخليفة برقابته الشديدة ليحيى العلوي، لم يتذكر خطورة ما أُمر به، وجَعل جعفر يزور يحيى بين

الفينة والفينة، وفيه عُلو يُظهِرَه صاحبَ أمر ونهي، فاهتبل يحيى العلوي هذه اللّقاءات المتكررة، ورَجاه أن يُخلي سبيله ليضرب في شاسع الأرض، وفي نشوةٍ من نشوات الاستعلاء الخادع أصدرَ يحيى أمرَه بإطلاق يَحيْى من محبسه، وهو ما كان يأمله أعداؤه في بلاط الرشيد، فذهبُوا بالخبر إلى زبيدة، وأوهموها أنّ فتنة تدبر في الخفاء، وأنّ أمر العلوية لا بدّ قادم؛ وأيّ شيء يُفزع زوجة أمير المؤمنين من هذا النبأ الرهيب؛ ولم تلبثْ أن تقدّمت بالخبر إلى هارون خائفة مغضبة، وكأنّها أظْهَرتْه على وثيقةٍ كاملة التوقيع تُثْبِتُ صحة رأيها في البرامكة، ولم يكد الرشيد يخرجُ من مجلس زبيدة حتى لقيه الفضل بن الربيع، وهو الذي أوحَى إلى زبيدة من قبل، فأخبره بما كان من أمر جعفر مع يحيى، وفي الرشيد صلابة وعناد فغضب في وجه الفضل، وقال له: وما أنت وهذا؟! لا أمّ لك، لعلّه فعل ذلك عن أمري!

واستدعى الرشيد جعفراً فقابله بالبشر والترحاب، وتفرّق الحديث شُجوناً وأبواباً دون أن يطرق خروج يحيى بادئ ذي بدء، حتى إذا قربَ موعد الفراق قال الرشيد لصاحبه في هدوء: ما فعَل يحيى بن عبد الله؟ فقال جعفر: هو بحاله يا أمير المؤمنين، في الحبس الضيق والكبول والأغلال فقال: بحياتي؟! فأحجم جعفر، وعَرف أنّ الأمر قد ذاع وما من إعلانه بدٌّ، فقالَ: لا، وحياتك يا سيدي، لقد أطلقتُه حين وثقتُ أنّه لا مكروه عنده، فقال الرشيد: نِعم ما فعلت، وما عدوتَ ما في نفسي؛ فلما خرجَ أتبْعه ببصره حتى توارى عنه. فينقلون عن الرشيد أنه قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك!.

وأتساءلَ هل كان إطلاق يحيى مظهراً من مظاهر التشيع لدى جعفراً. أو أنه كانَ أريحيّة شابّةً لم تُصادفْ موقعها الصحيح؟! الحقّ أن تهمة التشيع غير ظاهرة بالمرّة. وماذا يستطيع أعزلُ ضعيف أن يفعلَ أمام دولةٍ قوية الجنود والعتاد؟ أيستطيعُ أن يذهب إلى شاسع الأرض ويقيم دولةً كدولة الأدارسة؟ إنّه سهل العريكة، وإن تنازَله وأَخْذَهُ الأمانَ يوم خرج في طبرستان يدلّ على أنه رجل سلم لا حرب، وهبْه ـ في منطق جعفر ـ جمع الجموع كدأبه من قبل، فالدولة قادرةً على هزيمته؛ هذا ما قدَّره جعفر، وقد أخطأ التقدير عن يقين. لأنّ تَوقي الداء خير من التصدي لعلاجه بعد استفحاله؛ وإذا كان هذا ما جرى في خاطره ظانّاً أنها سحابة صيْف ستنجلي عن رضا الرشيد، فإنّ ما جرى بخاطر الرشيد كان على الضّد ممّا جرىَ في بال جعفر، لقد كثُر الإلحاح على سمعِه من أعداء البرامكة في مخدعِه الآمن لدى زبيدة. وفي مجلس استشاراته مع أمثال الفضل بن الربيع، هذا الذي انتهز الفرصة فهيّأ فرداً من بني الزبير ابن العوام كيْ يشي بجعفر وبيحيى معه، وينقل كاذباً حديثاً عن صداقةٍ أكيدةَ وعلاقـةٍ ذات أهداف، فحين جـاءَه النبأ بـإطلاق يحيى مالَ إلى تصديق كل ما يقال، وصمّم على قتلـه بتدبير محكم لا أجد داعيـاً إلى تفصيل أدْواره، فيكفي أنه قُتلَ وهو آمن السرب لا يتوقع خطراً، إذ فاجأه (مسرورٌ) بالسيف، فانتهت حياة، وخُتم تاريخ. . .

بعض الذين يكتبون التاريخ يظنون أنفسهم يكتبون رواية لم تكتمل فصولها، فيحاولون أن يملؤوا الفجوات بما يعنّ لهم من وجهات النظر، وفيهم من يريد المثالة بين القراء، فيصطاد روايات ضعيفة لا حقيقة لها

في منطق العقل ليبني عليها أموراً تكون جديدة على الأسماع ظاناً أنه بهذا الجديد قد اهتدَى إلى ما لم يهتد إليه أحد من قبل، ومهما كانت هذه الروايات الملفّقة من الطرافة والجدة فهي لا تثبت أمام التمحيص، ونحنُ نعرف أن الدنيا لمن غلب، وحينَ دُحِر البرامكة بكى عليهم من يَعرفون لهم جانب الفضل فيهم ويقدّرون أثرهم في تشييد الملك، وتسكين الفتن في شتى البقاع، وهم كثيرون كثيرون.

ولكن الذين يحطبون في حبل كلّ منتصر، جَعلوا يلفقون عنهم من الأراجيف ما لم يثبت لتحقيق، فلم يكفهم أن يقولوا: إن البرامكة كانوا أهل تشيع للعلويّين، ويحاولون أن ينقلوا الخلافة من آل العباس إلى آل عليّ، بل رأوا في إرضاء الرشيد أن يصفوهم بالزندقة والرجوع للمجوسية كيداً للإسلام؛ كما قال ذلك من قبلُ قومٌ في الأديب اللامع عبد الله بن المقفع حين قُتل مظلوماً، والرجلُ بريء ممّا افتري عليه، وتهمةُ الزندقة سأعود إليها بعد حين، ولكنّي أقرّر أن البرامكة لم يكونُوا ـ وهم عقلاء ـ يَرضوْن بالتشيّع ويحاولون تثبيت أركان الدعوة العلوية، وهم أصحابُ الأمر في الدولة العباسية وكما ذكرتُ من قبل، وإنما هي رحمة بقومٍ لهم صلة برسول الله ﷺ، وهذه الرحمة لم يخلُ منها قلبُ الهادي نفسه، حين صرخ في وجوه من أتْوه برأس ابن عمه العلوي: ما لكم تستبشرون هكذا؟ أجئتم لي برأس كافر من الترك أو الديلم؟ بل لم يخل منها قلب الرشيد نفسه، فقد رووا أن الرشيد حين سمع قول شاعره منصور النميري مخاطباً أمير المؤمنين في شأن العلويّين:

وإنّــك حيــن تبلغهــم أذاةً وإن ظلمـوا لمحـزون الضميـر

قال لمنصور النميري: إن شيئاً كان في صدري منذ عشرين سنة لم أقدر على إظهاره فأظهرتَه بهذا البيت، ثم أمر الفضل بن الربيع أن يُدخل الشاعر بيت المال ليأخذ منه ما شاء[1]، وليس فيه إلا سبع وعشرون بدرة فاحتملها الشاعر جميعها، وإذنْ فما فعله جعفر بيحيى على خطورته لم يكن في سبيل انتظار مُلك يجيئه بعد فراره، وإنما هي رحمة أخطأ موقعها، وليس بذي كمال لأنه بشر.

وإذا كان الرشيد قد استمع إلى من حدّثوه عن سلطان البرامكة ومواكبهم الرائحة الغادية كل يوم، وقصورهم القائمة على شاطئ دجلة مزدحمةً بالوفود، فهذا ليس بجديد عليه، لأنّه أَلِفَه منذ تولّى الخلافة، أفلم ينتبه إليه إلا بعد سبعة عشر عاماً من حكمه! وأين كان في هذا المدى الأطول؟! لقد كان يفرح بسلطانهم ومظاهر الأبهة لديْهم، حين لم يُسْلِمْ سمعه للوشاة، فكان يرى مجدهم من مجده، أما وقد أسلَمَ سمعه لخصومهم فقد تحقق معه قول القائل:

ومن لا يُسكتِ الواشين عنه صبـاح مسـاء يبغـوه خبـالا

وعلى كثرة ما كتب الكاتبون في هذه المأساة بعد أن تحدث عنها

---

(١) ديوان منصور النميري، ص٨٩، تحقيق الطيب العشاش.

الأستاذ الكبير محمد الخضري في محاضراته منذ قرابة قرن فإني لم أجد من أصاب إصابته حين افتتح حديث المأساة بقوله[1]:

«المُلْكُ الاستبدادي يحبّ أن يكون ذا السلطان الذي لا يُشارك، والحول الذي لا يُقاوم، واليد الطولى التي لا تضارعها يد، وكبار الرجال الذين يُعيِّنُونهم، ويقومون بتأييد سلطانهم، كثير منهم لا يقف عند حدّ في الانتفاع بتِلك السابقة لهم، فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبَّه إليهم أفكار الخلفاء بما يُلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه، واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم، فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء، والغيرةُ بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال، فلا تزال معايبهم تتجسّم، وهفواتهم الصغيرة تعظم، وحينئذٍ يرى هذا السلطان المستبدّ أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفَه الذي لا ينبؤ في الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه، ثم يقتنص منه ملكه الذي دُونه كل شيء، وليس هذا خاصّاً بالرشيد والبرامكة، بل كلَّ مستبدٍّ هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلاّ قليلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حدٍّ لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حدٍّ، في العظمة والتكاثر في الأموال».

ومن هـؤلاء الأقليّة الذين يقفـون عند حدّ معقول في مطامعهم،

---

(١) الدولة العباسية، ص١٦١، ط. ثالثة.

خالدُ البرمكي، وَالِدُ يحيى وجَدّ جعفر والفضل. فقد استوزره الخليفة بعد مصرع أبي سلمة الخلال وزير الدولة التّي كان مجهوده في إقامتها عاملاً من أقوى عوامل نجاحها، فرفض خالد أن يتلقب بلقب الوزير، ورغب أن يعمل ما يُراد منه بعيداً عن لقب يَجْلب الحسد ويدعو للوشاية، متذكراً قول القائل:

إن الـوزيـر وزيـر آل محمـد   أودى فمن يقلاك كان وزيرا

وكان في يحيى ولده حنكة، فعَمل على أن يخفض جناحه معَ أن الأمر في يده كلّه، وصار بذلك أثيراً لدى الرشيد، وكذلك كان مُوسى ولده، أما الفضل فصاحبُ سلطان يحكم به المشرق عن جدارة وكفاءة، وأما جعفر فقد أطفأ الثوائر في الشام، واستطالَ بسعةِ النفوذ، وعظم الجاه، ولم يعتبر بحصافة جدّه، ولا بلباقة أبيه، بل لم يسمع نصيحته حين دعاه إلى أن يخف من غلوائه فحقت عليه الكلمة. وكان أول داعٍ للنقمة.

ونرجع إلى حديث الأستاذ الخضري فقد ابتدأ تاريخه للنكبة البرمكية بما قدّمه، ومضى يعرض أعمال القوم وما لحقهم من الوشايات والمكايد حتى ختم حديثه بقوله(١):

«ولا حاجةَ إلى اختراعِ أسبابٍ قد تكون بعيدة، ففيما تَتَبّعناه من

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص١٧٤، ط. ثالثة.

أحوال الرشيد كفاية، فقد وصلَ من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس، حتى جعلهُ ذلك أذُناً، يسمع لكل واشٍ، ويصدّق كل حسود، ففقد بذلك زهرةَ دولته، وعزّة جبينها، بل زهرة الدولة العباسية كلها، وفقدَ وزراءَ إن كتبوا أجادوا، وإنْ قادوا الجيوش سدُّوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا، وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق، لا يأمنُ خدمه، بل تراهم حذرين وجلين، فما هي إلاّ وشاية تطرق أذنه، حتى تراه قد أخذ بحلاقيمهم، فأوردهم شر مورد، لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم، ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل، بل ينسى ذلك كله، ثم يتقدم عنده الوشاة، وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثرٌ، فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع، وهو السبب فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون، لأن الرجل مفسدٌ اعتاد اختلاق الأخبار ورأى ذلك مما يَحسن في أذن الخلفاء فلم يصطبر عنه، فأفسد الأمة وأوقع بأس الدولة بينها، ونعوذُ بالله من الخذلان، ومن وزراء السوء، فهم آفة الأمة وسوس عظامها».

قد أكونُ أسهبتُ بعض الشيء في نفي التشيُّع عن البرامكة، لأن أكثر المؤرخين جعلوا هذا التشيع المزعوم هو الباعثَ على المأساة متجاهلين أن الخوفَ من سطوة نفوذهم ومداها المرتقب، هو الباعث الأوحد، وكلّ ما يقال دونَه هناتٌ لا تبلغ مبلغ الغيظ الدافع للانتقام، وقد أُفردت كتب خاصة بتاريخ البرامكة، يدلّ تصفّحها على أن كاتبَها قطع أمداً طويلاً في دراسة أحوال البرامكة بدءاً وخاتمةً، ومع هذا السبح

الطويل في تعقّب الأحداث وفي تفسير باعثها، نَرى هؤلاء يقفون عند التشيّع، فيجعلونه أقوى الأسباب، لقد كتبَ الأستاذ محمد أحمد برانق كتاباً في ثلاثمائة وخمسين من الصفحات تحت عنوان: (البرامكة في ظلال الخلفاء) فتَتَبّع كل ما قيل، وحاولَ الاستنتاج ممّا تتبّع، ثم انتهى من ذلك إلى ما قاله[1] بعد أن سرد قصّة يحيى بن عبد الله وإطلاقه على يد جعفر:

«الحقّ أن البرامكة كان هواهم في شيعة علي بن أبي طالب كما قدّمنا في بعض الحديث، فهم لا يَقْسُون على آل علي ولا يُعرّضونهم لغضب الخلفاء. ولا يُبيحون لهم ظُهُورَهم ولا دماءهم، ولا يمكّنونَهم منهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً» ولكنّ هذا كلّه شيء، والتشيعُ شيء آخر، فقد تكونُ على خلافٍ من اتجاه رجل ما، ولكنّك لا تحبّ له مع خلافك إياه أن يُسجن وأن يُحبس، وأن تُكال إليه التهم، لأنّ الخلاف السياسي لَدى الفضلاء لا يَمنع التقدير الشخصي، وقد رأينا في حياتنا من رجال الأحزاب مَن يتصارَعون في الرأي على الصحف، وتحتَ قبة البرلمان، وفي المجتمعات السياسية بالسرداقات العامة، وهُم مع ذلك زملاء لا يُحبّ أحد لصاحبه أن يُسجن وأن يضطهد، فإذا مال البرامكة إلى الرأفة مع آل علي فهذا شيءٌ، والدعوة إلى سياستهم وانتقالِ الخلافة إليهم شيء آخر، وهذا من الوضوح بحيث يؤيده العيان.

---

(١) البرامكة في ظلال الخلفاء، ص١٩٨.

على أن فريقاً آخر من الكاتبين قد ذهب في الاتجاه المخالف، فتحدّث عن البرامكة حديثَ من يجعلهم أشدّ أعداء العلويّين، وجَعلَ يسرُد من مواقفهم ما يفسّره كتأييدٍ لوجهة نظره، ومن غرائب المواقف الخاصة بالرّجال في مضمار السياسة أن الموقفَ الواحد قدْ يكون له عدّةُ احتمالات، فيميل مؤرِّخٌ إلى احتمال واحِد يجعله أساس كل تصرُّف، ويميلُ الآخر إلى احتمالٍ مناقض يراه السبب الصحيح دون سواه؛ وهذا ما نراه لَدى الكاتبين عن تشيّع البرامكة، وإذا أسْلفنا وِجهة نظر من يَنْسِبهم إلى التشيع، فلْنُلقِ بالاً إلى الذين اتّهموهم بالكيد للعلويّين، ولم يكنِ الاتهام في كتاب واحد بل في عدّة كتب، حاوَل الباحث العراقي الشهير الأستاذ مصطفى جواد، رحمه الله، أن يأخذ من نصوصها المتعدّدة ما يؤكّد منحاه؛ فكتب بمجلة الرسالة مقالاً تحت عنوان: (نكبة البرامكة) بدأه بقوله:

«لعلّ أغرب ما وهم فيه المؤرخون فعَمي عليهم سببُ تدمير الرشيد للبرامكة أنهم عدّوا بني برمك دعاةً للعلويّين، ومُذيعين لمذهب التشيع في البلاد. . . ولو علمَ المؤرخون أنّ البرامكة كانوا يتقرّبون إلى الرشيد بالسّعي على العلويين وتبغيضهم لوَجَدُوا إلى سبب الفتكة الهاشمية سبيلاً، وعلى الجليّة دليلاً، ولعلموا أنّهم لمَّا حقّ عليهم العذاب دَمَّرهم الله تدميراً. فلم يكن استئثارهم بالحكم وحدَه سببَ هلاكهم، ولا الروحُ الذي اختلقَتْه الشعوبية مُوجباً لاستئصالهم، ولا إلْحادُهم منبّهاً على عقابهم، وإنما الندامةُ التي ندمها الرشيد بعد أن

استدرجوه إلى تشريد بني عمه العلويين، واستحلال دمائهم الزكية، وتعذيب الأبرياء منهم العذابَ الهون حين ولغوا في دماء بني علي، وطلبُوا الزّلفى بتعذيبهم، وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشمية، واجتثاث الشجرة النبوية»[1].

ومَضى الباحث يسوق من بعض الكتب ما يدل على رأيه، ولا أطيلُ في أمرٍ يظهر خطؤه عند التأمل الفاحص، فالنّقول المتناثرة في كُتب التراث ليستْ محلّ اليقين إلا إذا عُوضِدت بما يسندها من أصالة المنطق، وَحيدة الاستنباط، وقد قصدتُ بما نقلت من مقال الأستاذ جواد أن أبيّن للقارئ أنّ التناقض في الحكم على الشخص الواحد قد يبلغُ مداه، حين يُنتَقَلُ به عند باحث إلى فردوس الجنة، على حين يرمي به باحث إلى قعر الجحيم؛ وإني أطالب ألا تكونَ النصوص المتراكمة عِبْئاً على باحثي التاريخ، إذ لَوْ ذهبناً نستقرئ كل نصّ، دُون أن نزنه بميزان التفكير المحايد، لتراكمت أمامنا أحمالٌ فوق أحمال، وإنها لثقال ثقال!.

أمّا ما أشار إليه الكاتب من إلحادِ البرامكة فهو ما عبّر عنه غيره بالزندقة، ولو كانتْ زندقة القوم حقيقةً واقعة، لكانتْ أقوى سلاح يُشهره الرشيد، أمام الرأي العام، ليُسكِت جمرة الغضب التي اشتعلت في الصدور غبّ النكبة، فقد أزعَجه ما قيل في الرثاء الحارّ لصرعى القوم،

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٢٧) ٨/ ١/ ١٩٣٤م.

فهدّدَ كل قائل بأقسى العذاب، ومع ذلكَ فقد رُويت القصائد النائحة، وكتبت على الجدران في غسق الليل، وحار الرشيد مع ما يشهد من التفجع والتحسّر، ثم أمرَ الحرّاس أن يطوفوا بالليل ليقبضوا على من يروْنه يُعلّق الرقاع الحافلة بالرثاء، وأن يحرقوا كلّ ما يجدونه دون أن يعرضوه عليه، وكأنه خشي أن يتفجر غيظاً حين يقرأ ما لا يود، وقد قال سليمان الأعمى في نهاية مرثاةٍ حافلةٍ مخاطباً جعفر بن يحيى:

أما والله لولا خوف واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنام
لطفنا حوْل قبرك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

أجل لو صدقت تهمة الزندقة ما جزَع أحد لمصرع برمكيّ، وإخال الذين لفّقوا هذه التهمة جماعة من المرتزقة، رأوا أن يتزلفوا للحاكم بما يظنّون فيه رضاه؛ ونحن نعرف من أحداث اليوم كيف تُلَفّق التهم لملكٍ مخلوع، أو وزير مغضوب عليه، والناسُ هم الناس في كل زمان ومكان، ولعلّ أقوىَ حُجة لديهم في ذلك هي ما رواهُ التاريخ من أن (بُرملك) الرأسَ الأعلى للأسرة كان حارساً لبيت النار في عهد كسرى، قبلَ أن يستضيء الفرس بنور الإسلام!! وماذا في ذلك؟ لقد كان أجدادُ صحابة رسول الله ﷺ مشركين! فهل يعيبهم في شيء أن جاءَ الإسلام فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وكم كانَ الشاعر الهتّاف ظالماً حين قال:

إذا ذُكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
ولو تُليت فيهم آيةٌ أتوا بالأحاديث عن مزدك!

ولا أدري كيف كانت مجالس البرامكة تروي الأحاديث عن مزدك، وقد كان يملؤها الكسائي وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، والثوري وابن المبارك! ألَيْس الهوى يعمى ويصم؟!!.

وبعد... فقد يرى القارئ أنّي لست مع الرشيد في أمره مع البرامكة. وذلك ما اهتديت إليه بعد البحث الجاهد، ولست ذا هوى خاص، ولكني أسير مع الحق حين تلوح دلائله، ولا ملام.

* * *

نساء في قصور الرشيد

يقولـون: إن كلّ عظيم وراءه امرأةٌ، وأنـا أقولُ: كلّ رجل وراءه امرأةٌ عظيماً كان أو غير عظيم، لأن من شأن الرجل ـ في الأعمّ الأغلب ـ أن يتزوّج، ومن شـأنه أن يطول الحديث بينـه وبين زوجته في كثيـر من أمـوره، فهو يقصد إلى المنزل سعيداً أو غير سـعيد، فتسـألُه عن حاله، ولابدّ أنْ يجيب، ومن نشَزَ عن مشورة النساء كأبي جعفر المنصور فهو شـاذٌّ في بابه، على أنّه كان يحترمُ زوجتـه فلم يقترن بغيرها بعد أن واتته الخلافة، ولولا أنّه رجلٌ من طراز خاص لنعم بما ينعم به ذوو السلطان والدنيا بأيديهم، وما يريدونه من النساء سهل يسير.

وقد كان من قدر الرشـيد أن يعرف كثيراً من النسـاء حُرّات وغير حُرّات، وأن يكـون له معهن روايـات وأنباء، بل ربما بلغ به الحد أن يسـتعطفَ جارية بلسـان شاعر لترضى عنه، وما أريدُ أن أتحدث عـن صاحبات لهوه وأُنسه في مجالس الطرب والاسترواح، فلغير ذلك كتبتُ هذا الكتاب، ولكن أتحدّث عن أربع سيدات كنّ ذوات تأثير في حياته، وقد رُويت له معهن رواياتٌ شتى، منها الصادقُ المأثور، ومنها المختلق الموهوم. وما من سـبيل إلى أن نشير إلى ما نسمعه من هذا المختلق

الموهـوم، لأننا نكتب تـاريخاً يعتمد على الحقائـق لا الأوهام! لذلك سـنتناول شذوراً كافية للاستضاءة التاريخية في تصويـر علاقة الرشـيد بهؤلاء الأربعة، وهنّ أمُّـه الخيزران وزوجتُـه زبيدة، وأختاه العباسـة وعلية! فقد طالت أحاديثُ الكتب عنهن، وترددتْ أنباء الرشيد معهن، ولبعضهن خطورة في إصدار الأمر والنهي، على مسمع أمير المؤمنين وبصره، فالحديث عنهن مستلزم أكيد ونبدأ بالأم.

الخيزران

قُدر للجارية اليمانية (الخيزران) أن تكون أشهر امرأة في بغداد لعهد زوجها أمير المؤمنين المهدي، إذ كانت أول سيدة تزدهرُ في البلاط العباسي سعة نفوذ، وقوة سيطرة، فمذ ملكتْ قلب قرينها الطيب الوادع، ومُذْ ولدتْ له ابنيها الواعديْن المؤمّلين، وهي تزدادُ كل يوم تمكيناً.

كانت الخيزران أول سيدة في بلاط بغداد تقابل الوزراء والوجهاء، وتلبّي الرغبات شافعة مشفّعة، فأضحتْ محطّ الآمال، ومعقد الرجاء، وازدحمتْ سـاحاتها بأفواج الطالبين، وكلّ ما تـراه نافذٌ محقق، وأمير المؤمنين فرِحٌ بما تأتي وتدع، لأنها تستمدّ نفوذها من جاهه، فإذا حقق لها رغبة بعيدة أو قريبة كان سرورها مَبْعَثَ سروره، فلم يشعر نحو سيطرتها بغير ما يشـعر به ثـريٌّ مليء يُعطي سـائليه عن رغبـة واعتزاز، أليـسَ في سُرورها سرورُه، وفي ازدهارها بهجةُ عينه، وراحةُ فؤاده.

ثم قضى المهدي لغايته على حين فجأة، وعلى غير موعدٍ يُرتقب، مضى قبل أن يخطو في الكهولة خطوات متتابعة، وقد بكتْه الخيزران غير يائسة من غدها، لأنّ أمير المؤمنين الجديد موسى الهادي ولدها، وهو في منطقها الخاص لرغباتها أسرع، ولآمالها أعجل.

ولكنّ الخليفة الشاب كان في عهد أبيه غير راضٍ في قرارة نفسه عن انهماك والدته في شؤون الدولة، إذ يرى لها وجهاً غير الذي تحاول أن تبرز بـه، وطبيعي أن يعمل على حصر نفـوذها في أضيـق نطـاق، وبخاصة حين رآها تحاول أن تنشط وتسرع غير وانية، وقد ساءه أن يكون القواد والولاة والوزراء متسارعين إلى أبوابها، يطلبون ما يريدون، وكأن سُلطتها فوق سـلطته، وقد حاول أن يلفتها بـرفق إلى رغبته في اعتزال ما هي بصدده من الاندفاع المتسرّع أمراً ونهياً، وأخذاً وردّاً، فحملتْ ذلك على أنه مجرد نصحٍ ليس لها أن تعنو له، ولم يشأ أن يصدمها أول ما يصدم، بل اتّجه إلى من يراهم كثيراً من المهرولين إلى ساحتها، فقال لهم متجهماً: أيّنـا خير، أنـا أم أنتم؟ فقالـوا: بل أنتَ ياأمير المؤمنين، فقال: فأيكم يحبّ أن يتحدث الرجال بخبر أمّه، فيقولوا: صنَعتْ أمّ فـلان، وقالت أمُّ فـلان. قالوا: ما أحدٌ منـا يحب ذلك، قال: فما بالُ الرجال يـأتون أمي، فيتحدثـون معها، ويخرجون ليتحدثوا عنها! فعلم القوم أن الأمر جدّ، وأنه من الخطر أن يذهبوا إلى ساحة الخيزران بعد.

ورأت المرأة أن الزائرين قد انقطعوا فجأة، فعرفت أن ابنها قد أخذ عليها السبيل، وذهبت تسأله عمّا جدّ في أمرها حتى يحوْل دون أمرٍ وافق

عليه أبوه؟ فبدأها ناصحاً، مُخبراً أن مكانتها تمنعها أن تخرج من خفر التصون إلى بذاذة التبذل، وليس من شأن النساء أن يكون لهنّ مجالٌ في تسيير دفة الحكم، ولكنّه وجد الغضب يشتعل في عينها، فبدأ صوته يعلو وهو يقول: عليكِ بصلاتكِ وتسبيحك فحسب، ولك بعد ذلك طاعة مثلك فيما يجب لك! فبدا أنها لا تحب أن تستمع لنصحه، وعرف من نظرتها ما صمّمت عليه من العصيان، فنهضَ واقفاً يصيح بها: لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحدٌ من قوادي أو خاصتي أو خدمي، لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليفعلْ ليرى ما يحلّ به! أيتها المرأة: أما لكِ منزلٌ يشغلكِ؟ أو مصحفٌ يذكّركِ؟ أو بيتٌ يصونكِ؟ إياكِ ثم إياكِ فأنا من ورائك.

هاجتْ مشاعر الخيزران غاضبةً ناقمة، ورأتْ أن تتجاهل ما سمعت، فلعلّ ولدها يحاول أن يرجع عن وعيده، فذهبتْ إليه بعد يومين تسألُه عن حاجةٍ لبعض القواد، فصرخ هائجاً، وصمّم على أن ينتقم ممن تشفّع بها، ولكنه علم أن ذلك كان منه قبل أن يأتيه النذير، فبعث إليه مهدّداً، وكأن المصائب لا تأتي فُرادى بل مثاني ومثالث، فعرفتْ أن ولدها قد ضيّق على أخيه هارون، وهو بسبيل خلعِه عن ولاية العهد، ولم يكن الأمر هزلاً بل هو الجد كل الجد، وشاهدت الابن الحبيب ضائعاً متبرماً بسلوك أخيه، كما أفزعها أن يتهكّم الهادي بهارون في مجالسه، وأن يتملقه جلساؤه، فيذهبون مذهبه، وفيهم من اعترض طريقه غير عابئ بمقامه، فسارعت إلى الهادي تُحذّره عن انتهاك البيعة التي عقدها المهدي لهارون بعد موسى، وانتظرت أن تسمع منه

ما يُريح، فقال لها: وما أنتِ وهذا؟ سأفعل ما أشاء!.

كلّ ما تقدّم جائز في منطق العقل، ولكني أستبعد ما ذكره المؤرخون من أن الهادي أرسل إليها أرْزاً مسموماً لتأكل منه، فجرّبتْه في كلب فمات! لأنّ الهادي إذا كان قد قدر على إسكات صوتها، وإذا كان قد منع الراجين من لقائها، فقد تمّ له ما أراد، دون أن يتوقع منها خطراً يرتجى!.

ولكنّ عواطف الخيزران لم تهدأ، إذ توجّستْ وقوع الشر بهارون، ورأتْ من وليّه يحيى البرمكي تأييداً لامتناعه عن التنازل عن ولاية العهد، فأرسلتْ إليه تقول: إنك بذلك تُعرّضه للقتل في مؤامرةٍ يُدبّرها الهادي بعيداً عن محيطه، وهي نافذةٌ نافذةٌ إذا أراد، ولكنّ يحيى لم يستجب، وقضت أيام لم تطل، ومات الهادي، فقال القائلون: إن الخيزران تآمرت عليه، ودفعتْ من قتَلَتْه من الجواري أثناء نومه، لتصبح زوجةً لهارون بعد رحيل موسى! قيل ذلك وتواتر! ولكنّي لا أجزم!!.

والذين ينسبون إلى الخيزران هذا الجرم يقولون: إنها قد فرحت حين جاءها منعاه، وقالتْ: إن مضى موسى ففي هارون عوض، وهذا لا يكفي لإثبات الاتهام لو صحّ أنها قالت ذلك؛ لأنها جريحة تحاول أن تستعيد صحتها، حيت يتمّ الأمر لولدها الحبيب، فترجع لها سطوتها الفقيدة آملة راجية، وقد اضطرّ هارون أن يعيد أمه إلى سابق عهدها، فخوّلها حق النظر في الأمور، وجعل يحيى البرمكي يستشيرها دون أن يرجع إليه، ولكن القدر لطف بالرشيد فلم تبقَ في حكمه غير عامين ونصف على أصحّ

الروايات، وقد حزن الرشيد عليها حزناً شديداً، ورآه الناس يسير في جنازتها حافي القدمين، متعلقاً بقائمة نعشها، وقد علق الطين بقدميْه دون أن يكترث، حتى إذا أتى مقابر قريش غسل رجليْه، ودعا بخفّ، وصلّى عليها، ودخل قبرها، وتمثّل بيتين من الشعر ينفّسان عن حرّ صدره!

هذه هي السيدة الأولى أما الثانية فهي:

زبيدة بنت جعفر

سيدةٌ من فضليات السيدات، ذاتُ عقل راجح، وفكرٍ بعيد النظر، وقد وُلدت في عهد جدّها المنصور فوسعها فضله، وهو الذي سمّاها زبيدة لما رأى من نعومتها وبياض بشرتها، وقد تزوّجها هارون الرشيد في خلافة عمّها المهدي فنزلتْ بالمحل الأول من قلبه، حتى إنّه حين ضيّق عليه أخوه الهادي في أمر ولاية العهد، رأى أن يتنازل ليستريح مما يُدبّر له، وقال: وما لي لا أتركُ ما يؤلمني ويجلب عليّ الوساوس، ومعي ثروتي آكلُ منها، ولديّ زبيدة بنت عمي، وهي كلّ شيء في حياتي، وهذه العبارة تدلّ على مدى ما تتمتع به من حب أكيد، في قلب زوجها الكبير.

وحين تولّى الرشيد إمارة المؤمنين لم تنهج بنهج الخيزران في التباهي بالسلطة، والدخول في أمور الناس، بل التزمت حدود الزوجة العاقلة، وعرفتْ أنّ دورها الطبيعي هو راحةُ زوجها من عناء يومه، والسهرُ على ملاحظة ولدها الأمين تربيةً وتثقيفاً، وقد علمت أن معلّمه

الأحمر يأخذُه بالشدّة في تلقّي دروس العربية، فبعثتْ إليه برسالةٍ ترجوه أن يُعامله بالرفق، وألاّ يثقل عليه بتوالي المعارف، فكتب إليها الأحمر، يقول: «الأميرُ قد عَظُم قدره، وبعُد صيته، وموقعه من أمير المؤمنين، ومكانتُه من ولاية العهد لا يحتملان التقصير، ولا يُقبلُ منه الخطل، ولا يُرضى منه الزلل في النطق والجهل بالشرائع، والعمى عن الأمور التي بها قوام السلطان وإحكام السياسة»، فحين قرأتْ ردّ الأحمر قالت: صَدَقَ، ولم تتدخّل زبيدة في أمر السياسة إلاّ ما كان من خوفها على ولدها، حين أخذ الفضل بن الربيع يدسّ لها بما يزعجها من تواطؤ البرامكة على حبّ المأمون وبُغض الأمين، إذ كان يحسدهم شر الحسد، ويراهم العقبة الأولى في طريق مجده، وما زالتِ الدسائس تتوالى عليها حتى جعلتها لا تطيق أن تسمع باسم برمكيّ: وهي أم!

على أنّ روحها الطيبة كانت تلهمها طريقَ الخير إحساناً وبرّاً وتحنّناً على الضعفاء، ولها في هذا المضمار مآثر جمّة، ومفاخر شتّى، وقد فكّرتْ في أمرٍ لم يخطر ببال أحد من الرجال قبلها، إذ قرّرت أن تجري بمكة مجرّى دافقاً بالماء يُريح الحجاج من لاغبِ العطش المحرق في لظى الهجير، ولم أرَ مَن أبدعَ في وصف ما قامتْ به السيدة العظيمة حين سنح لها هذا الخاطر الجليل؛ كما أبدع الأديب الكبير الأستاذ عبد الله عفيفي حين تحدث عنها بالجزء الثاني من كتابه (المرأة العربية) فقال ببعض التصرف[1]:

---

(١) المرأة العربية: ٢/ ١٩٧، للأستاذ عبد الله عفيفي.

لم يكن لأهل مكـة من المناهل إلا المسـايل، يجودُ بهـا المطر أحياناً، وبعضُ الآبار التي تفيضُ آناً وتجفّ آناً، فإنْ جفاهم الغيث عاماً فالويلُ لهم، ولكل ثاغية وراغية عندهم.

أما الحجاجُ فكانوا يحتملون من قِرَب الماء ما يؤودهم ويوقر ظهورهم، وقد أخذَ بقلب زبيدة العظيم ما علمتْ في حجّها أنّ راوية الماء تُباع بدينار، وأنّ الفقير إنما يتبلّغ بما يتساقط من قطرات الغني، فاعتزمت أن تحفر لآلِ مكة، ولقُصّاد البيت الحرام نهراً جارياً يتصل بالماء ومساقط المطر، بالغةً من بُعد الشقة ووعورة الطريق ما بلغت.

ولم يَسْنَح بخاطر أحدٍ من عهد إسماعيل صلوات الله عليه حتى عهد زبيدة رضي الله عنها مثلُ هذا الخاطر الوثّاب، خاطرُ إجراءِ نهرٍ بين شعاب مكة، بلْ ولم يتمنّه متمنٍّ، لأنه أبعد من حد التمني، أما زبيدة التي تحكم على خِراج الدولة الإسلامية فقد اعتزمتْ أن تجري ذلك النهر مهما بلغت نفقاته.

دَعَتْ خازن أموالها، وأمرته أن يدعو العُرفاء والمهندسين والعمال من أطراف الأرض ليحفر النهر! فاستعظم خازنُها الأمر، وما سيستنفد من المال فيه، فقالت له تلك الكلمة الخالدة: اعملْ ولو كلّفتْك ضربةُ الفأس ديناراً! فأذعن وساق إلى مكة أهل الكفاية من كلّ مهندس وعامل، فأخذوا يصلون بين منابع الماء في شعفات الجبال، ويظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبـار، وما يعمّقون من المسـايل، ثم يغلغلـون ذلك بين أعطاف

الصخور تارة، وفي أعماق الأرض طوراً، حتى ينتهي ذلك كله إلى النهر الذي احتفروه.

وأهمّ ما اعتمدوا عليه عَيْنُ حُنين في جبال طاوٍ إلى الشمال من عرفة، وعلى مدى خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة أعزّها الله، ثم ظاهروا ذلك بمجرًى آخر من وادي النَّعمان من مسايل جبال كسرى إلى الشرق والجنوب من عرفات على مدى عشرة كيلومترات منها، وعزّزوا المجريَيْن بعد ذلك بسبع أقنية تتبّعوا فيها مساقط السيل، فسار ذلك كله في ممرّ عظيم بين الصخور حتى إذا انتهى إلى منى انحدر في خزان عميق نقروه لذلك في الجبل وسمّوه بئر زبيدة، ومن هناك يسيرُ الماء في فرعيْن، يذهب أحدهما إلى عرفات وينتهي الآخر إلى مسجد نمرة، ولكيلا يأسَنَ الماء صُرِفَ ما فضل منه عن ريّ الظماء إلى بركة (ماجن) بالمسفلة فقام حولها الزهر والثمر.

هذا في مكة المكرمة، أما في غير مكة، فقد شيّدت المساجد العامرة في نواحي بغداد، وقد سُمّي المسجد الذي أقامته أمام دار الخلافة مسجد زبيدة، كما شيّدت عدة مساجد في قطيعة أم جعفر، وفيما بين باب خراسان ودار الرقيق، أما الهباتُ المالية فقد سردتها كتب التاريخ، وهي هبات صادفت موقعها من المحتاجين والبائسين.

ولا نتحدّث عن مأساتها عند مصرع الأمين، فهذا ما ينأى موضوعه عن طبيعة هذا الكتاب، ولكنها مع ما صادفت من الأهوال كانت مثال

الصبر والتجمّل والثقة بالله، وتُروى لها أبيات من الشعر قالتها في رثاء ولدها، وأظنّها منحولة إذ لم تُعرف لها سابقة في القريض.

العباسة

آفة التاريخ هي تلك التركة الثقيلة من الأقوال المتناقضة، والأصلُ في بحث هذه المتناقضات أن يخلص باحثٌ مجتهدٌ فيتتبعها جميعها، ويختبرُ كلّ قول على حدة، ثم يرجّح ما بانت له استقامته من الأدلّة، هذا هو الأصل الذي يجب أن يتّبع، ولكنّ بعض المؤرخين يأخذُ رأياً واحداً من هذه المتناقضات، ويذهب إلى تأييده وكأنّه هو الرأي الأول والأخير، وما عداه لم يذكُره أحد، وهذا نقصٌ فادحٌ ولكنه للأسف مما نقرأ ونرى.

ونضرب المثل بقضية العباسة التي اشتهرت بين الناس لا لصحتها، بل لغرابة حدوثها، وفُجاءةِ موقعها، فقد جعلها قومٌ حقيقة واقعة لا معدى عنها، وذهبوا يبسطون أدوارها، وما تولّد من نتائجها، دون أن يعمدوا إلى ما تحملُ من دلائل الافتراء الصارخ، وجاء الروائيون من الشعراء والقصّاص فرأوا في أحداثها المذهلة ما يبعث التشويق في نفس القارئ، فاتّجهوا إلى تضخيم ما بها من افتراءات، وانتشرت رواياتهم في هذا العصر، وقام كبار الفنانين بتمثيلها، فأصبحت خيالاتها المستبعدة، وكأنها حق، فزادت الضرام لهيباً.

والذين يبحثون عن المفاجآت المدهشة، والروائع المذهلة، يروون عن أكبر المصادر إيغالاً في سرد هذه الخيالات، فيجعلون

رواياتها المختلقة دليلاً على صدق الحادثة، وكتابُ (مروج الذهب) للمسعودي من أوفى الكتب التاريخية إلماماً بما دار حول العباسة من أراجيف، فكان مدداً وفيراً، لمؤرخ يريد أن يُمتّع قارئه بما يسطّر، ولشاعرٍ يريد أن يبهر سامعه بما ينظم، ولفنّانٍ يختلق الغرائب اختلاقاً في قصصه التمثيلي إذا لم يجد هذه الغرائب، فكيف وقد وجدها؟.

لم يقتصر المسعودي على ذكر المتعالم[1] المشتهر من أمر هذه الفرية، وخلاصتُه: أن الرشيد قال لجعفر بن يحيى: ليس في الأرض طلعة أنا آنس بها، وإليها أميلُ من رؤيتك، وأنّ للعباسة أختي موقعاً ليس بدون ذلك، وقد نظرتُ في أمركما معاً، فوجدتُني لا أصبر عنك ولا عنها، ووجدتُني ناقص السرور والحظ منك يوم أكون معها، وكذلك حكمي في يوم كوني معك دونها، وقد رأيتُ أن يتمّ سروري بكما، إذْ أزوّجكما تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها، في مجلسٍ أنا معكما فيه، فزوّجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر، وأتى فأشهدَ عليه مَن حضره من خاصته ومواليه، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه أنّه لا يخلو بها ولا يجلس معها، ولا يظلّه وإياها سقف إلاّ وهو ثالثهما، فحلف له جعفر على ذلك، ولكن طبيعة النفوس تأبى الإذعان لشرط الرشيد، فوقع ما حذر منه، وحملت العباسة وولدت، فثارت ثائرة الرشيد.

هذا هو الشائع المتردد ـ على وهنه وتساقطه ـ ولكن المسعودي

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٣/ ٢٩٠.

قد امتدّ بالأسطورة إلى أبعد مدًى يُتخيل؛ فقد جعل العباسة تهيم وجداً بجعفر وتسـأله اللقاء السري فيمتنع، وإذ ذاكَ تحتـال على هذا اللقـاء فتذهبُ إلى أم جعفر، وتغمرها بالهدايا ـ كأنها كانت في حاجة إلى هدية ثمينة ـ لتسهّل لها لقاء جعفر في مأمن من العيون، فاستجابت أمّ جعفر، وقدّمت له مَن قالت عنها إنها: جاريةٌ جميلةٌ أعجتبها، وقد وهبتها إياه، وجعلت تماطله في إرسالها له بعدما أفرطتْ في حديث حُسنها، وفي إحدى الليـالي كان جعفر ينتظر وقد شـرب حتى سـكر، فأرسـلتْ له العباسة، وكان اللقاء الذي تكرر فأثمر الولد! ومضى المسعودي يصف كيف تحايل جعفر على إخفاء جريمته، فأعدّ المرضع الخاصة وهيّأ لها مكاناً نازحاً، ثم شاع الأمر، ووصل الخبر إلى الرشيد على يد زبيدة زوجته، وطار صواب الرشيد، فكانت حادثة العباسة أساس النكبة؛ إذ انفجر بركانها في نفس الرشيد!.

وهذا الحادث إذا نُوقش بالمنطق العاقل تنهار دعائمه لأول نظرة، فالتاريخ لا يعرف قبل ذيوع الحادث أختاً للرشيد تسمّى العباسة، وقد اختُلف في اسمها فيما بعد فسُمّيت ميمونة عند أحد المؤرخين، مما يزيد الأمر التباساً، أفلوْ كان للرشيد أختٌ بهذه الحصافة النادرة التي تجعله لايصبر عن غيبتها بعض الوقت أما كان لها من الاشتهار ما لأختها (عُليّة) التي تحدّث عنها المؤرخون فأطالوا؟ ثم هل يغفل الرشيد لو صدقت هذه الفرية عن أنّه هو المؤاخذ أمام الناس، فقد سهّل الأمر، ومهّد أسباب وقوعه، وبرّأ جعفراً أمام الخاصة والعامة، لأنه كما تروي القصة زوجٌ شرعيٌّ، له أن يتمتع بزوجته دون ما حائل، وما اشترطه الرشيدُ من عدم

الاجتماع إلا بحضرته شرطٌ باطلٌ، لا يُفسد صحة العقد، لأن أساس الزواج الخلوة والتمتع، فإذا اشترط مُشترط ما يمنعهما، فقد جاء بما لايحلّ، وأصبح الشرط فاسداً لا قيمة له! أفكان الرشيد يريد أن يبرّئ جعفراً أمام الخاصة والعامة، وهو في الوقت نفسه يأتي بما يشين كرامته، ويفضح منزلته إن كان في اقتران الزوجين فضيحة تتوهّم، لاختلاف النسب، وأقولُ: تُتوهَّم فحسب، لأن شرط الكفاءة بين الزوجين موجودة، فمكانة جعفر في الدولة تلي مكانة الرشيد، ولن يجد كفْئاً للعباسة يفوقه! وقد أبطل الله نعرة الجنس حين قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد وُجد من مفكّري العصر من دحضَ هذه الفرية بأسلوب قاطع، إذ كتب الباحث الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي بحثاً شائقاً بمجلة الهلال تحت عنوان: (جعفر بن يحيى البرمكي ولماذا قتله الرشيد!) عرض فيه كلّ ما قيل في هذا الصدد، وحين انتهى إلى مسألة الزواج المزعوم قال في وضوح[1]: «إن الرشيد لم يصِر من قلّة التبصر، وعدم النخوة إلى حدّ عرض أخته للّهو في مجالس الغناء، ولو كان السبب في المأساة هو هذا الحادث ما كانت هناك حاجة إلى إحاطته بهذه الأسوار من الكتمان، لأن مجرد قتل ميمونة ـ كما تدعي الرواية ـ كان يفضح الخبر إلى حدٍّ بعيد».

---

(١) مجلة الهلال الخاصة بالرشيد، ص١١٧٧، أغسطس سنة ١٩٤٠م.

وقد سُئلتْ عليّة بنتُ المهدي عن سبب الإيقاع بالبرامكة، فلم تُشرْ إلى حادث أختها، أفكانت تجهل أمراً لا بد أن تعرفه عن الأخت اللصيقة بها في منزل واحد، بل إنها سألت أخاها عن سرّ إيقاعه بالبرامكة، فقال لها: ياحياتي لو علمتُ أن قميصي يعرف السبب لمزّقته! وفي السؤال ما يدلّ على أنّ قصة العباسة لم يكن لها أدنى وجود في الحقيقة!، أما الرشيد فلا يريد أن يظهر بمظهر الضعف، فيقول: إن البرامكة سلبوه سلطانه وتولوا الأمر دونه، فأراد أن يستردّ ما غُصب دون افتعال مسألة العباسة.

هذا وقد قرأتُ بحثاً في هذا الموضوع قال فيه كاتبه الأستاذ عبد الواحد باش أعيان بمجلة الرسالة[1] وهو ذو حسم صريح:

«إن الاختلاف في تعيين اسم بطلة حادثةٍ مروعة هزت الدولة العباسية من شرقيّها إلى غربيّها لا يصح أن يُعقل.. كما أن كتب التاريخ لم تتحدث عن مزايا خاصة للعباسة، ترفعها مقاماً عن سائر نساء القصر والأسرة المالكة، لا في الرأي ولا في الأدب والشعر، فلماذا كان الخليفة يصبر عن زوجته زبيدة، وعن أخته عليّة التي كانت تُجيد أكثر فن من فنون الشعر والأدب والغناء، وعن جواريه وإمائه ومنهن ذات الخال ودنانير، وفيهن ما يغني حضورهن عن حضور العباسة»؟!.

وهو سؤال يحتاج إلى ردّ مقنع ممن يصدّقون ما قيل.

---

(١) الرسالة، العدد (٩٧٢)، ١٨/ ٢/ ١٩٥٢.

عُليّـة بنت المهدي

أخت الرشيد، وُلدت في عهد المنصور، وكان والدها المهدي شديد العناية بأمّها مكنونة، وهي جاريةٌ مثقفة ملمّة بالشعر والأدب والموسيقى، فنشأتْ عُليّة تحت رعايتها الأدبية، فحفظت الشعر، ومرنت على نظمه حتى صارت شاعرة تُروى لها المقطوعات الأدبية، ويسير بها الرواة.

وأدرك الرشيد موهبتها، فكان كثير الزيارة لها يتناشدان الأشعار، ويستمعان إلى أعذب الألحان، وقد عرفت السيدة زبيدة مكانتها من نفس الرشيد، فكانت تُفضي إليها بما يُؤرق نفسها، وتجد عندها برد الراحة، ثم سلامة المسعى حتى يصفو الجو، ويعود الود. ويذكر الرواة أبياتاً نظمتها عُليّة تستعطف بها قلب الرشيد حين ترك زبيدة بعض الوقت، فصادفتْ من نفسه أجمل موقع، وسار معها إلى زبيدة مسترضياً! وبعيدٌ جداً أن تكون علاقةٌ حمية بين زبيدة وعليّة، ثم تكونُ عداوة شديدة بين زبيدة ومن تُدعى بـ(العباسة) والمفروض أنها أخت عُلية، فهي إليها أقرب، وعلى همومها أحنى وأعطف، فلو ثُبُتَتْ هذه العداوة لكانت عُليّة مع أختها في وجه زوج أخيها! ولكن حديث العباسة أسطورة وجدت من يجعلها حقيقة دون دليل!.

وقد تزوجت عُلية أحد أمراء البيت العباسي (موسى بن عيسى الهاشمي)، وقد تولّى إماراتٍ ثرية بمصر والعراق والشام، فرجع بمال

وفير كان كلّه تحت تصرف عُليّة، فاتّخذت لها قصراً فخماً يضاهي قصر الرشيد سعة وبهاءً، وجعلت مقرّه على شاطى دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) وقصر الرشيد (دار الخلد)، وقد زيّنته بنقوشٍ فاتنة وفق ذوقها الشاعري المترف. وملأتْهُ بالتصاوير الجميلة، وانتشر به الخدم من الجواري والغلمان، وكثيراً ما كان يأرق الرشيد في قصر الخلد فيتذكر أخته عُليّة، فينهض إليها في غسق الليل، ليسهرا معاً في سمر مؤنس! ولم تُذكَر لعليّة مشاركة في أمور السياسة، ولعلّها وجدت أنّ من راحة البال أن تعكف على أمورها الخاصة بعيدةً عن التيارات المتعارضة، وقد سمع الرشيد بيتين جيديْن طرب لهما طرباً شديداً، وهما:

بُني الحبُّ على الجور فلو | أنصف العاشقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُستحسن في شرع الهوى | عاشق يُحسِن تأليف الحججْ

فسأل عن قائل البيتين، فقيل: إنه الأميرة عليّة، فنهض إليها وقال: أعندكِ ما أطلب ثم أسمعه من سواك؟ وسكت، ولا شكّ أن الرشيد أدرك حرج عُليّة، لأن الأخت ـ أية أخت ـ لا تحبّ أن يسمع أخوها ما تقوله في الغزل والحنين! فما الظنّ إذا كان هذا الأخ أمير المؤمنين!.

على أن الرشيد لم يكن ليصبر على فراق أخته إذا ترك بغداد إلى غيرها من العواصم، فكان يعرض عليها أن تصحبه، وما كان لها أن تتأخر من استجابته، فقد صحبته في زورة إلى الرقة، ثم طلب منها أن تصحبه إلى الريّ، وكأنها استجابت على غير طوع، إذ كانت تعرف أن الرشيد في رحلاته لا يفرغ كثيراً إلى مجالس السمر، بل يظلّ متواصل

الاجتماع بين قواده ومرؤوسيه، وفي الطريق إلى الري وصل الركب إلى (المرج) ونُصبت الخيام للاستراحة، وجلس الخليفة مع أخته يسمران، فقال لها: هل قلت شيئاً في هذه الرحلة، فقالت:

ومُغْتَرِبٍ بالمَرْجِ يبكي لِشَجْوِهِ
وَقدْ غابَ عَنْهُ المُسْعِدُونَ على الحُبِّ
إذا ما أتاهُ الرَّكْبُ من نحوِ أرضِه
تَنشَّقَ يَسْتَشْفِي برائِحَةِ الرَّكْبِ

فعلم أنها لا تريد أن تواصل السير، فطلب إليها أن تعود إلى بغداد، وسُرعان ما استجابت.

هذا، ومما يُذكر في مجال الحديث عن الأميرة الشاعرة أن الباحثة الأدبية الدكتورة عاتكة الخزرجي كتبت بحثاً عن الشاعر العاشق العفيف (العباس بن الأحنف) ذهبتْ فيه إلى أنّ معشوقته التي أطلق عليها اسم فوز هي الأميرة عليّة بنت المهدي، وقالت في تجلية ذلك[1]:

«ومن تكون هذه الفتاة التي تستّر عليها العباس تحت اسم فوز؟.. إنها الأميرة عليّة بنت الخليفة المهدي وأختُ الخليفة هارون الرشيد، إذ لو تدبرتَ ما قيل عنها، ورجعتَ إلى أوصاف فوز صاحبة ابن الأحنف كما جاءت في ديوانه لرأيت أنها هي هي!! إن صاحبة العباس على ما تصفه

---

(١) الرسالة، العدد (١٠٣٦)، ٢١/١١/١٩٦٣م.

الكتب بنت جارية بالمدينة، وهي ذاتُ مواهب ممتازة، تجمع الجمال البارع والرقة الآسرة، وإلى هذين الشاعرية المرهفة. وإننا لنجد مصداق هذه الأوصاف جميعها في شعر العباس، فصاحبة العباس شاعرة تتبادل مع العباس رسائل الشعر، وكتب الأدب تؤرخ لنا عليّة بنت المهدي فتخبرنا أنها كانت تشغف بالمراسلات الشعرية، وقد كانت عليّة حسنة الدين، وكانت لا تُغنّي ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهُرتْ أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، والعباسُ يقول لنا في شعره غيرَ مرّة: إن فوزاً صاحبته كانت ممن يتّقي الله، إذ ترعى حرمات الدين، وتمارسُ شعائر الإسلام»[1].

ومضت الدكتورة عاتكة في سرد وجوهٍ من المشابهات تحتاج إلى نقاش؛ لأنها مجرد استنتاجات بعيدة، وقد ردّ عليها الدكتور يوسف حسين بكار في كتابه (اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري) بما لا نطيل في سرده، فيكفي أن نشير إلى موضعه، والذي يدحض هذه الوجهة، أنّ العباس بن الأحنف ليس في مستوى اجتماعي يسمح له بالاتصال المباشر بقصر الأميرة، أو غير المباشر عن طريق المراسلة، وقد يُقال: إن الحب لا يعترف بالأوضاع الاجتماعية، ولكننا نعرف أن الأميرة قد أعلنت هواها لشخصين هما (طلّ ورشا) ولم يجرِ ذكر العباس على لسانها، وفي ديوان العباس عبارات قاسية في قصائد العتاب

---

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص٢٨١ـ٢٩٥، ط. دار المعارف.

لا يمكن أن توجّه إلى بنت المهدي وأخت الرشيد! .

هذا بعض ما يُقال عن أميرات القصر وملكته، ولم أشأ أن أذكر ما يُروى من مجالس الغناء، لأن ذلك مع ذيوعه قد وجد من يتحدّث عنه بإشباع. وفي أكثره من المبالغات ما لا أتحمل معه عناء التسجيل والتقرير.

لقد كان القصر قصر أناسيٍّ لا قصر ملائكة! ولن تكتمل الصورة دون أن نشير إلى سيداته الفضليات، ودون أن نخفي مثلبة، أو نختلق محمدةً! لأن أحداث العصر ذائعة، وصحائفها ذات شيوع واشتهار.

* * *

هل كان أبو نواس شاعر الرشيد؟

امتلأت صحف ألف ليلة وليلة، وكتب الأدب الإخباري بوقائع يُدَّعى حصولُها بين الرشيد وأبي نواس، يخرج قارئها بانطباع مؤدّاه أن ذلك الشاعر المتبذّل كان نديماً للرشيد، يجلس معه في ندواتِ أدبه، ومشاهد أنسه وسمره، ويصحبه في غدواته وروحاته، وانتقلت هذه الأخبار إلى أحاديث العامة، فصارت أكثر ذيوعاً، وأوسع ترديداً، ممّا صدق من الأحاديث الثابتة! وقد ألقتْ على سيرة هارون الرشيد ظلالاً من العبث والاستخفاف، فأفقدته وقاره، وجعلته يأتي من الأمور ما لا يليق بإنسان مهذب، فضلاً عن أمير المؤمنين ذي الجلالة والوقار...

وإذا كانت أكثر النوادر المترددة الآن تُنسَب إلى جُحا دون أن تصدر عنه حتى جعلته أشهر من كثير من الحكماء، فإنّ النوادر المنسوبة إلى أبي نواس مع الرشيد قد قاسمت شهرتُها الذائعة نوادر جحا في الانتشار على الألسنة، إذ أعجب شيء أنّ بعض الذين يروون هذه النوادر يعتقدون عن جزمٍ أكيد أنها كاذبة مختلقة، لوضوح الافتعال الصارخ في تأليفها، ولكنها مع ذلك تُروى على ألسنتهم، وتنتقل من كتاب إلى

كتاب، ومن جيل إلى جيل، بل من أشدّ العجب أن عالماً كبيراً، ولُغوياً ذائعاً هو ابن منظور صاحبُ معجم (لسان العرب) قد جمع نوادر أبي نواس، وكثيرٌ منها يتصل في الرواية بالرشيد في كتاب اشتهر به، وقد ذكر في مقدمته أنه لم يثبت له أن أبا نواس قد اتصل اتصالاً وثيقاً بالرشيد، ولكنه يجمع ما يُقال!.

وقد أفرد الأستاذ الكبير عبد الحميد العبادي فصلاً بديعاً عن علاقةِ الرشيد بأبي نواس نشره بمجلة (الهلال) في عددها الخاص بأبي نواس (أغسطس سنة ١٩٣٦م) تحت عنوان: (الرشيد وأبو نواس.. هل كان النواسيّ نديماً للرشيد) أتى فيه بالمنطق الفصل في هذا الموضوع، والعباديّ مؤرخ ثبْتٌ قليل المؤلّفات بالنسبة لعلمه الواسع، وهذه القلّة مصدر تقديرٍ وإجلالٍ له، لأنه لا يكتبُ إلا الجديدَ المفيد، ولا يطالعُ القارئ بغير ما يضيف إضاءةً نيّرة تبدّد غيوماً كثيرة.

وقد سطا على بحثه مؤلِّف تالٍ، كاد ينقله حرفيّاً بتقديم بعض الوقائع عن مقرّها في بحث العبادي، وتأخير ما تقدّم، ثم لم يُشِر إليه في شيء ذاكراً كل مصادره، وكأنّه قد رجع إليها، وهذه خيانةٌ علمية مؤسفة، وكان عليه - وقد اقتنع بما وصل إليه الباحث الكبير من نتائج - أن يعزو إليه كلّ ما قاله، وهذا مما يزيدُ في تقديره، إذ ليس من المتوقع أن يأتيَ بالجديد كلُّ مدرسٍ في كليّة يقدّم للطلاب مذكراتٍ عن عصر من عصور، حتى يأخذه النزقُ فيدّعي ما ليس له، وعُدد الهلال ذائعٌ مشتهر، وقد رجعَ هذا المغتصب إلى مقالاتٍ نُشرت بالعدد نفسه، وذكر مصدره،

فلماذا حاول تجاهل هـذا الموضوع، وهـو طريفٌ في بابه، بل هو في رأيي من أطرفِ ما قيل عن هارون الرشيد وعن أبي نواس معاً!!.

بدأ الأستاذ عبد الحميد العبادي بكلمة عن مكانة الرشيد وشهرته في العالم الإسلامي، التي كادت تضارعها شهرة أبي نواس في العالم الأدبي، وقد قال عنهما[1]:

«جمعت بين هاتين الشخصيتين العجيبتين جوامعُ الزمان والمكان، ولكن باعدتْ بينهما فلسفة كل منهما، فترددت الصلةُ بينهما من السلب والإيجاب، والوجود والعدم، وهذا هو المؤتلف مع فلسفة الرجلين والمتفق، مع الثابت المتيقّن منهما، بيد أن أخباراً محرّفةً منحولةً تؤكّد توثُّق الصلة بينهما إلى المدى الذي يكون عادةً بين الأودّاء والخلطاء غير مباليةً بما بين الرجلين من تفاوتِ الفلسفة واختلاف المزاج، كما أن طائفةً عظيمةً أخرى من الحكايـات أبدعها خيـال القصّاص في شتّى العصـور الإسلامية قد ذهبت في تأويل الصلة بين الرشيد وأبي نواس كل مذهب، طارحة كل اعتبار إلا اعتبار الرغبة في تفكهة القارئ وإمتاعه».

وخلاصة ما اتّجه إليه الأستاذ من بحث، أنّ أبا نواس لم يأتِ إلى بغداد إلا سنة (١٧٩هـ)، وكان البرامكة حينئذٍ قابضين على أزمّة الحكم، فقصر اتصاله عليهم حتى عام نكبتهم سنة (١٨٧هـ)، وليس في ديوانه شعرٌ قاله أبو نواس في هذه الفترة غير أبيات قالها في تزكية الفضل بن الربيع

---

(١) مجلة الهلال، أغسطس سنة ١٩٣٦، ص١١٩٧.

موجّهاً الخطاب إلى أمير المؤمنين وهما:

قـولا لهـارون إمـام الهـدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
أنـت علـى مـا بـك مـن قـدرةٍ ... فلسـت مثل الفضل بالـواجد
ليـس علـى الله بمستنكـر ... أن يجمـع العـالـم واحـد

والأبيات ليس فيها مدح ما للرشيد، ولكنّها مدح للفضل أراد به أبو نواس أن يأخذ مكانة الحظوة لديه، وكأنه أحسّ بمراعاة الأحداث أنّ نجم الفضل بن الربيع سيرتفع، وأنّ بوادر الشقاق بين الرشيد والبرامكة قد بدأت تلوحُ، فحاول أن يتقرّب من ابن الربيع، ثم حدثتْ المأساة البرمكية، وأصبح الرشيد وحده صاحب السطوة في بغداد.. فتقدّم إليه بثلاثِ مدائح هي كلّ ما قاله عنه، وهي مدائح موجزة لم تصل إحداها إلى حدّ القصائد الرنّانة التي تُقال عادة في مناسباتِ التهاني والأماديح. وقد حدّد الأستاذ العبادي تواريخها ومناسباتها فجعل القصيدة التي مطلعها:

خلق الشباب وشِرَّتي لم تخلقِ ... ورميت في غرض الزمان بأفوقِ

مما قيل بمناسبة الانتصار على نقفور سنة (١٨٧هـ)، والقصيدة التي مطلعها:

لقد طال في رسم الديار بكائي ... وقـد طال تـردادي بها وعنـائي

مما قيل سنة (١٨٩هـ) حين أخذ الرشـيد العهد لابنه القاسـم، ولقّبه بالمؤتمن سنة (١٨٩هـ)، وجعل القصيدة التي مطلعها:

حـيّ الزمـان إذ الزمـان زمانُ ... وإذ الشّـبابُ لنـا حِـرًى ومعانُ

مما قيل به سنة (١٩٠هـ) عندما لبس الرشيد قلنسوة كتب عليها: (الغازي الحاج).

والعبادي لم يذكر مطالع هذه القصائد، ولكنه أشار إلى بعض أبيات المديح من كل قصيدة، وقد رأيت أن أرجع إلى الديوان فأذكر المطالع لتسهل مراجعتها، ثم قال الأستاذ العبادي بعد ذلك ما أنقله لأهميته الكبيرة[١]:

«على أنّ هذه المدائح وغيرها من شعر أبي نواس في الرشيد لم تَعْدُ أن تكون من قبيل الشعر الرسمي الذي يُقال في المناسبات والظروف الخاصة، وليس فيها ولا في عامة شعر أبي نواس ما يفيد أنّ أبا نواس قد تجاوز في علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء البلاط، فضلاً عن أن يكون من جلساء الرشيد وندمائه، بل ليس من شعر أبي نواس ولا في الثّبْت من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد شعره الرشيد إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض معاصريه من أمثال أبي العتاهية ومروان بن أبي حفصة، إذ كانت أمورٌ تحول بين أبي نواس وهذه الغاية.

لقد كان أبو نواس قبيحَ السيرة ماجناً سكيراً متّهماً في نفسه، مقيماً بخانات (الكرخ) ومواخيره يشرب الخمر ويعبث بالغلمان، ويصرّح بكل ذلك، حتى شاع أمره في بغداد، وقد خاض في أمر العصبيّة العربية خوضاً منكراً، ثم صار شعوبياً، وبرئ من العرب قاطبة، وهجاهم، وادّعى

---

(١) مجلة الهلال، ص١١٩٩.

الأعجمية، هذا إلى فساد عقيدته، ومجاهرته في شعره بآراء الثنوية، فهذه الأمور كلها لم تكن لتجعل الرشيد يُقبل على أبي نواس، ويأذن له في غشيان حضرته وإنشاده، وهو بعدُ الحريص على مظهره الإسلامي، المتزمّت في أمر العرض والشرف، والفخور بنسبه العربي النزاري القرشي. والحق أنه لم يتردد وهو خليفة المسلمين في الضرب على يد أبي نواس، وأن يمسّه من حينٍ لآخر ببعض العقاب، فقد رَوَوْا أنّه حبسه في شرب الخمر، وحبسه طويلاً بسبب قصيدته التي هجا بها النزارية، وحبسه كذلك من أجل جهره بالزندقة».

ومضى الباحث يعرض مواقفَ للرشيد مع جلسائه دارتْ على إنشادِ شعرٍ من مستقبح كلامه في الزندقة والفسق، وانتهت إلى غضب الرشيد وفزعه، والحكم على الشاعر بالسجن فسيق إليه مخفوراً.

هذا لبابُ ما اتجه إليه الأستاذ العبادي في بحثه، وقد ختمه بتهجين كل ما تنسبه كتب القصص إلى الرشيد، ذاكراً قول ابن منظور في كتابه (أخبار أبي نواس)[1]:

«وقال بعض المترجمين: فمن يحيط علماً بأحوال أبي نواس: إنّ هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات، وإن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه».

---

(١) مقال الهلال، ص١٢٠٣، نقلاً عن كتاب ابن منظور، ص٢١٧.

وقد روت كتب الآدب أبياتاً منتحلةً زعم راويها أن أبا نواس قالها في الغزل استجابةً لاقتراح الرشيد، وهذا مستبعدٌ، لأن الرشيد لم يكن يُعجب بشاعر من شعراء الغزل قدر إعجابه بالشاعر العفيف العباس بن الأحنف، إذ كان يفسح له مكاناً طيّباً في مجلسه، كما يُسافر معه في رحلاته إلى الحج وإلى المشرق، وأعجابُ الرشيد بالعباس مما يتّفق مع مكانته أميراً للمؤمنين، وراعياً للآداب والحرمات، ويذكرون أن الأبيات التي قيلت على لسان الرشيد في رثاء (هيلانة) هي من تأليف العباس، وعليها طابعه الشعري فعلاً، كذلك الأبيات التي نُسبت للرشيد وهي:

ملكَ الثلاثُ الآنساتُ عناني وحلَلْن من قلبي بكل مكانِ
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهنّ وهنّ في عصياني
ماذاكَ إلاّ أنَّ سلطان الهوى وبه قوين أعزُّ من سلطاني

فإنها من تأليف العباس مستوحياً عواطف الرشيد، لذلك ذُكرت في ديوان العباس[1]، لأن الرشيد لم يشأ أن يَنسبها لنفسه، فهو في غنًى عن أن يكون شاعراً، ولكنها عبّرت عن شعورٍ خالطه فرضي عنها، وكافأ عليها. ومما يروى بصدد ارتياح الرشيد للعباس أنه أُعجب بقوله:

إذا ما شئتَ أن تصنعَ شيئاً يُعجب الناسا
فصوّر ها هنا فوزاً وصوّر ثمَّ عباسا

(١) ديوان العباس بن الأحنف، ص٣١٣، ط. صادر.

وقـــسْ بينهمـــــا شبـــــراً فـــإنْ زدتَ فـــلا بـــاســـا
فـــإن لـــم يـــدنـــوا حتـــى تـــــرى رأسيهمـــــا راســـا
فكـــذّبهـــا بمـــا قـــاســـتْ وكـــذّبـــه بمـــا قـــاســـى[1]

ومن باب المداعبات الشعرية في مجلس الرشيد، أن الأصمعي أراد أن يتحرّش بالعباس، إذ شاهد إعجابه بما قال، ولمس تقدير الرشيد لقول العباس، فأرادَ أن يمسخْ الأبيات ليُحيلها حديثاً عن عاشقيْن من الخدم اشتُهرَ حبهما في قصر الرشـيد، إحداهما (دورُ) الفتاة والثاني (فَلْق) الغلام، فقال الأصمعي، وكأنه يغيظ العباس:

إذا أحببـــــتَ أن تصنـــــع شيئـــاً يُعجـــبُ الخَلْقـــا
فصـــوّر هـــا هنـــا دوراً وصـــوّر هـــا هنـــا فلْقـــا
فـــإن لـــم يـــدنـــوا حتـــى تـــرى خلقيْهمـــا خلْقـــا
فكـــذّبـــه بمـــا لاقـــت وكـــذّبـــه بمـــا يلقـــى

وهذا نمطٌ من اللهو المباح، إذ طرب له الرشيد، وقال للعباس: إنه الأصمعي فاسترضه، وفي رحلة الرشيد إلى خراسان، اصطحب معه العبـاس، ويظهر أنه كان مرغماً أجاب رغبـة الرشيد عن كُره، وقد طال السفر حتى هزّه الحنين إلى صاحبيه ببغداد، فجرى لسانه بهذه الأبيات:

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنا ثم القفـول فقد جئنـا خراسانا

---

(١) ديوان العباس، ص١٨٨.

نأى الذي كنت أرجوه وآمله | أما الذي كنت أخشاه فقد حانا
ما أقدر الله أن يُدني على شحط | جيران دجلة من جيران جيحانا
عينُ الزمان أصابتنا فلا نظرت | وعذّبت بفنون الهجر ألوانا
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا | إذا خلا خلوةً يوماً تمنّانا

وجاءت الأبيات إلى الرشيد، فعرف ما يكابد من حنين، وقال له: اشتقتَ ياعباس، وأذِنْتُ لك خاصة، وأمرَ له بثلاثين ألف درهم[1].

فإذا كان لابد من شاعر نديم يجالس الرشيد، ويخف على قلبه، فليس أبو نواس وليس أبو العتاهية وليس مسلم بن الوليد وليس منصور النميري ولا مروان بن حفصة ممّن سمع الرشيد أمداحهم، إنما هو العباس بن الأحنف، وفي هذا ما يدلّ على أن الرشيد فضّل شاعراً لم يمدحْه بغير ثلاثة أبيات طيلة حياته على شعراء أفرغوا الوسع في مديحه، لأنّه ناقد يغوص في السرائر، ويستبطن الأحاسيس.

فإذا تركنا حديث أبي نواس من كتب الأدب، إلى ما روي عنه من قصص مع الرشيد في كتاب ألف ليلة وليلة؛ فإن أذكر أن الباحث الدكتور محمد بن علي الهرفي، أصدر كتاباً قيّماً تحت عنوان: (هارون الرشيد بين السيرة الواقعية والسيرة الشعبية)، ذكر فيه أمثلةً جيدة للقصص المنسوبة للرشيد مع أبي نواس وغير أبي نواس في كتب التراث الشعبي، فبيّن ما بهما من المتناقضات التي تنطق بالافتعال، وحمل على أمثال

(١) ديوان العباس، ص٣١٢.

أبي الفرج الأصفهاني ومن حذا حذوه حملاتٍ مؤيّدةً بالمنطق، وهو بذلك قد كفاني الحديث عن أراجيف (ألف ليلة وليلة) في فصلٍ أعقِده في هذا الكتاب، لأن مجرّد ذكر هذه الحماقات وإن كان الغرضُ تكذيبها، قد يُساعد على ذيوعها، ولا أحبّ أن تذكر في كتاب جاد يهدف إلى الحقائق لا إلى سردْ الأكاذيب، فلعلّ من يريد النماذج الدالّة على حماقات هؤلاء المخترعين، أن يرجع إلى كتاب الدكتور الهرفي فهو سديد مفيد.

على أنّ الأمر لم يقتصر على ذيوع كتاب (ألف ليلة) في أوروبا، وذيوع الكتاب هناك باقتباس مفترياته، بل انتقل إلى التأليف الفني في أمور تبعد عن هارون الرشيد، ولكنّ رغبة التشهير بهذا الخليفة الخطير تدفع المغرضين إلى أن يقحموا ذكره من خلال قصصٍ أسطورية تُنسب إليه دون أن يقتضيها المقام! وأشير إلى كتاب (حاجي بابا أصفهاني) الذي ألّفه الكاتب الإنجليزي (جيمس موير) ليتحدّث عن أحوال إيران في القرن الثامن عشر في شكل روائي شائق، فقد أقحم ذكر هارون الرشيد في قصّة طويلة زعم أنها جرتْ بينه وبين حلاّق بغدادي يسمّى (علي السقا) ولك أن تعجب حين تجد الرشيد يخترق عشرة قرون كاملةً ليتّصل بحديث تجري وقائعه في القرن الثامن عشر! والقصة فارسية لا عربية، ولكن لابد في نظر الكاتب الإنجليزي من إقحام (هارون الرشيد) ليذكر عنه ما يسيء، وهو أرفع مقاماً، وأجلّ مكانةً من أن يُساق هذا المساق!!

وأخيراً.. لعلّ هذه السطور قد ساعدت على جلاء بعض الحقائق عن الرشيد وصِلاته ببعض مَن عاصروه من الشعراء.

* * *

ماذا قال هؤلاء؟

للمقال الوجيز إذا كتبه باحث متمكن في مجلّـة مرموقة أهدافه الصحيحة، ومرماه القريب، فقد يكون به من عميق النظرة ما لا يوجد في كتاب حافل يكتبه أكاديميّ يحشد ويجمع دون تحليل، كما نرى في بعض ما نقرأ عن الرشيد وغير الرشيد، وقد شاءت مجلة (الهلال) ـ في بعض عهودها الزاهـرة ـ أن تُصدر عدداً خاصاً عن هـارون الرشـيد، فاستكتبتْ نفراً من خيرة الدارسين، وحدّدتْ لكل كاتب موضوعه كيلا يتكرر القول في اتجاه واحد، وبذلك جاء العدد الخاص بهذا العاهل العظيم فريداً في بابه، إذ حوى من ثمار العقول الناضجة ما يندر الحصول عليه في مؤلّف لكاتب واحد، لذلك رأيت أن أختار مما كتبه بعضُ هؤلاء الأفاضل ما قد يفيد الباحث عن تاريخ الرشيد.

وقد افتتح العددَ الكاتبُ الكبير عباس محمود العقاد فكتب مقالاً تحت عنوان: (الحياة الفكرية في عهد الرشيد) وقد بدأه بنظرٍ اجتماعي في أحوال الناس فقال[1]:

---

(١) مجلة الهلال، أغسطس سنة ١٩٤٠م، العدد الخاص بالرشيد، ص١٠٩٠.

«تتأثـر الحيـاة الفكريـة بأحوال المعيشـة، كما تتـأثرُ بالعلـوم والدراسـات والتواليف، وربما كانـت الأحوال المعيشـية أعمّ أثراً في تحويل الأفكار والخواطر النفسية، من دراسة الكتب ومذاكرة العلوم، لأنّ الدراسة مقصورة على الخاصة، قلّما تجاوزهم إلى الدهماء، أما أحوال المعيشـة فتشمل كلّ طبقة وكل بيئـة ممن يدرسـون ويفكرون أو ممن يتلقّون الأفكار بالتلقين والإيحاء».

وبهذا حكم العقاد للحالـة الاجتماعية بتأثيرهـا الشديد في الحالة الفكريـة، وقد قال عن الحيـاة الاجتماعيـة في عهد الرشيد: «إن أحوال المعيشة هي التي دفعت المسلمين إذ ذاك إلى الانتقال من حضارة عربية محضة إلى حضارة عالمية، فوجد المسلمين أنفسهم في دولةٍ يحيط بها أجيـالٌ من الفرس والروم والترك والفرنجـة والهند والصين، وبذلـك أصبح انحصار الفكر في الحدود العربية من أصعب الأمور، فانفسح أفق النظر بالمراس والتجربة والمشاهدة قبل أن ينفسح بترجمة الكتب عن الفرس واليونان، وقد بدأ ذلك بالتدرّج شيئاً من عهد المنصور حتى عهد المأمون.

لذلـك كانت الحياة الدراسـية إلى عهد الرشـيد مقصورة على تحصيل المعارف العربية حين وُجدَت في عالم الدين أو في عالم اللغة أو في عالم الأدب إلاّ ما نَدَر من الترجمات والمنقولات، فمعظم الباحثين والمفكّرين كانوا من فقهاء الدين أو مؤرخي الغزوات أو جامعي القصائد والروايـات، أو مصحّحي اللغـة وقواعد النحو والصرف والاشـتقاق،

كأنّهم كانوا يسجّلون حساب الثروة العربية قبل أن يختلط بغيره من حساب الثروات التي أوشكت أن تشاركها في مجال الثقافة والتفكير .

فماذا يريد العقاد أن يقول في هذه الفقرات؟ إنه يقول: «إن الاتجاه العام ـ إلا ما ندر ـ في عهد الرشيد كان منصبّاً على المعارف العربية من عقيدة وشريعة ولغة، فتلك هي الأصول التي رسخت قواعدُها في عهد الرشيد».

أما الترجُمات الوافدة من الأمم المختلفة فكانت نادرةً، لأن هناك ترجمات بدأتْ في عهد المنصور وواصلتْ سيرها إلى عهد الرشيد، ولكنها لم تشمل الطابع العام، ولم تكن على الصورة التي جدّت في عهد المأمون، وقد بدأ الرشيد بإنشاء بيت الحكمة، ولكنه كان بذْراً يوضع في أرض، ولم يؤتَ الثمر إلاّ من بعده، وفي هذا الكلام ما يمنع الخلط الذي يقع فيه كثير من المؤلفين، إذ يتحدّثون عن الترجمة في العصر العباسي دون أن يراعوا الفواصل القائمة بين العصور، فحديثهم عن الترجمة في عهد المنصور هو حديثهم عنها في عهد المأمون، وذلك غير الواقع، وقد علّله العقاد بأثر الحياة الاجتماعية في اطّراد الحياة الفكرية، وقد كانت الحياة الاجتماعية فيما قبل عهد المأمون خاليةً من التعقيد الذي عُرف فيما بعد، والخلفاء العباسيون على رغبتهم في تشجيع الشعوب وتوسيع الحضارة لا يستطيعون ـ كما قال العقاد ـ أن ينسوا التراث العربي نسيةً واحدةً، ولا أن يعوّدوا الناس الاستخفاف به والإعراض عنه، فحرصوا على ذلك التراث في الأدب والدين على السواء!

هذا نمط من تفكير العقاد، نتركه إلى مقال جيد كتبه المؤرخ الكبير الأستاذ محمد كرد علي تحت عنوان[١]: (جبار بني العباس ليس بالمستهتر الماجن)، وهو مقالٌ ينعى على بعض المؤرخين ما تناولوا به سيرة الرشيد من إمعان في وصف مظاهر اللهو والاستهتار، «فجبار بني العباس الذي أشْجى الروم وقمعهم، وكان من أكبر همه ألاّ يدعهم يوماً يتنفسون الصعداء، وأغزى ابنه القاسم بلاد الروم مرّة فقتل منهم خمسين ألفاً، وأخذ خمسة آلاف دابّة بسروج الفضة ولُجُمها، وعمل من السفن الحربية ما لم يقم بمثله أحد قبله، وقسّم الأموال في الثغور والسواحل، واختزل الثغور من الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم، هذا الجبار يستحيل أن يكون كما صوّرته كتب الأدب والمحاضرات».

وقد أشرتُ في هذا الكتاب إلى ما يؤكد ذلك مستشهداً بنقول من الأستاذ محمد كرد علي نفسه، فلأترك هذه الناحية لأنتقل إلى ردّ مفحم كتبه المؤرخ الكبير ردّاً على الأستاذ (سترسْتين) حين زعم أن عهد الرشيد كان مبدأ الانحلال والانحطاط في الدولة العباسية، ولعلّ القارئ يذكر أني أشرتُ إلى هذا الزعم في مقدمة الكتاب، ووعدتُ أن أعود إليه، وها هو ذا الأستاذ محمد كرد علي يقول في تفنيده[٢]:

«إننا نعرف معرفةً لا مجال للشك فيها أن عصر الرشيد وابنه

(١) مجلة الهلال، أغسطس سنة ١٩٤٠م، العدد الخاص بالرشيد، ص١١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١١٠٢.

المأمون كانا أرقى عصور بني العباس، ومن أسعدها على الناس، وقد دعاه المؤرخون من الإفرنج بالعصر الذهبي، ولعلّ السيد سترستين استنتج ذلك من كون الرشيد عهد لإبراهيم بن الأغلب بإمارة إفريقية، مقابل أربعين ألف دينار كل سنة، وينزل عن المعونة التي كان سلفه يأخذها من مصر، وقدرُها مئة ألف دينار، وأن يجعل الإمارة وراثيّة تتناقل في أعقاب ذلك الأمير.

وكلٌّ من أمعن في تحليل هذه القضية ـ أيْ منح الرشيد لبني الأغلب استقلالاً ذاتياً على قاعدة اللامركزية، ليكون حاجزاً بينه وبين خليفة الأندلس الأموي ـ يدرك أن القصد من ذلك أن يتفرّغ الخليفة من مسائل أفريقية إلى مشاكله العظيمة في المشرق، ومحالٌ أن تدار مثل هذه الممالك العظيمة بغير هذا الأسلوب لتنائي الأقطار، ولأن كل أهل بلد يحرصون على أن تُصرف أموالهم في أرضهم، وأن تكون أقضيتهم واختلافاتهم سريعة التنفيذ، والحاضر أبداً يرى ما لا يرى الغائب، ولو لم يكن الأغالبة على شيء من الاستقلال الذاتي ما تيسّر لهم أن يقاتلوا الإباضية الخوارج، أصحاب الدولة الرستمية بالجزائر، ولا أن يقفوا بالمرصاد لبني إدريس بن عبد الله ملك طنجة في بلاد المغرب الأقصى، ولا أن يفتحوا صقلية ومالطة وجزائر البحر، ولا أن يعمروا ما فتحوا عمراناً لا يقل عن عمران الأمويين في بلاد الأندلس.. وليس من الحكمة في شيء أن يحارب الخليفة عدة حروب داخلية في آن واحد، ولا أن يوزّع قواه في إخضاع شعوب في القاصية، وإذا سهل أمرهم عليه فلن يسهل على أعقابه».

ومنطق الأستاذ كرد علي لا يُدفع صوابَ نظرةٍ، وعُمْقَ استدلال.

أما الأستاذ علي أدهم فقد عقد موازنة دقيقة بين المنصور والرشيد، تعرّض فيها لنشأة الخليفتين المختلفة موضحاً أسلوبي الحكم لدى الرجلين، وموقفهما من العلويين، ومما قاله بهذا الصدد[1]:

«كان المنصور يحكم ورائده سوءُ الظن، ورغبتُه في إثبات إرادته، وفرضُ أفكاره، وتنفيذ خططه، وكان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، ويجعل كل رجاله أصفاراً لا قيمة لها، ولم يكن منصب الوزارة في أيامه كبير القيمة، لاستقلاله بالنفوذ، وجمعه السلطة تحت يده، وكان شغفُ المنصور بالعمل وإقباله عليه من القوة والتفاني بحيث لم يترك شيئاً لرجاله، والعملُ الذي يرى تركه لهم لا يخلو من مراقبته، وإذا قصّروا في أدائه غالى في تقريعهم وإيذائهم، وبمقدار إعجابه بمظاهر قوة الأخلاق كان سيّئ الظن بالناس، قليل الثقة بهم، يعتقد أنهم لا يتورّعون عن الخيانة والنهب إذا واتتهم الظروف، وسنحت لهم الفرصة.

وهذه الطريقة على ما بها من عيوب، واستئثار بالسلطة، كانت تجعل الحكّام يخافون مراجعته ويخشون بأسه، وكان كل والٍ من الولاة يعتقد أنّ عين الخليفة اليقظة الساهرة تراقبه من بعيد، وتُحصي عليه حركاته وسكناته، وتطّلع على كل مظلمة، وأنّ مثل هذا الرجل لا تُجدي عنده شفاعة الشفعاء، ولا توسّط الوسطاء، وكان يجهد نفسه في الاطّلاع

(١) عدد الهلال، ص١١٣٢.

على أتفه الأمور وأقلها قيمةً، وكان مستبداً وحاكماً بأمره في أعظم معاني هذه الكلمة وأسماها، وكذلك في أضيق معانيها، ولم يكن المنصور مع ذلك يتمتع بصحة موفورة، وبنية سليمة، ولكنه كان كثير النشاط، جمّ الحيوية، حديد الأعصاب، جلْدَاً على العمل» . . .

هذا عن المنصور، أما الرشيد فقد كان قويّ البنية شديد البأس، ولكن أعصابه لم تكن لتحتمل الكد المرهق، والمثابرة الملحّة، وقد ولي الخلافة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وتوفي وهو ابن خمس وأربعين، وربما كان لإفراطه في حب الاستمتاع بالحياة أثرٌ في تعجيل وفاته في هذه السن المبكرة، وقد ولي جده المنصور الخلافة في الأربعين من عمره، ومع ما بذل من جهد مضنٍ استطاع أن يحمل أعباء الملك زهاء عشرين عاماً، وقد أعانه على ذلك اعتداله في تلبية مطالب الجسد، وما كان يلتزمه في حياته من التقلّل والتقشّف، وكراهة البذخ والرفاهية، وقد كان نظام الحكومة في عهد الرشيد أتمّ وأرقى منه في عهد المنصور، لتوفّر وجود الإدارات والوظائف، والمناصب المقتبسة من الرومان والفرس.

ولم يكن الرشيد مضطرّاً إلى مراجعة كل صغيرة وكبيرة، بل كان يكتفي بالإشراف على أمهات المسائل، والسياسة العامة للدولة، وقد أحسن الرشيد في اختيار البرامكة لمساعدته في تدبير المُلك، فقد كانوا من أكفأ الوزراء وأقدرهم على معالجة المعضلات السياسية، والأزمات الحازبة، والثورات الخطيرة، ولكنه أفرط في الاستسلام لهم، وترك الحبل على الغارب، وقد أظهرت له الأيام خطر هذا الاستسلام على مُلكه».

في هذه السطور المتقدمة التي كتبها الباحث العميق الأستاذ علي أدهم ما يغني عن فصول كثيرة تكتب في الموازنة بين المنصور وحفيده، بل إن القارئ ليعرف المنصور والرشيد مَن هما؟ إذا تأمل فيما كتبه الباحث الدقيق، وقد مضى في مقاله إلى حديث عن العرب والفرس في عهد الخليفتيْن وإلى موقفهما من العلويين، وتأثرهما بالزهاد قلةً وكثرةً، وهو في كل ذلك دقيق النظرة صائب الهدف! وقد ختم مقاله بقوله[1]:

والواقع أن أخلاق المنصور تشبه الأخلاق المعروفة عن بُناة الممالك، ومنشئي الدول، وأخلاق الرشيد وأعماله تتفق مع أخلاق الذين يجيئون في إبان الحضارة، واستتباب المُلك.. فأولهما يمثّل قسوة المُلك وروعته، والثاني يمثّل بهاءه وجماله!.

وقد اختصّ الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشري بالحديث عن جانب الأدب في حياة الرشيد، فقدم للكلام بفقرة عن مكانة الرشيد عند الخاصة والعامة، ثم كرّ على تهجين الروايات التي تزعم أن أمير المؤمنين كان منهمكاً في الشراب والمجون، وبلغ حد الاعتدال حين قال[2]:

«قد يكون الرشيد قائماً على طاعة الله تعالى مؤتمراً بما أُمر به، منتهياً عما نهى عنه، وقد يسيغ مع هذا الاستماع إلى الغناء، وقد يُصيب

---

(١) عدد الهلال، ص١١٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١٤٦.

من بعض النبيذ مجتهداً أو مُجازاً بفتـوى من يثق في فقهـه ودينـه، وقد يجمع بين هذا وهذا، ولكن الرواية لهذا ولهذا يأبى كل منهما إلا إسرافاً وغلوّاً يتجاوز حدود المعقول. . . وكيف كان الأمر. . فقد رُمي التاريخ العربي ـ وعلى الأخص ما يتصل منه بالآداب ـ بطائفةٍ من الرواة، كانوا يتكثّرون بألوان المبالغات الفادحة أحياناً، طلباً للإطراف والإغراب، ولـو أحصيت ما أعطى المهدي الشعراءَ، وما أجاز به الرشيد الشعراء والمغنّين، ما تركت على ظهر الأرض درهماً ولا ديناراً، ولا خلّفت فيما أجنّ بطنها أوقية من ذهب أو فضة.

إن ما وقع لدينا من الكتب لم يُدلِ بحديث واضح مفصّل عن نشأته وسيرته قبل أن تُفضي إليه الخلافة، ولكنّ ما نعرفه من وثاقة عقل الخليفة المهدي، وشدّة طبعه، وأخذه بالجد في عامة أمره، يدلّنا على أنه أدّب ولديه ـ موسى وهارون ـ بأحسن ما يمكن أن يتأدّب به أبناء الخلفاء، ومن جهة أخرى، فإن تاريخ الرشيد الذي انتهى إلينا بعد ولايته لاشك مُجْلٍ عليك من الرجل ـ إلى شدة العقل وجودة الرأي، وحدّة الذكاء ـ رجلاً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً محاضراً كاتباً خطيباً، وهذا لا يتسق للمرء بالفطرة، وإنما يكون بالقراءة والدرس والنظر والتمرين.

ثم استشهد البشري بمأثور مما رُوي عن الرشيد في مجالسه، وفي خُطبـه، وفي رسـائله، وفيما صحّ لدى الكاتب من أشـعاره، وكلّه ذائع مشتهر، وأذكر أني في مجال الحديث عن ثقافة الرشيد لم أشأ أن أعتمد على الرسائل المنسوبة إلى أمير المؤمنين، لأن لها كتّاباً معروفين بأسمائهم،

وهم يفهمون ما يعنيه الخليفة أو الوزير ثم يكتبون، أما الشعر المروي عنه فمجال نقد.

وأما الدكتور زكي مبارك فقد تحدّث عن الرشيد في مجالس أُنسه، وكان معتدلاً في استنباطه وتخريجه، حيث روى ما أُذيع عن الرشيد، ونفى وأثبت، واستحسن واستهجن، ثم قال متسائلاً[1]:

هل لنا أن نُصدّق كل ما حكاه الرواة عن مجالس الرشيد؟ وأجاب عن ذلك بقوله:

إن من الجريمة أن نصدّق كل ما ذكره الرواة عن الرشيد لأسباب هي:

أولاً - أنّ تلك الروايات وصلت في بعض الأحوال إلى السخف والهزل.

ثانياً - أنّ الرشيد كانت له ذاتية محترمة تأبى عليه الإسفاف.

ثالثاً - أنّ الرشيد له خصوم، يسرّهم أن يشيع أنه من أهل الخلاعة والمجون.

وتابعَ يقول: الحق كل الحق أنّ الرشيد عَرفَ مجالس الأُنس في الحدود التي تسمح بها منزلة خليفةٍ عظيمٍ، له سلطان في المشرق والمغرب، وله خُلُق ينهاه عن التبذّل، وله دينٌ يحميه من السقوط!.

---

(١) عدد الهلال، ص١١٦٤.

إنّ جوّ العراق حادٌّ جداً، فهو شديد البرد في الشتاء، شديد القيظ في الصيف، وهو من أجل ذلك يجني جناية على الحواس والأعصاب، فهل يكثرُ على الرشيد أن يعرف مجالس الأنس، وقد جلس على عرش العراق؟ كيف ينجو من هموم المُلك، إن لم يسترح ساعة أو ساعتين كلّ مساء؟ إنّ الرشيد حين جلس على عرش العراق ملك أسباب السيطرة على المشرق والمغرب، لأن العراق مكّن من جلسوا على عرشه بأن تكون لهم مطامع سياسية واقتصادية، وكانت الدنيا قد سمحت للرشيد بملك في النواحي الآسيوية والإفريقية، مُلك ضخم يوحي له بأن السحاب لن يجود إلا في أرضه حيث يقع!».

لقد آثرت أن أنقل رأي الدكتور مبارك، لأنه معروفٌ بالاسترسال في الخاطر إلى أبعد مدى، ولكنه مع استرساله لم يُجز لنفسه أن يتبع شطط المسرفين، بل آثرهم بالملام، وأظن ما قدمته من آراء كتّاب الهلال كافياً لإعطاء وجهات نظر سديدة أدلى بها باحثون فضلاء، وفي المجلة فصول رائعة كتبها الأساتذة: الدكتور منصور فهمي، والأستاذ محمد أحمد جاد المولى، والأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ عبد الحميد العبادي، وغيرهم. وعسى أن يكون ذكر أسمائهم الكريمة دافعاً للقارئ أن يلمّ بما أبدعوا في تسطيره، لأن ما قيل يستوجب الالتفات.

هذا، ولعلّ من المناسب أن أنتقل من مجلة (الهلال) إلى مجلة (الثقافة) لأسجّل رأياً خاصاً بهارون الرشيد، حيث ألّف الدكتور أحمد

أمين كتاباً عنه، أشرتُ إليه من قبل، فنقده الأستاذ نقولا الحداد بمجلة (الثقافة) التي يُشرف على تحريرها الأستاذ أحمد أمين، وكان مما آخذه عليه[1]، أنه دافع عن أخطائه بحجة أن ظروف عصره قد اقتضت هذه الأخطاء. مع أنّ الحق والصواب عنصران أدبيان مطلقان في كل مكان وزمان، فالخطأُ خطأٌ في أي زمان ولا شأن للبيئة به ولا للظروف المحيطة».

هذا ما قاله الأستاذ نقولا الحداد، وقد علّق عليه الدكتور أحمد أمين[2] فقال ببعض التصرف:

«إني أوافق على أن الحق والباطل حقائق مجرّدة في كل زمان ومكان لا يتغيّران بتغيّر الأشخاص، ولكني أخالفه في مؤاخذة الناس عليهما مهما تغيّرت البيئة، فالمؤاخذة إنما تكون بمقدار تقدير الناس للحق والباطل، فهؤلاء المصريون ـ مثلاً ـ كان نساؤهم يتحجّبن، وكان الرجال يرون الحجاب فضيلة، ثم سفرْن، فرأى الرجال أن السفور فضيلة، والمصريون يقدّرون العفّة أكثر مما يقدّرها الألمان والإنجليز، وليست المسؤولية على هؤلاء وهؤلاء واحدة، بل إن الأمة الواحدة يختلف تقديرها للفضيلة بحسب المكان، فلا تكون المؤاخذة واحدة، فالغيرة في (الصعيد) أكثر منها في (البحيرة)، فإذا قتل الصعيدي زوجته

---

(١) مجلة الثقافة، العدد (٦٦٢)، ٣/ ٩/ ١٩٥١م.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٣/ ١٩٥١.

أو أخته غيرةً لم يُؤاخَذ كما يؤاخَذ البحيري، والقضاةُ يعلمون ذلك، فيفرّقون في الحكم بينهما، فهل يريد الأستاذ أن يؤاخذ الرشيد، وهو في عصر لم يكن الناس يعرفون فيه حق الحياة وحق الحرية كما يؤاخذ من يتعدّى عليه اليوم، ومن أجل ذلك كان تقدير الظروف مأخوذاً به في القوانين الحديثة بالنسبة للمجرم، وإن كان الحق حقّاً في ذاته، والباطل باطلاً في ذاته، وعمر بن الخطاب لم يوقع الحدّ على فقير سرق ناقة، وقد اشتدّ به الجوع، وأوقف الحدود كلها في أيام الحرب حين رأى بعض الجناة يفرّون إلى بلاد الأعداء، أفبعد هذا يصرّ الأستاذ على أن المسؤولية في جميع العصور والأمكنة واحدة لا تتغيّر».

لستُ أؤيد وجهة نظر الدكتور أحمد أمين كلّ التأييد، ولكني أراها تفتح مجالاً للنظر التشريعي في ضوء الكتاب والسنّة، وما أشرتُ إليها الآن إلا لتعلّقها بمواقف الرشيد.

* * *

غروب سريع

لم يكن هارون الرشيد سعيداً في السنوات التي أعقبت مأساة البرامكة، فقد تكاثرت أعباءٌ عليه أن ينهض بها وحده، لأنّ ثقته في قُدرة وزرائه وأعوانه بعد هؤلاء لم تكن كثقته في كفاءة البرامكة، وقد انقلبتْ عليه سياسةُ الروم بعد المهادنة، واضطرّ إلى أن يرحل إلى الغزو دون اتئاد، وقد رجع منتصراً، ولكنه لم يفرح بالنصر كما يجب، لأنه لمس بوادر صراع خفيّ بين ولده الأمين ولي عهده الأول، وولده المأمون، وقد جعله تالياً للأمين في ولاية العهد، ولعلّه تذكر موقف الهادي منه، وما جرّ عليه من متاعب، كان من الممكن أن تتطوّر إلى حدّ المأساة، لو لم يحسمها القدر بالوفاة الفجائية لأخيه.

وقد كان في الرشيد حصافة تمنعه أن يجعل الولاية لاثنين ثم لثلاثة، لولا أنه لم يكن مرتاحاً في المبدأ لتولية الأمين، وقد وجد مَن حوله جميعاً يذعنون لرغبة زبيدة زوجه في إيثار الأمين، فجعله وليّ عهده، ثم رجع إلى نفسه، فرأى أنه ظلم المأمون وهو الأكبر سنّاً، وعرف بخبرته الماضية أن الأمين قد يضع العراقيل أمام أخيه، فكتب عهداً طويلاً لم يُعهد طوله فيما قبله من العهود، يلزم فيه الأمين بكافة حقوق المأمون، وأذاعه على الناس في موسم الحج، ثم رأى أن تكون الكعبة مقرّه الحافظ، ليكتسبَ بذلك

حرمةً أكيدة أمام العامة والخاصة، وقد أرّقه أن يجد ورقةً تحت حاشيته كُتبتْ بها هذه الأبيات في مسألة تعدد الولاية، ففزع واكتأب، لا لأنها أضافت الجديد إلى شجونه، بل لأنها أوقفته على مشاعر الناس حول ما أتى به من عمل سيؤجّج اللهيب، وهو يدري عقباه! هذه الأبيات التي تقول:

رأى الملكُ المهذب شرّ رأي ... لقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقّبه بعلم ... لبيَّضَ من مفارقه السودا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهمو، ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آلٍ ... وأورث شمل أُلفتهم بدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وأسلس لاجتنابهم القيادا
فويلٌ للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجري من دمائهمُ بحورٌ ... زواخر لا يرون لها نفادا
فَوِزْرُ بلائهم أبداً عليه ... أغيّاً كان ذلك أم رشادا

وفي تفكيره فيما كان من أمسه، وما يلاقي في حاضره، وما سيحدث في المستقبل بعد رحيله، جاءه أنّ أخاه الفضل بن يحيى البرمكي ـ أخاه في الرضاع ـ قد مات في محبسه، فأُلقي في روعِه أن أجله قريب من أجله، وكما ولدا في عام سيرحلان في عام! وقد يكون هذا وهْماً لا يخضع لمنطق، ولكنه يؤثر في النفس، ويتغلغل في شِعابها، فيحركُ ما سكن، ويهيج ما كمن، وفعلاً مرض الرشيد، وأحسّ سريان الداء في جسمه، ولكنه تماسك وأخذ يقاوم.

عرفنا من قبل غضبه على الثائر (رافع بن الليث) الذي خرج عليه في خراسان، والتفّ حوله من يشدّ أزره، وجاءت الأنباء للرشيد أنّ هذا الثائر قد استشرى خطره، وكلبت ضراوته، وقد تكون حركته أخذاً بثأر البرامكة، ولهم أنصارٌ بفارس يأسون لمصرعهم الظالم، ولئن كان رافع لم يثُر علناً لأمر البرامكة، فالذين التفّوا حوله وجدوها فرصةً سانحةً لردّ العدوان. . فصمّم هارون على أن يواجه الموقف بنفسه، ورأى المأمون أن يصحبه في غزوته، فلم يشأ أول الأمر، ولكنه أقنعه بأن شعوره كابن لا يسمحُ له أن يترك والده مريضاً في رحلة حربٍ لا في رحلة سلام، ولعلّ المأمون كان يستشعر شيئاً سيحدث فرأى أن يكون مع الجيش ساعة الخطر.

وسارت الكتائب المتراكمة في حشد لم يُعهد من قبل، والرشيدُ يتماسك، ولكنه لا يستطيع أن يكون كما عهد من قبل، قُدّم له فرس ليركبه فعجز عن الصعود إليه، فقُدّم له حمار فما استطاع الصعود فوقه، فحُمل إلى المركب لينام على سرير وثير، وهو مشغول الفكر بمرضه فوق شغله بالمعركة القادمة، ولعلّ شغله بمرضه قد احتلّ المساحة الكبرى من تفكيره، فشحب وجهه، وتبلبل خاطره، وانعكس ذلك على أحلامه في الرقاد، فرأى ما أفزعه، وجعله يتقلّب على شوك القتاد.

وما حان الصباح حتى استدعى طبيبه الخاص جبرائيل بن بختيشوع وكان يأنس لحديثه، لأنه لا يتحدّث معه إلا متفائلاً، مهما لحظ من أسباب العلّة، وتلك كياسةٌ عرفها من مزاولة فنه، فقال هارون حين رأى طبيبه:

تقدّم ياجبرائيل، واستمع إليّ! لقد رأيتُ رؤيا أطارت النوم عن عيني! فابتسم الطبيب وقال: خيراً ياأمير المؤمنين، فقال هارون: ليستْ خيراً كما أظن، فقد رأيت كأني جالسٌ على سريري، فبدتْ لعيني ذراعٌ أعرفها، وأعرفُ صاحبها، ولا أحبّ أن أتحدّث عنه، امتدّت الذراع حتى وصلت راحتها إلى عيني، وبها تربةٌ حمراء، وسمعت صاحب الكف يقول: هذه التربة ستدفن في مثلها! ثم انقطع الصوت، وغابت الذراع! وأنا من ساعتها لم أذق النوم. فتكلف الطبيب الابتسام، وقال: ياأمير المؤمنين، أنت مريض جسمياً، واشتغالك بمرضك في الصحو، قد انتقل إلى خاطرك في الحلم، فصوّر لك الوهم مناماً، ما يهمس بخاطرك في اليقظة، وصحتُك تتقدّم كل يوم فلا تيأس.

قال الرشيد: أتضحك عليّ يا جبرائيل؛ لم أستطع أن أركب الفرس، بل لم أستطع أن أركب الحمار، وصعدتُ إلى مركبي محمولاً على الأيدي! وتقول إن صحتك تتقدم يوماً بعد يوم! إني ألمس في بولي تغيّراً فخذ بعضه وقم بفحصه، بل أرسلْه إلى خبراء الفحص ممن تثق فيهم، إذ حدثتني أنك تعرف في هذا المجال من يفوقك براعةً وتشخيصاً!

وصدع الطبيب بالأمر، ومضى يوم وجاءت نتيجة الفحص بما لا يسرّ، إذ قال الفاحص وهو لا يدري أن البول بول أمير المؤمنين: قولوا لصاحب هذا البول يوصي من الآن فلن يعيش، ! وكتم الطبيب الأمر وقتاً، ولكن الرشيد أرسل من يستعلم، فرأى الصمت في الشفاه، والذهول في الوجه، فعرف بالعيان ما لم ينطق به اللسان، وتقاطرت دموعه! ثم دعا

ولده المأمون وأمره، أن يتقدّم بالجيش إلى مرو مع فريق من قواده العظام، لأنه يؤثر البقاء في الري قليلاً، حتى يستعيد أنفاسه، وما سار المأمون حتى بدأ التفكير القاتم يرسل سُحُبه الداكنة على وجه الرشيد، ودخل عليه من يسمّى بـ(الصباح الطبري)، وكان من خاصته في أيامه الأخيرة، فسأله الرشيد: لماذا أصرّ المأمون على أن يجيء معي؟ فقال الصباح: ليطمئن عليك يا أمير المؤمنين!

فسأل: ولماذا لم يصرّ الأمين ليطمئن هو الآخر، فقال الصباح: حين أعلن المأمون رغبته لم يشأ أن يتقدّمه، ولا بد من وجود أحدهما في بغداد!.

فعضّ الرشيد على شفتيه متأوهاً، فقال الصباح: عافاك الله ياأمير المؤمنين، وحفظك للدنيا وللدين.

فقال الرشيد: اسكت ياصباح! ليست علة الجسم وحدها هي التي تشغلني، ولكن علل الناس من حولي!.

فقال الصباح: الناس مجمعون على افتدائك، ويدعون لك بالصحة والعافية، ويعلمون أنك سِرت لحرب البغاة وأنت مريض، لا تستريح في مرض ولاعافية! فكيف يكون لهم علّة بعد أن أظهروا شعورهم الصادق!.

قال الرشيد: لن أخفي عنك شيئاً! لقد بدأ المرض يدبّ في أعضائي، وأحسبني هامة اليوم أو الغد، والأمين والمأمون يتنافسان، وكأنهما عدوان لا أخوان! ولكل واحد منهما رقيب عليّ، (مسرور) رقيب

المأمون وعينه اللاقطة، وبختيشوع رقيب الأمين ولسانه الناطق!.

فسكت الصباح.. حتى قطع الرشيد الصمت بقوله: عرفت ذلك عن يقين، ليس لمسرور شأن غير أن يمدح المأمون، وليس لبختيشوع شأن سوى أن يمدح الأمين، وتكرّر الأمر فلفت نظري، وبدت دلائله لي ولا أحب أن تُذاع! فحسبي أن أعلم.

ثم رأى الرشيد أن يتقدم في سيره ليلحق الجيش، فسار ركبه على هون حتى أتى (طوس) وأزعجته العلّة، فآثر أن يستريح.

يقول الراوي: وكانت رؤيا الرشيد التي رآها في الري لا تبرح خياله، وقد توهّم أنه سيموت في (طوس) فاستدعى مسروراً، وقال له: اذهب، وهات لي في يدك شيئاً من تربة هذا البستان.

وحار مسرور في هذا المطلب، إذْ ماذا يفعل الخليفة المريض بقبضةٍ من تراب، ولكنه أذعن طائعاً، وبعد لحضات، عاد مسرور وقد حسر ثوبه عن ذراعه، وبسط راحته بالتربة الحمراء، وتقدّم بما حمل رافعاً يده في وجه الرشيد! فأغمض عينه في ذعر وهو يقولُ: هذه والله هي الذراع التي رأيتها في منامي! لقد حان الأجل! ثم هذه هي طوس!.

وتحلق حوله أصحابه، وقد اشتدّت به العلّة، فأمر أن يحفر القبر في موضع البستان، ودعا بنفر من القرّاء، فجعلهم ينزلون إلى القبر، ويقرؤون به القرآن حتى ختموه، ثم حمل في مِحَفَّة ليرى القبر بعينه،

فقال له الصباح: سلمت ياأمير المؤمنين، فردّ عليه يائساً: ما أغنى عني ماليه، هلـك عني سـلطانيه، وأغمي عليه، فحملوه إلى مضجعه، وبقي يتأوّه ثلاثة أيام، ثم وافاه الأجل المحتوم!.

لا أحب أن أستطرد إلى ما كان من أمر الجيش، ومن مبـادرة المأمون، وتأهّب الأمين، فذلك كله مما لا يندرج في تاريخ الرشيد.

* * *

بغداد يا بلد الرشيد[1]

أنشأ الشاعر الكبير الأستاذ علي الجارم هذه القصيدة الرائعة متحدثاً عن حضارة بغداد في أزهى عصورها الزاهرة، عصر الرشيد، وقد ألقاها في جلسة افتتاح المؤتمر الطبي ببغداد سنة ١٩٣٨م، فأحدثت دوياً رناناً، وقالت الصحف إذ ذاك: إن المؤتمر قد قام لها وقعد

بغـدادُ يـا بلـدَ الـرشيـدِ	ومنـارةَ المجـد التليـدِ
يـا بسمـةً لمّـا تَـزَلْ	زهـراءَ فـي ثغـر الخلـود
يـا مـوطـنَ الحـبِّ المقيـمِ	ومضـربَ المثـلِ الشـرودِ
يـا سطـرَ مجـدٍ للعـرو	بـةِ خُـطَّ فـي لـوحِ الـوجـودِ
يـا رايـةَ الإسـلامِ والـ	إسـلامُ خَفَّـاقُ البنـودِ
يـا مغـربَ الأمـلِ القـديـم	ومشـرقَ الأمـلِ الجـديـدِ
يـا بنـتَ دجلـةَ قـد ظمئْـتُ	لـرشـفِ مَبْسِمِـك البَـرُودِ
يـا زهـرةَ الصحـراءِ رُدِّ	ي بهجـةَ الـدُّنيـا وزيـدي

(١) ديوان الجارم: ١/ ١٧٢.

يـــا جنـــةَ الأحـــلامِ طـــا	ل بِقــومنــا عهــدُ الــرقــودِ
يـــا بُهـــرَةَ المُلـــكِ الفسيـــحِ	وصخـــرةَ الملـــكِ الـــوطيـــدِ
يـــا زورةً تُحـــي المُنَـــى	إنْ كنـــتِ صـــادقـــةً فعـــودي!

* * *

بغـــدادُ، يـــا دارَ النّهـــى	والفـــنِّ، يـــا بيـــتَ القصيـــدِ
نبـــتَ القـــريـــضُ علـــى ضفَـــا	فِـــكِ بيـــن أفنـــانِ الـــورودِ
سَـــرَقَ التـــدلُّـــلَ مِـــن «عِنَـــا	نِ» والتفنُّـــن مِـــنْ «وحيـــدِ»
يشـــدُو كـــأنّ لَهَـــاتَـــهُ	شُـــدَّت علـــى أوتـــارِ عُـــودِ
بغـــدادُ أيـــنْ البحتـــريُّ؟	وأيـــن أيـــن ابـــنُ الـــوليـــدِ؟
ومجـــالـــسُ الشعـــراءِ فـــي	بيـــت ابـــن يحيـــى والـــرشيـــدِ؟
أيـــنْ القيـــانُ الضـــاحكـــا	ت يَمِسْـــنَ فـــي وَشْـــي البـــرودِ؟
الســـاحـــراتُ الفـــاتنـــا	تُ النُجـــل مـــن هيـــفٍ وغيـــدِ
الســـاهـــراتُ مـــع النّجـــو	م الآنفـــاتُ مـــن الهجـــودِ
مِـــن كـــلِّ بيضـــاء الطّلـــى	مهضـــومـــةِ الكَشْحيـــن رُودِ
يَخْطِـــرنَ حتـــى تَعجَـــبَ الـــ	أغصـــانُ مـــن ليـــن القـــدودِ
وإذا سَفَـــرْن فـــأيـــن ضـــو	ءُ الشمـــسِ مـــن شفـــق الخـــدودِ
يَعْبَثْـــن بـــالأيـــامِ، والـــ	أيـــامُ أعبـــثُ مـــن وليـــدِ!
خبـــأ الجمـــالُ لهـــنّ كنـــزاً	بيـــنَ ســـالفـــةٍ وجيـــدِ

كــم جــاشَ جيشُــك بــالفــوا رسِ مــن أســاورةٍ وصيــدِ!
للنصــــرِ فـــي أعــــلامهـــم صِلـــةٌ بـــأبنـــاءِ الغمـــودِ
مُلْـــــكٌ إذا صَــــوَّرْتَــــه عجــزَ الخيــالُ عــن الصعــودِ
وجُهـــود جبَّـــاريـــن تَصْغُـ ــرُ دونهـــم شُـــمُّ الجهـــودِ
الــرُسْــلُ تتلــوا الــرسْــلَ مــن بيــضٍ صقــالبــةٍ وســودِ
ســاروُا «القصــر الخلــد» يُعْـ ـشِي طــرفَهــم وهــج الحــديــدِ
يتعثَّـــرون، كــــأنَّهـــم يَمْشُـــون فـــي حَلَــق القيــودِ
الجـــوَّ يسطـــع بـــالظبـــا والأرضُ تــزخــرُ بــالجنــودِ
حتـــى إذا رجَعـــوا بـــدا بجبــاههـــم أثـــر السجـــودِ

* * *

الفلسفـــاتُ عــــرفتِهـــا والعِلــمُ طِفــلٌ فــي المهــودِ
والغــربُ ينظــر فــي جُمــودٍ نحـــو قـــاتلـــة الجُمـــودِ
كـــم مـــوئـــلٍ للمستجيـــر ومنهـــــلٍ للمستفيـــــدِ
و«الجــاحــظُ» المــرحُ اللعــو بُ يغــوصُ للــدّر الفــريــدِ
بغــدادُ، يــا وطــنَ الأديــب وأيكــة الشعــر الفــريــدِ
جَــدّدْتِ أحــلامــي وكنــتُ صَحــوتُ مــن عهــد عهيــدِ
جَمــحَ الخيــال فمــا اطمــأنَّ ولا استقـــر إلـــى خلـــودِ
جـــازَ القـــرونَ النـــائيـــا ت وفـــكَّ أســـرارَ العقـــودِ

ذَكَـرَ العهـودَ فـأنَّ للـذِّ كـرى وحـنَّ إلـى العهـودِ
واهتـاجَـه الطيـفُ البعيـد فَجَـنَّ للطيـفِ البعيـدِ
وصَبـا إلـى ظـلٍّ العـرو بـة فـي حِمـى المُلـك العتيـدِ

* * *

يـا أمَّـة العُـرب اركضـي مـلءَ العنـان ولا تهيـدي
سُـودي، فـآمـال المنـى والعبقـريـةُ أن تَسُـودي
هـذا أوانُ العَـدْوِ لا الـ إبطـاء والمشـي الـوئيـدِ
المجـدُ أن تتـوثّبـي وإذا وثبـتِ فـلا تحيـدي
وتُحلّقـي فـوق النجـو م بـلاَ شبيـهٍ أو نـديـدِ
وإذا شـدَا الكـون المفـا خـر كُنـتِ عنـوان النشيـدِ
لا تُخطئـي حـدّ العـلا مـا للمعـالـي مـن حـدودِ!
مـن يَصطـدِ النّمـر الـوثـو ب يعـفّ عـن صيـد الفهـودِ

* * *

هـذي طـلائـع نهضـة ذَهبـتْ بـآثـارِ الـركـودِ
بغـدادُ أشـرقَ نجمهـا وبَـدا بهـا سعـدُ السعـودِ
سلكـتْ إلـى المجـد القـديـم محجـةَ النهـج السـديـدِ
وزهـتْ بـأقمـارِ الهـدى وسطَـتْ بـأظفـارِ الأسـودِ

بغـداذُ، إنَّـا ـ وفـدُ مصـر ـ نفيـضُ بـالشـوق الأكيـدِ
جئنَـا نحيّـي العِلـم والـ آدابَ فـي العـدد العـديـدِ
مـرآكِ عيـدٌ للمنـى فُـزْنَـا بـه فـي يـوم عيـدِ
أهلـوك أهلُـونـا وأبـ ـنـاءُ العشيـرة والجـدودِ
بيـنْ القلـوب تشـوّفٌ كتشـوُّفِ الضـب العميـدِ
حتـى يكـاد يحـبُّ نخلـك نَخْـلَ أهلـيَ فـي «رشيـدِ»
شطّـت منـازلنـا، ومـا احـ ـتـاجَ الفـؤاد إلـى بـريـدِ
الـرافـدان تمـازجـا فـي الحـبّ بـالنيـل السعيـدِ
وتعـانـق الظّـلان: ظـلّ الطّـاق والهـرم المشيـدِ
جئنـاكِ نستبـقُ الخطـا أفضـاءَ أوديـةٍ وبيـدِ
طـالـتَ بنـا الصحـراءُ حـ ـتـى خلتهـا أبـد الأبيـدِ
يتخلّـص المـرقـى المـديـد بهـا إلـى مَـرْمـى مـديـدِ
كتخلـصّ الحسنـاء مـن وعـدِ طـوتـه إلـى وعـودِ
بحـرٌ بـلاَ شطّيْـن يـز خـرُ بـالتنـائِـف والنجـودِ
وسفينتـي بـرق بهـا مـا فـي فـؤادي مـن وقـودِ

علي الجارم

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *